

بِقَائِكَ الشَّعْرُ الْجَاهِلِي

هو كتاب نلص فيه المؤلف فصول كتاب الشعر الجاهلي ونقد منها
ما يتعلق بعلم التاريخ والاجتماع والأدب

تأليف

محمد فريد بخاري

(الطبعة الأولى)

حقوق الطبع محفوظة لمؤلفه

(طبع بمطبعة دائرة معارف القرن العشرين بمصر)

في ٥ أكتوبر سنة ١٩٢٦

تصحیح

نرجو حضرات القراء تصحیح نسخهم علي ما يأتي:

ص	س	خطأ	صواب
٣٨	٤	وقا الذين	وقال الذين
٦٢	١٤	المحطانية التي تمت	المحطانية التي لآمت
٩٤	١١	وبعده الى مكة	وبعده الى المدينة
١٠٢	٢١	عصبة	عصبية
١٢٠	٥	لتأرفوا	لتعارفوا
١٢٠	٢٤	بفصل	بفضل
١٤٤	١٩	قدر سوخ	قدر رسوخ

بِقَائِمَةِ الشَّعْرِ الْجَاهِلِيَّةِ

هو كتاب نلص فيه المؤلف فصول كتاب الشعر الجاهلي ونقد منها
ما يتعلق بعلم التاريخ والاجتماع والأدب

تأليف

محمد فريد الدين خوري

(الطبعة الأولى)

حقوق الطبع محفوظة لمؤلفه

(طبع بمطبعة دائرة معارف القرن العشرين بمصر)

في ٥ أكتوبر سنة ١٩٢٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على رسوله محمد
اخوانه المرسلين ، وآله وصحبه وتابعيهم الي يوم الدين

مقدمة الكتاب

أما بعد فقد قرأت في الجرائد منذ شهر تقارب لكتاب وضعه الاستاذ الدكتور
طه حسين ، أسماه (في الشعر الجاهلي) فقلت في نفسي مدرس الآداب العربية ، في
الجامعة المصرية اراد ان لا يقصُر ثمرات جهوده العقلية على تلاميذه فنشرها ليستفيد
منها الكافة ، فخبذا لو احتذى مثاله جميع المدرسين . ولكنني لم ألبث ان قرأت فصولا
ضافية الذبول لبعض شيوخ الادب في المدارس المصرية يشنون فيها على هذا الكتاب
جربا طاحنة تذهب باليابس والاخضر باعتبار أنه قد استطرد الى ذكر مسائل اتبع
فيها غير سبيل المؤمنين ، بل جعد بعض مانص عليه الكتاب المبين . ثم لم تمض غير
ايام حتى قرأت في الجرائد ان علماء الجامع الأزهر قد اجتمعوا وقرروا ان في
كتاب الدكتور طه حسين كفراً صريحاً وطالبرا الحكومة بمصادرته ، ومنع مؤلفه
عن التدريس كيلا يفتن فابنة الامة بما يبثه فيها من الاضاليل . وبينما الناس ينتظرون
جواب الحكومة اذا بالدكتور يعلن انه لم يقصد الطعن في الدين ، وانه يؤمن بالله
وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر الخ

هذه الحلقات المتصلة من الحوادث التي أثارها هذا الكتاب جفزتني الى الاطلاع
عليه فرأيت فيه اخطاء اجتماعية وسيكولوجية وفلسفية لا يصح السكوت عليها ،
وألفت الدكتور لا ضطراره الى تصعيد الاسباب التي حملت ذوى النفوس المريضة

على اختلاق الشعر ونسبته الى الجاهليين ، قد عول على كتب المحاضرات وهي قرارة الاكاذيب ، ومستنقم المفتريات من كل نوع ، فجاء كتابه بما حمل من اوزار المفترين ، وبما غلا هو فيه من تقصى اغراآت المناظرين ، وتسويلات المتنافسين ، من من القادة الاعلين طامسا لمعالم أكبر ثورة اجتماعية حدثت في العالم ، ألا وهي ظهور الديانة الاسلامية ، وما استتبع انتشارها من سقوط دول وقيام دول ، وفناء لغات وشعوب في لغات وشعوب ، وتبدل مبادئ واصول بمبادئ واصول ، وطروء عهد جديد على الانسانية انتقلت به درجات كثيرة في معارج العلم والفلسفة والاخلاق وال عمران

لاندي هنا ان الدكتور طه حسين قصد الى تشويه جمال هذه الثورة الكبرى في كتابه ، ولكنه بغلوه في تحرى اسباب الاختلاق على الجاهليين التقط من كتب المحاضرات جميع ما فيها مما يتعلق بالاختلاق وبالعوامل التي حملت عليه ، وبالطامم التي دفعت اليه ، ولم يُسرّ على كل ذلك ما يقضى به عليه مذهب ديكات من النقد والتمحيص بل وثق به ثقة مطلقة حملته على اصدار الاحكام جزافا في تركيب المسلمين الاولين ، وتاليف مجتمهم ، مما لا يتفق واثر هذه الثورة التي قاموا بها في عالم الاجتماع والعلم والمدنية ، ولا يتلاءم وما اعترف به عنها خصمها ومناظروها قديما وحديثا فيينا علماء الغرب لا ينالكون انفسهم من الدهش من قوة هذه الحركة الاجتماعية التي انبعثت من بلاد العرب فجأة فرجحت العالم كله رجات اذهلته عن كل شيء الا عنها ، ولا يزال دويهايرن في آفاقه ، يصعب علينا ان نرى واحدا منا يضع كتابا بغرض قليل الخطر هو اثبات ان الشعر الجاهلي مخلوق ، يكون اثره على قارئه ان يحتقر هذه الثورة الكبرى ، ويستخف برجالها الذين اخذوا حظا من تمثيلها والاضطلاع باعبائها وقد آتت العالم ببركات لا يزال يعترف لها بها الي اليوم

فاذا كان الانجليزى يفخر بان آباءه كانوا اول من فكر في وضع حد لحكم الفرد ، واذا كان الفرنسي يفخر بان اسلافه اول من فكر في تعيين حقوق الانسان الطبيعية ، فهلا يفخر المسلمون بان اوائلهم كانوا بايعاز من دينهم اول من اعلن الناس كافة بان الانسانية قد بلغت سن الرشد ، وانها اصبحت لا يصح ان تخضع لطوائف تنتحل

لنفسها حق الوصاية عليها ، وان السلطان للجماعة لا للفرد ، وان الممول على العقل لا على الموروثات ، وان الايمان بالدليل لا بالقليد، وان التمايز بالزايالا بالجنسية ولا بالقومية، وان الحكم بالشورى لا بالاستبداد، وان الدين هو القطرة التي فطر الله النفوس عليها ، لا الرسوم ولا الاشكال التي يزيناها الوهم ويولدها الخيال ، وان اصل كل الاديان واحد وما فرق الناس شيئا واحزابا الا قادتهم بما صوروه لهم من الاباطيل والاضاليل الخ الخ ، قلت فهلا يفخر المسلمون بهذه المراقبة في الاصول العالية مع الفآخرين ، ويتحققون ان لهم اكرار في ترقية الانسانية مع العاملين ؟

اني ما كدت اتم قراءه كتاب الدكتور طه حسين حتى وجدتني مدفوعا لوضع نقد عليه استهدف به غرضين : (اولهما) مناقشته في المسائل التي تتعلق بتكوين الامة الاسلامية ولا يتفق حكمة فيها والمقررات التاريخية ، ولا الاصول الاجتماعية، وارى الاغضاء عنها ضار كل الضرر بناتجة هذا الجيل وهم في هذا الدور من الانتقال السري

(وثانيهما) مقابلة اول ثمرات الجامعة المصرية بما تستحقه من العناية وهذه العناية لا تعنى في عالم العلم غير النقد والتمحيص
فالله ارجو ان يجعل عملي هذا خالصا من شوائب المراآة والمباراة، وان ينفع به الناس انه الموفق للهداية ، المعين على بلوغ الكفاية

نقد كتاب الشعر الجاهلي

نبدأ بما تصدينا له من نقد كتاب الشعر الجاهلي فصلا فصلا فنُعنى بايراد ملخص كل فصل منه بعبارات المؤلف نفسه ثم نردفها بملاحظاتنا عليها فنقول:

الكتاب الاول

١

تمهيد

كتب الدكتور طه حسين تحت هذا العنوان ماملخصه :

(هذا نحو من البحث عن تاريخ الشعر العربي جديد لم يألفه الناس عندنا)
 (من قبل . واكاد اثق بان فريقا منهم سيلقونه ساخطين عليه ، وان فريقا آخر)
 (سيورون عنه ازورارا ، حولكني على سخط اولئك وازورار هؤلاء اريد ان اذيع)
 هذا البحث

(نحن بين اثنين اما ان نقبل في الأدب وتاريخه ما قال القدماء واما ان)
 (نضع علم المتقدمين كله موضع البحث بل الشك . اريد ان لا قبل شيئا مما قال)
 (القدماء في الادب وتاريخه الا بعد بحث وثبت ان لم ينتهيا الى اليقين فقد)
 ينتهيان الى الرجحان

(بين يدينا مسألة الشعر الجاهلي نريد ان ندرسها وننتهي فيها الى الحق . فاما)
 (انصار القديم فأمامهم الطريق معبدة ، أليس قد اجمع القدماء على ان طائفة)
 (كثيرة من اشعراء قد عاشت قبل الاسلام ، لم قصائد ومقطوعات حفظها)
 (عنهم روايتهم ، وتناقلها عنهم الناس ، حتي جاء عصر التدوين فدونت في الكتب ،)
 (فلم يبق الا ان تأخذ عنهم ، اقالوا راضين به ، مطمأنين اليه . فادا لم يكن لا حدنا)
 (بد من أن يبعث وينقد ويحقق فهو يستطيع هذا دون ان يجاوز مذهب انصار)
 (القديم . فالعلماء قد اختلفوا في رواية الشعر الجاهلي بعض الاختلاف فلنوازن بينهم ،)
 (ونترجح رواية على رواية ، ولنؤثر ضبطا على ضبط . هذا مذهب انصار القديم ،)
 (وهو المذهب الذائع في مصر ، وهو المذهب الرسمي ايضا ، مضت عليه مدارس)
 الحكومة وكتبها ومناهجها

(واما انصار الجديد فالطريق امامهم معوجة ملتوية ، فقد خلق الله لهم عقولا)
 (تجرد من الشك لذة ، وفي القلق والاضطراب رضا . هم لا يطمانون الي ما قال)
 (القدماء ، وانما يلفونه بالحفظ والشك ، ويتساءلون أهناك شعر جاهلي ؟ فان كان)
 (هناك شعر جاهلي فما السبيل الى معرفته ؟ وما هو ؟ وما مقداره ؟ وبم يمتاز من)
 (غيره ؟ هم لا يعرفون ان العرب ينقسمون الى باقية وبائدة ، وعاربة ومستعربة ،)
 (ولا أن اولئك من جرم وهؤلاء من ولد اسماعيل ، ولا ان امرأ القيس وطرفة)
 (وابن كلثوم قالوا هذه المظولات ، واكنهم يعرفون ان القدماء كانوا يرون ذلك)

(ويريدون ان يتبينوا أكان القدماء مصيبين ام مخطئين ؟ فهم يشكون . ونتاج)
(هذا المذهب عظيمة الخطر فهي الى الثورة الادبية اقرب . وحسبك انهم يشكون)
(فيما كان الناس يرونه يقينا ، وقد يججدون ما اجمع الناس على انه حق لاشك فيه)
(واول شيء أجازك به في هذا الحديث هو اني شككت في قيمة الشعر)
(الجاهلي ، وانتهي بي البحث الى شيء ان لم يكن يقينا فهو قريب من اليقين . ذلك)
(ان الكثرة المطلقة مما نسميه شعراً جاهليا ليست من الجاهلية في شيء ، وانما هي)
(منتحلة مختلفة بعد ظهور الاسلام . فشعر امرئ القيس أو طرفة او ابن كلثوم او)
(عنزة ليس من هؤلاء الناس في شيء ، وانما هو انتقال الرواة ، او اختلاق)
(الاعراب ، او صنعة النحاة او تكلف القصاص ، او اختراع المفسرين والمحدثين)
(والمتكلمين) انتهى

راينا في هذا الكلام

ان العبارات التي اتينا عليها في الفصل المتقدم هي ملخص التمهيد الذي وضعه
الاستاذ الدكتور طه حسين في صدر كتابه . وقد انتهى فيه مذهبا لا نقول حسنا
فحسب ، بل نقول هو المذهب الوحيد الذي لا يصح الجري على خلافه ليس في نقد
ما تركه لنا الاقدمون في الادب فقط ، بل وفي كل ما تركوه في جميع فروع المعلومات
البشرية . هذا مقتضى النهضة الادبية التي نندفع في تيارها اليوم . وقد اقتضت كل
نهضة ادبية في الامم مثل هذا الشعور حيال ما تركه لها اسلافها ، فغيروا بذلك وجوه
توارينهم ، وتآدوا به الى معارف حقة كان لها اكبر الاثر في بلوغهم الكمال الادبي
الذي وصلوا اليه

فتمهيد الدكتور طه حسين هو المنتظر من استاذ الآداب في الجامعة ، ولوجري
على خلافة لا اعتبر غير خليف بكانه منها ، ولا ضاع على الامة مالا جما ينفق على
دروس الآداب ، وعلى الطلاب اعواما نفيسة يبذلونها من اعمارهم في دراستها ، ولما
كان نتيجة كل هذه الجهود في النهاية اكثر من ظهور مؤلف لا يفترق عن مئات
الكتب الموجودة بالملكيات الا في التبويب والترتيب ، ولبقينا حيث كنا من هذا

العلم النفيس الذي دخل في اطوار كثيرة لدى الامم الغربية ، واصبح بعيد الاثر في تهذيب نفوسهم ، وتلطيف شعورهم كما هي ثمرته اليا نعة في كل جيل
نعم يشق على كثير من الناس ان يشك فيما كان يعمده من العقائد المقررة سنين طويلة ، وان يُسرّي على كل ما قرأه في كتب الادب اسلوبا من النقد قد لا يُبقى فيه ولا يذر . ولكن التبعة التي يشعربها حفظة الادب وحاملة امانته تضطرم الي تمحيصه ، وتحرير مسائله وان كره ذلك الناس اجمعون

وكل الذي نأخذه على الدكتور طه حسين في هذا التمهيد ذهابه الي ان الشك الذي اعتراه في الشعر الجاهلي حادث ادبي جديد وان العلماء الاقدمين كان قصارى ما عملوه في الشعر الجاهلي انهم اختلفوا في روايته بعض الاختلاف ، وتفاوتوا في صبطه بعض التفاوت . والحقيقة انهم نظروا فيه وشكوا في نسبته الي الشعراء الذين عينهم الرواة وقرروا ان هؤلاء قد كذبوا على القدماء حتي اختلف القديم بالجديد ولم يعد من الممكن تمييز بعضه عن بعضه الا آخر

فقد ذكروا ان حماداً الرواية الذي كان عائشاً في القرن الثاني للهجرة كان يضم القصائد المطولة وينسبها للعرب . وان معاصره حماد عجرد قد حذا حذوه واستن بسنتها خلف الاحمر . وقد ذكروا عن الاخير انه تنسك في آخر حياته واراد أن يدل اهل الكوفة على ما صنعه لهم ليميزوه عن كلام العرب فأبوا عليه لاستحالة ذلك ، محتجين بان اكاذيبه كانت قد انتقلت الي الآفاق

وقال الامام الجاحظ المتوفي سنة (٢٥٥) هـ (ان خلفا هذا اورد على الناس نسب الاعراب وهو من ارق الشعر وما احراه ان يكون مصنوعا)
وقال العلامة بن سلام في كتاب الشعر والشعراء : (زاد الناس في قصيدة أبي طالب التي قالها في النبي صلى الله عليه وسلم حتي لا يُدرى ابن منهاها)
وقال الاصمعي : (اتمت في المدينة زما ا ما رأيت بها قصيدة واحدة صحيحة الا مصحفة أو مصنوعة)

وروي الجاحظ ايضا : (ان بعضهم قال لاحد الرواة انك تكذب في الحديث فقال وما عليك اذا كان الذي از يد فيه احسن منه ، فوالله ما ينفعك صدقه ولا يضرك

(كذبه)

وقال المفضل الضبي من اكبر علماء اللغة المتوفي سنة ١٨٦ : (سبط على الشعر من حماد الراوية ما أفسده فلا يصلح ابدا : فليل له وكيف ذلك انخطي في روايته ام يلحن ؟ قال ليته كان كذلك فان أهل العلم يردون من اخطأ الي الصواب ، ولكنه رجل عالم بلغات العرب واشعارها ومذاهب الشعراء ومعانيهم فلا يزال يقول الشعر يشبه به مذهب رجل ويدخله في شعره ويحمل ذلك عنه في الاتفاق فتختلط اشعار القدماء ولا يتميز الصحيح منها الا عند عالم ماقدواين ذلك ؟)

ونأخذ على الدكتور طه حسين ايضا تحامله على الطائفة التي سماهم بانصار القديم وذهابها الي انهم مطمانون الي ما قاله القدماء ، وانهم اغلقوا على انفسهم باب الاجتهاد في الادب . فان كان يقصد بهذا القول انهم لا يجرأون على ان يفعلوا فعله في نقد الشعر وتمحيصه فقد وجب علينا ان نرده الي الصواب فيه ، ولا نجد أفضل في اقتناعه من نقل ما كتبه الاديب المشهور الاستاذ مصطفى افندي صادق الرافي في كتابه (تاريخ آداب العرب) الذي نشره في سنة (١٩١١) اي قبل خمس عشرة سنة من صفحة (٣٦٦ الي ٣٨٣) فقد جاء فيه قوله :

(لما جاء الاسلام واندوم به العرب الي الفتوح اشتغلوا عن الشعر بالجهاد والغزو)
(حينما من الزمن ، فلما راجعوا روايته بعد ذلك وقد اخذ منهم السيف والحيف ،)
(وذهب كثير من الشعر وتاريخ الوقائع بذهاب رواته صنعت القبائل الاشعار ونسبتها)
(الي غير أهلها تتكثرت بها وتعتاض مما فقدته ، واخذت عنهم الرواة)

(واول القبائل التي وضعت الشعر في الاسلام قريش وكانت أقل العرب شعرا)
(وشعراء ، ووضعوا على حسان بن ثابت اشعاراً كثيرة ولما شمر الرواة في طلب)
(الشعر للشاهد وانما استفاض الوضع في العرب وتفرغ قوم منهم لذلك)

وقال الاستاذ الرافي عند ذكره شمر الشواهد : (هذا النوع الذي يدخل فيه)
(اكثر الموضوع . . . والكوفيون اكثر الناس وضعا للاشعار التي يستشهد بها)
(واستمروا على الوضع حتي بعد ان استبحرت الرواية في أواخر القرن الثالث)
(وكان من الرواة قوم تفردوا بعلم القبائل واخبارها واشعارها وهؤلاء الذين فتقوا)

(هذه الفتوق في الادب . وقد كانت علوم أولئك النفر تدور على الخبر والشعر مما)
 (لا يبنى عليه دين ولا يدخل الناس منه في حرج ، ولا يكون فيه من بعد الا)
 (افساد التاريخ العربي وأهون بذلك مادام هذا التاريخ قائما بالتأويلات)
 (والمفاخرات والمناشدات وبكل ما نسخه الاسلام أو جاء بخير منه . وليست الغاية)
 (من اكثره الا ضربا من السمر ونوعا من طواحي الحديث . وقد تزيد فيه العرب)
 (انفسهم . وهذا هو السبب في انك لا تكاد تجد للجاهلية تاريخا صحيحا ، ولا ترى)
 (فيما تصفحه الا التكاذيب والمبالغات وما يتصل بها)

(اما اهل الشعر فيضعون منه لثلاثة اغراض : للشواهد على العلوم والشواهد)
 (على الاخبار ، والاتساع في الرواية)

(وقد نشأ شعر الشواهد من الاستشهاد بالشعر على التفسير والحديث وعلى كل)
 (ما قامت به الرواية)

(فلما كثر القصص واهل الاخبار اضطروا من اجل ذلك ان يصنعوا الشعر)
 (لما يلقونه من الاساطير فوضعوا من الشعر على آدم فمن دونه من الانبياء)
 (واولادهم واقوامهم . وقد كتب محمد بن اسحق المتوفي سنة (١٥٠) في السيرة من)
 (اشعار الرجال الذين لم يقولوا شعرا قط واشعار النساء ثم جاوز ذلك الى عاد وثمود)
 (فكتب لهم اشعار كثيرة حتى صار فنيحة عند علماء السير ورواة الشعر)

(والاتساع في الرواية كان من اسباب الوضع يقصد به فحول الرواة ان يتسعوا)
 (في روايتهم فيستأثروا بما لا يحسن غيرهم من ابوابها وانا يضعون على فحول الشعراء)
 (قصائد لم يقولوها ، ويزيدون في قصائدهم التي تعرف لهم ، ويُدخلون من شعر)
 (الرجل في شعر غيره هوى وتعنتا ورأس هذا الامر حماد الراوية الكوفي المتوفي)
 (سنة ١٥٥)

(وقد وضع خلف الاحمر الراوية قصائد عدة على فحول الشعراء ذكروا منها)
 (قصيدة الشنفرى المشهورة بلامية العرب . وله قصائد اخرى نص على بعضها)
 (العلماء وبنوا انها مصنوعة . وقد وضع على شعراء عبد القيس شعرا كثيرا)
 (ومن اشهر رواة الكوفيين خالد بن كلثوم السكبي وله صنعة في الاشعار المدونة)

على القبائل وقد الف فيها كتاباً) انتهى ما اقتطفناه من كتاب الاستاذ مصطفي افندي
صادق الرافي

يرى الفاريء مما مر أن علماء اللغة قديما وحديثا قد رأوا في الشعر الجاهلي ما
رآه الدكتور طه حسين اخيراً. فإذا كان في هذه البلاد أو في غيرها رجال يعتقدون ان الشعر
الجاهلي سليم من الخلط والخبط والوضع فذلك ممن لا يعتمد بعلمه ولا يؤخذ بقوله .
وكل ما في المسئلة ان الادباء الاقدمين لم يبلغوا في تعيين أبواب الوضع المبلغ الذي
ترضاه عقولنا اليوم . وهذا هو الفراغ الذي تصدى الدكتور طه حسين لسده
في كتابه الذي ننتقده اليوم

٢

منهج البحث

قال الدكتور طه حسين تحت هذا العنوان ما ملخصه :

- (احب ان اكون واضحاً جلياً ، وان اقول للناس ما يريد ان اقول دون ان)
- (اضطرهم الى ان يتأولوا ويتمحلوا ويذهبوا مذاهب مختلفة في النقد والتفسير)
- (والكشف عن الاغراض التي ارمى اليها)
- (اريد ان اقول اني سأسلك في هذا النحو من البحث مسالك المحدثين من)
- (اصحاب العلم والفلسفة ، اريد ان اصطنع في الادب هذا المنهج الفلسفي الذي)
- (استحدثه (ديكرت) للبحث عن حقائق الاشياء في اول هذا العصر الحديث .)
- (والناس جميعا يعلمون ان القاعدة الاساسية لهذا المنهج هي ان يتجرد الباحث من)
- (كل شيء كان يعلمه من قبل ، وان يستقبل موضوع بحثه خالي الذهن مما قيل فيه)
- (خلوا تاماً . والناس جميعا يعلمون ان هذا المنهج الذي سخط عليه انصار القديم)
- (في الدين والفلسفة يوم ظهر قد كان من اخصب المناهج وأقومها واحسنها أثراً)
- (وانه قد جدد العلم والفلسفة تجديداً ، وانه قد غير مذاهب الادباء في ادبهم ،)
- (والفنانين في فنونهم ، وانه الطابع الذي يمتاز به هذا العصر الحديث)

- (فلنصطنع هذا المنهج حين نريد ان نتناول ادبنا العربي القديم وتاريخه بالبحث)
(والاستقصاء ، ولنستقبل هذا الادب وتاريخه وقد برأنا انفسنا من كل ما قيل)
(فيها من قبل) .
(نعم يجب حين نستقبل البحث عن الادب العربي وتاريخه ان ننسى قوميتنا)
(وكل مشخصاتها ، وان ننسى ديننا وكل ما يتصل به ، وان ننسى ما يضاد هذه)
(القومية وما يضاد هذا الدين . يجب ان لا نتقيد بشيء ، ولا ندعن لشيء الا)
(مناهج البحث العلمي الصحيح . ذلك انا اذا لم ننس قوميتنا وديننا وما يتصل)
(بهما فنضططر الى المحاباة وارضاء العواطف ، وسنغل عقولنا بما يلائم هذه القومية)
(وهذا الدين . وهل فعل القدماء غير هذا ، وهل افسد على القدماء شيء غير هذا ؟)
(كان القدماء مسلمين مخلصين في حب الاسلام ، فأخضعوا كل شيء لهذا)
(الاسلام وحبهم اياه ، ولم يعرضوا لمبحث علمي ولا لفصل من فصول الأدب ،)
(اولون من ألوان الفن الا من حيث انه يؤيد الاسلام ويعزه ويعلى كلمته ، فما)
(لاءم مذهبهم هذا اخذوه وما نأفروه انصرفوا عنه انصرافاً)
(فلندع لوم القدماء على ما تأثروا به في حياتهم العلمية مما أفسد عليهم العلم ،)
(ولنجتهد في ان لا تأثر كما تأثروا ، وفي ان لا تقسد العلم كما افسدوه . لنجتهد في)
(ان ندرس الادب العربي غير حافلين بتمجيد العرب او الغرض منهم ، ولا مكترئين)
(بنصر الاسلام أو النعي عليه ، ولا معنيين بالملائمة بينه وبين نتائج البحث العلمي)
(والادبي ، ولا وجلين حين ينتهي بنا هذا البحث الى ما تأباه القومية ، او تنفر منه)
(الالهواء السياسية او تكرهه العاطفة الدينية . واني غير مسرف حين اطلب منذ)
(الان الى الذين لا يستطيعون ان يبرأوا من القديم ، ويخلصوا من اغلال العواطف)
(والالهواء حين يقرأون العلم أو يكتبون فيه ، ان لا يقرأوا هذه الفصول . فلن تقيدم)
(قراءتها الا ان يكونوا أحراراً حقاً)

رأينا في هذا الكلام

انا لا اتمالك نفسي من ان أقول صراحة ان هذا الكلام ثمين ، ولا اغالى ان قلت

انه أعرق في الاسلام من كل كلام قرأته قبل هذا، ولا يعيبه الا شيء واحد، وهو انه مفرغ في قالب الخروج على الجماعة على حين انه مذهب القرآن الذي هو دستور هذه الجماعة. فلو كان قال انه سيعالج البحث في الادب العربي وتاريخه ناسيا قوميته وكل مشخصاتها، ودينه وكل ما يتصل به، وغير متقيد بشيء، ولا مدعن لشيء، المناهج البحث الصحيح، جاريا بذلك على مذهب القرآن (لاديكارت) لكانت كلماته هذه عدت أجمل تفسير لآيات الكتاب التي وردت خاصة بمنهج البحث عن الحقائق

نعم، اصبح يعز على المعاصرين ان يجعلوا للدين أو لما يتصل به سلطانا على مناهجهم العلمية، وأضحى من لا يكون على اقصى حد من حدود الحرية الفكرية غير جدير بالثمة لتقيده بآراء يعدها مقدسة ويحاول ان يخضع كل حقيقة لسلطانها، ونحن نعذرهم في هذا الشعور، لانهم لا يعرفون الاسلام ولا يدرون انه من منهاج البحث عن الحقائق ليس وراءه مرمى. فان كان المانع الاتفة من الاتباع، فالاتباع حاصل لديكارت، فهل من مرجح للاتفة من إتباع محمد وعدم الأتفة من إتباع ديكارت؟ وهل فرق في التبعية بين أن يقال هذا قرآني وهذا ديكارتني؟

اما انا فلا اجد محلا للاتفة من اتباع المذاهب الاصلاحية على الاطلاق، وان كنت اجد فرقا بين الاعلان بتبعتي لمذهب ديكارت وتبعتي لمذهب القرآن. وهذا الفرق هو ان ديكارت رجل فرنسي ليس بيني وبينه اية علاقة من جنس أو لغة أو صلة من اى نوع كانت. واما القرآن فهو كتاب الامة التي انا منها، وبينى وبينه كل انواع الصلات المعنوية التي تربط الانسان بشيء من الاشياء، وقد سبق ديكارت بعشرة قرون، واسلوبه ادق من اسلوبه، واجمع لوجوه الاحتياط منه

اما وقد تأدينا الى هذا القول فلا مناص لنا من تبين ماهية المذهب القرآني في البحث عن الحقائق انري هل ينفي بحاجة الدكتور طه حسين ويزيد ام لا:

(١) — يريد الدكتور طه حسين ان لا يتقيد بمذهب من سبقه من المتكلمين وان لا يعتد بآرائهم فان لهم مارأوا وله ما يرى. والقرآن يقره على ذلك بل يطالبه به فانه بعد أن ذكر ابراهيم واسماعيل واسحق قال: « تلك امة قد خلت لها ما كسبت ولسكن

ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون» وقال «كل نفس بما كسبت رهينة» وقال «كل امرئ بما كسب رهين»

(٢) — يرى الدكتور طه حسين إن صواباً أو خطأً ان المتقدمين قد شابهوا أوهامهم واهواءهم في تقرير ما قرروه عن العلم فلا يريد مجاراتهم فيه . والقرآن يؤيده في مذهبه هذا فهو ينعي على المتأثرين بالاهواء ، والاخذين بالظنون فقال: «إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون» أي يكذبون . وقال «وما يتبع أكثرهم إلا ظناً وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً»

(٣) — يطلب الدكتور طه حسين ان يتوخى في بحثه عن الحقيقة سيان قوميته وكل مشخصاتها . وقد محق القرآن القوميات وم مشخصاتها فقال : «يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم» وشرح رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية بقوله «انقد اذهب الله عنكم رجس الجاهلية وتفاخرها بالآباء كلكم من آدم وادم من تراب . لافضل لعربي على اعجمي ولا لأعجمي على عربي، ولا لأبيض على اسود الا بالتقوى او بعمل صالح»

ويزيد القرآن على هذا، التوصية بعدم الخوض فيما لا نعلم ويقرر بان الانسان مسؤول عن اعمال حواسه وقلبه في معالجة الباطل فقال : «ولا تقف على ما ليس لك به علم ، ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً» وقد تجاوز القرآن حدود كل مذهب فلسفي فعد الانسان مسؤولاً حتى عن الخواطر التي تجيش في قلبه ، والهواجس التي تهجس في باله تنزيهاً له عن الاباطيل والاضاليل حتى ما كان منها مزويها في احشاء صدره فقال «ان تبدوا ما في انفسكم أو تخفوه بحاسبكم به الله»

فاذا كان لديكارت منهج في البحث عن الحقائق عرف بالمنهج الديكارتي *La méthode Cartésienne* فان للقرآن منهجاً نسميه بالمنهج القرآني *La méthode Coranique* وقد قابلناه بمنهج ديكارت فبزه وزاد عليه . فيكون لا محل لطلب الدكتور أن ينسى المسلم دينه في أثناء البحث عن الحقيقة ، فان ديننا يخوفه كل هذه الحرية في البحث ، ويخوفه كل هذا التخويف من الوقوع في

الباطل ، ويهديه لهذا المنهج من التثبيت جدير أن يجعله الانسان دستوراً في كل ما يتصدى له من انواع العلوم

انما يخشى من تأثير الدين على مثل البحث الذي تصدى له الاستاذ طه حسين وهو الادب اذا كان من الاديان التي تعاكس حرية البحث في اصول الجماعات وفي درجاتها من الارتقاء ، وفي مكائباتها بين الامة ، وفي تأثيرها العالمي ، وفي مصادر لغاتها ، وفي قيمة آدابها . ولكن اذا كان كالدين الاسلامي ينص على ان الامة كلها سواء ابوم ، آدم وادم من تراب ، وان لا فضل لعربي على اعجمي ولا لاعجمي على عربي ولا لبيض على اسود الا بالتقوى أو بعمل صالح كما رأيت ، وعلى ان الباحث يجب ان يتبع الحق حيث كان جرياً على قوله تعالى : « وليس بعد الحق الا الضلال » ، وعلى انه يجب ان ينظر في جميع مصادر المعرفة ليتصيد الحق من جميع مظانه لقوله تعالى : (فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه اولئك الذين هداهم الله واولئك هم اولو الالباب) ، وعلى وجوب الحكم بالعدل ولو الى النفس والاقربين لقوله : (كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على انفسكم أو الوالدين والاقربين) ، وعلى ان الامة كلها سواء في تحمل تبعات اعمالها فلا محاباة ولا استثناء لقوله تعالى : (ليس بامانكم ولا امانى اهل الكتاب من يعمل سوءاً يجز به) ، وعلى ان الانسان يجب عليه ان يخضع لسلطان الدليل لا للموروثات ولا للأوهام : فقال تعالى : « قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين » ، قلنا ولكن اذا كان دين كالدين الاسلامي ينص على هذا كله فكيف يجب نسيانه في اثناء البحث وهو اكمل دستور عرف عن الباحثين في الحقائق الى اليوم ؟ وبأى مرجح نجعل الاسلوب الديكارتي نصب اعيننا في اثناء بحث ما نريد بحثه ، ونفخر بالانتماء اليه ، ولا نجعل الاسلوب القرآني نصب اعيننا في البحث ونباهي بالجري عليه ؟

يقول الدكتور طه حسين (انا اذا لم ندس قوميتنا وديننا وما يتصل بهما فسنضطر الى المحاباة وارضاء العواطف ، وسنقل عقولنا بما يلائم هذه القومية وهذا الدين) ونحن نجيبه على هذا بقولنا كيف نضطر الى المحاباة وارضاء العواطف وهذا الدين نفسه يزجرنا عن المحاباة وارضاء العواطف فيقول : « كونوا قوامين بالقسط شهداء

لله ولو على انفسكم». بل وينص على ان تعدل حتى مع اعدائنا الذين يكرهوننا فيقول :
« ولا يجرمنكم شنآن قوم على ان لا تعدلوا ، اعدلوا هو اقرب للتقوى » اى ولا
تحملنكم عداوة قوم على ان لا تعدلوا فيهم وفي الحكم عليهم بل اعدلوا
وكيف نزل عقولنا بما يلائم هذه القومية وهذا الدين وديننا نفسه لا يعترف بقومية
بل يعد الناس كلهم سواء ويحضنا على اعتبارهم كذلك ؟

ويقول الدكتور طه حسين : (وهل فعل القدماء غير هذا ؟ وهل افسد على القدماء
شيء غير هذا ؟)

نقول هب انهم ما فعلوا غير هذا فما جريرة الدين في ذلك وهو ينهى عنه ويحث
على تقيضه ؟ وهل من العدل ان نأخذ الدين بجريرة من لم يجر على اصوله ؟
هل لي ، وانا أرى في كتاب الدكتور طه حسين اخطاء كثيرة ، ان ارفض الجرى
على مذهب ديكرت وعلى تناسيه وتجاعله لان الدكتور اعلن انه من اخص اشياعه فلم يحسن
الجرى عليه ، باعتماده على حكايات كتب المحاضرات التي لا يقوم على ثبوتها شبه دليل ،
بل التي يقوم الف دليل على مناقضتها للواقع ؟

ويقول الدكتور طه حسين : (كان القدماء مسلمين مخلصين في حب الاسلام
فاخضعوا كل شيء لهذا الاسلام وحبهم اياه ، ولم يعرضوا لمبحث علمي ، ولا لفصل
من فصول الادب ، ولون من ألوان الفن الا من حيث انه يؤيد الاسلام ويعزه ويعلى
كلمته ، فما لاءم مذهبهم هذا أخذوه وما نافرهم انصرفوا عنه انصرافا)

نقول في الجواب على هذا الكلام : ان من فعل هذا فعليه تبعته ، فان ديننا ينص
على وجوب اتباع الاصول التي ذكرتها في كل موطن من مواطن الحياة ، فلا يكون في
حاجة لمن يعزه ويعلى كلمته بما ينافي قواعده ويضاد وصاياه ، فانه هو نفسه يميز نفسه
ويعلى كلمته بسمو تلك القواعد والوصايا . فاذا كان القدماء قد اخذوا مالا من مذهبهم
ذلك وانصرفوا عما نافرهم فتلك فعلمتهم ولا ذنب للدين فيها ، ولا تبعة علينا نحن مما
فعلوا : « تلك امة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسالون عما كانوا يعملون »
والدين الاسلامي لم يضع للمباحث حدا « قل انظروا ماذا في السموات والارض »
ولم يبين ما يجب اخذه وما يجب تركه من ثمرات الجهود الانسانية بل ترك لعقول حرة

تجول في كل مجال ، وتأخذ من المعارف والصنائع ما يؤهلها اليه استعدادها في دائرة المصلحة الشخصية والعمومية . فمن جرى على غير هذه السنة فعليه وزر ما فعل ، ولا عاب على الدين من جراء عمله

ويقول الدكتور طه حسين : (لنجتهد في ان ندرس الادب العربي غير حافلين بتمجيد العرب او الفص منهم ، ولا مكترئين بنصر الاسلام او النعي عليه ، ولا معنيين بالملاءمة بينه وبين نتائج البحث العلمي والادبي ، ولا وجاهين حين ينتهي بنا هذا البحث الى ما تأباه القومية ، او تنفر منه الاهواء السياسية ، او تكرهه العاطفة الدينية)
نقول ان هذا الكلام لا غبار عليه وهو مذهب كل طالب للحقيقة الا قوله ولا مكترئين لنصر الاسلام او النعي عليه ، فان مثل هذا القول لا يصح اطلاقه على دين لا مرمى له الا ايصال الانسان الى الحقيقة ، وهو لذلك ينهج له من مناهج بز بها الفلاسفة وفيهم ديكارت الذي اعلن مؤلفنا غير مرة انه من اتباعه ، وقد اثبتنا ذلك بنصوص الآيات مما لا سبيل الى انكاره

الخلاصة اننا نعد منهج الدكتور طه حسين في البحث وهو المنهج الذي نلخصناه في هذا الفصل من اكمل المناهج بل هو المنهج الوحيد الذي ينطبق على اصول الفلسفة العصرية المنتجة الا ما ارتكبه من غمط حق الاسلام في هذا الموطن . فانه ان كان يعرف مكان الاسلام من هذا المنهج كان الاولى به ان يقول ان المتقدمين ارتكبوا ما ارتكبوه من افساد الادب والعلم بعدم جريهم على المنهج الذي يحضهم عليه القرآن وانه سيجرى على ذلك المنهج الذي يوافق ما جاء بعده بالف سنة كمنهج روجر باكون وديكارت وغيرهما . وان كان لا يعرف الاسلام كان يجب عليه ان يلم به قبل ان ينخط حرقا في الادب العربي فان علاقته باآداب هذه الامة وعقليتها وتأثيره فيها مما لا يمكن انكاره او عدم الاعتداد به على اية حال

مرآة الحياة الجاهلية يجب ان يلتبس في القرآن لافى الشعر الجاهلى

قال الدكتور طه حسين تحت هذا العنوان ماملخصه :

- (على انى احب ان يطمئن الذين يكلفون بالادب العربى القديم ويجدون شيئاً)
(من اللذة في ان يعتقدوا ان هناك شعراً جاهلياً يمثل حياة جاهلية انقضى عصرها)
(بظهور الاسلام . فلن يمحو هذا الكتاب ما يعتقدون ويجدون في درسها ما يبتغون)
(من لذة علمية وفنية ، بل انا اذهب الى ابعده من هذا ، فأزعم انى سأستكشف لهم)
(طريقاً جديدة واضحة قصيرة سهلة يصلون منها الى هذه الحياة الجاهلية ، او بعبارة)
(اصح يصلون منها الى حياة جاهلية لم يعرفوها ، الى حياة جاهلية قيمة مشرقة متمعة)
(مخالفة كل المخالفة لهذه الحياة التي يجدونها في المطولات وغيرها مما ينسب الى)
(الشعراء الجاهليين . ولكنى لا اسلك اليها طريق امرئ القيس والنابغة والاعشى)
(وزهير لاني لا اتق بما ينسب اليهم ، وانما اسلك لها طريقاً اخرى وادرسها في نص)
(لاسبيل الى الشك في صحته ، ادرسها في القرآن . فالقرآن اصدق مرآة للعصر الجاهلى)
(ادرسها في القرآن ، وادرسها في شعر الشعراء الا تخربن الذين جاؤا بعده ولم تكن)
(نفوسهم قد طابت عن الحياة والآراء التي ألهمها آباؤهم قبل ظهور الاسلام . بل)
(ادرسها في الشعر الاموى نفسه . فحياة العرب الجاهليين ظاهرة في شعر الفرزدق)
(وجرير وذى الرمة والاخلطل والراعي اكثر من ظهورها في هذا الشعر الذى)
(ينسب الى طرفة وعنترة والشماخ وبشر بن خازم)
(قلت : ان القرآن اصدق مرآة للحياة الجاهلية . وهذه القضية غريبة ولكنها)
(بدئية حين تفكر فيها قليلاً . فليس من اليسير ان نفهم ان الناس قد اعجبوا)
(بالقرآن الا ان تكون بينهم وبينه صلة هي هذه الصلة التي توجد بين الاثر الفنى)
(البديع وبين الذين يعجبون به حين يسمعونه أو ينظرون اليه . وليس من اليسير)

(ان تفهم ان العرب قد قاوموا القرآن وجادلوا النبي فيه الا ان يكونوا قد فهموه)
 (ووقفوا على اسراره ودقائقه . وليس من الممكن ان نصدق ان القرآن كان جديداً)
 (كله على العرب . فلو كان كذلك لما فهموه ولا آمن به بعضهم ، ولما جادل فيه بعضهم)
 (الا آخر . انما كان القرآن جديداً في اسلوبه ، جديداً فيما يدعو اليه ، جديداً فيما)
 (شرع للناس من دين وقانون . وفي القرآن رد على الوثنيين وعلى اليهود وعلى النصارى)
 (والصابئة والمجوس ، وهو كان يقصد بالرد على هذه الملل فرقا من العرب كانت)
 (تمثل هذه الملل في البلاد العربية نفسها . هاجم الوثنية فعارضه الوثنيون ، واليهود)
 (فعارضه اليهود ، والنصارى فعارضه النصارى . ولم تكن هذه المارضة هينة ولا)
 (لينة ، وانما كانت تقدر بمقدار ما كان لاهلها من قوة ومنعة . فاما وثنية قريش)
 (فقد اخرجت النبي من مكة ونصبت له الحرب . واما يهودية اليهود فقد ألّبت)
 (عليه وجاهدته جهادا عقليا ثم انتهت الي الحرب . واما نصرانية النصارى فلم)
 (تكن معارضتها قوية لقلّة اهلها في البيئته التي ظهر فيها النبي ، والقرآن في كل ذلك)
 (انما كان يتحدث عن العرب وعن نحل وديانات أهلها العرب)

(فاما هذا الشعر الجاهلي الذي يضاف الى الجاهلين فيظهر لنا حياة غامضة)
 (جافة بريئة او كالبريئة من الشعور الديني القوي والعاطفة الدينية المتسلطة على)
 (النفس والمسيطرة على الحياة العملية . أو ليس عجيبا ان يعجز الشعر الجاهلي كله)
 (عن تصوير الحياة الدينية للجاهلين !)

(اما القرآن فيمثل لنا شيئا آخر يمثل لنا حياة دينية قوية تدعو اهلها للجدال)
 (عنها . فاذا رأوا ان الجدال قد اصبح قليل الغناء لجأوا الى الكيد ثم الى الاضطهاد)
 (ثم الى الحرب)

(افتظن ان قريشا كانت تديق ابناءها الوان العذاب ثم تنصب لهم الحرب)
 (وتضحي في سبيلها بقوتها وحياتها لو لم يكن لها من الدين الا ما يمثله هذا الشعر)
 (الذي يضاف الى الجاهلين ؟ كلا)

(فالقرآن اذن اصدق تمثيلا للحياة الدينية عند العرب من هذا الشعر الذي)
 (يسمونه بالجاهلي . ولكن القرآن لا يمثل الحياة الدينية وحدها وانما يمثل شيئا)

- (آخر لا نجد في هذا الشعر ، يمثل حياة عقلية قوية ، وقدرة على الجدال والخصام)
 (وقد وصفهم بها القرآن . وفيهم كانوا يجادلون ؟ في الدين وما يتصل به من المسائل)
 (كالبحث والمخلق والاتصال بالله وفي المعجزة وما الى ذلك)
 (افطن ان قوما يجادلون في هذه الاشياء جدالا يصفه القرآن بالقوة يكونون)
 (من الجهل والغباء والغلظة بحيث يمثلهم لنا هذا الشعر الذي يضاف الي)
 (الجماهيلين ؟ كلا ، لم يكونوا جهالا وانما كانوا اصحاب علم وذكاء وعواطف رقيقة)
 (وعيش فيه لين ونعمة)
 (والقرآن يعطينا عن العرب صورة اخرى فهو يحدثنا بان العرب كانوا على)
 (اتصال قوى بين حوهم من الامم قسمهم احزابا وفرقهم شيعا . أليس القرآن)
 (يحدثنا عن الروم وما كان بينهم وبين الفرس من حرب انقسمت فيه العرب الي)
 (حزبين مختلفين حزب يشايح أولئك وحزب يتاصر هؤلاء ؟ فانت ترى ان)
 (القرآن يصف عنايتهم بسياسة الفرس والروم وهو يصف اتصالهم الاقتصادي)
 (بغيرهم من الامم في السورة المعروفة (لا يلاف قريش ايلافهم رحلة الشتاء والصيف)
 (وسيرة النبي تحدثنا ان العرب تجاوزوا بوغاز باب المنذب الي بلاد الحبشة ألم)
 (يهاجر المهاجرون الاولون الي هذه البلاد ؟ وهذه السيرة نفسها تحدثنا بانهم تجاوزوا)
 (الحيرة الي بلاد الفرس . وبنهم تجاوزوا الشام وفلسطين الي مصر . فلم يكونوا اذن)
 (معزولين ولا بنجوة من تاثير الفرس والروم والحبش والهند وغيرهم من الامم المجاورة)
 (لهم . ولم يكونوا على غير دين ، ولم يكونوا جهالا ولا غلاظا ، ولم يكونوا في عزلة سياسية)
 (أو اقتصادية . كذلك يمثلهم القرآن)
 (واذا كانوا اصحاب علم ودين ، واصحاب ثروة وقوة وبأس ، واصحاب سياسة)
 (متصلة بالسياسة العامة ، متأثرة بها مؤثرة فيها ، فما خلقهم ان يكونوا امة متحضرة)
 (راقية لامة جاهلة همجية . وكيف يستطيع رجل عاقل ان يصدق ان القرآن قد)
 (ظهر في امة جاهلة همجية !)

رأينا في هذا الكلام

تمهيد

قبل أن نناقش الدكتور طه حسين فيما ادلي به من الآراء في الفصل المتقدم رأينا ان نأتي على موجز من تاريخ الامة العربية فنقول:

(تاريخ العرب في الجاهلية) لا يزال في تاريخ العرب في الجاهلية غموض كبير على كثرة ما تكلم فيه المتكلمون وكل ما كتب في الكتب العربية من تاريخ العرب يراد به الوجهة الادبية لا التاريخية غالباً فابن هون الحقائق المؤيدة بالاساطير والنقوش التي لا مجال للشك فيها ؟

يوجد للتاريخ العربي مصادر غير عربية اقدمها التوراة فان في سفر التكوين شيء من أخبار العرب وفي أسفار اخرى ذكر بعض قبائلهم وملوكهم وقد ألم المؤرخ اليوناني هيرودوتس المتسوفي في اوائل القرن الخامس قبل الميلاد بشيء من ذكر العرب . وألم غيره من المؤرخين بذكر أشياء عن العرب ليس فيها كبير فائدة . واما الفضل في الافاضة في تاريخ العرب للمؤرخين امستراوز و بلينيوس و برييلوس و بطليموس فانهم ألموا بجميع ما قيل عن العرب وفصلوه تفصيلاً

(الآثار العربية والتاريخ) للآثار فائدة كبيرة جداً في كشف تواريخ الامم فقد كان تاريخ المصريين لا يزال غامضاً لولا ما دونوه من اخبارهم على آثارهم ومما بدم كذلك للعرب آثار باليمن والحجاز وغيرها عليها نقوش حميرية بالقلم المسند أو نقوش آرامية بالقلم النبطي وغيره . فلما اهتدي بحاثو أوربا الي اماكنها قصدوها لحل رموزها وكشف النقاب عن تاريخ العرب

أول من تصدى لهذه المباحث العالم الالماني ميخائيلس المتوفي سنة ١٨٩١ ثم عثر الضابط الانجليزي ولسند سنة ١٨٣٨ على نقوش حميرية باليمن اهتم بها العلماء غاية الاهتمام ولم يستطيعوا حل رموزها الا بعد سنين

ووجد الضابط الانجليزي كروتندن في صنعاء نقوشا ظن انها من خراب

مدينة مارب

اول من تصدى من الفرنسيين للبحث عن هذه النقوش كان المسيو (ارنو) فانه
اخترق اليمن سنة ١٨٤٣ وطادومعه ٥٦ نقشا نقلها من صنعاء واخرية وحرّم بلقبس
ثم جاء المستعرب (ارسياندر) فحل رموزالا آثار التي وجدها ارنو وذلك سنة ١٨٤٥
ثم أن وزارة المعارف في باريس أرسلت المستعرب يوسف هاليفي سنة ١٨٦٩ الي
اليمن فسار حتى بلغ مارب ورجع ومعه ٦٨٠ نقشا
ثم جاء ادورد غلازر الالماني فساح في اليمن مرارا ونقل منها الف نقش بينها نقوش
غاية في القيمة التاريخية

ثم حاول الوصول الى مارب رجال آخرون فهلكوا في الطريق

وعثر الباحثون ايضا في شمال بلاد العرب على آثار الانباط فوجدوا منها آثاراً
كثيرة في مدينة بطرا ومدينة الحجر . واكتشفوا في حوران والعلما نقوشا بالخط
المسند الحميري فكشفت جميع هذه النقوش النقاب عن جزء من التاريخ العربي القديم
وما بقي منه اكثر

ثم ان البعثين عثروا في آثار بابل وآشور ومصر وفتيحية على شيء من تاريخ
العرب . فوجدوا في بابل نقوشا بالخط السامري وقفوا منها على تاريخ العمالقة من
الرب البائدة . واستدلوا من النقوش التي وجدوها في آشور وبابل على قيام دولة
حمورابي العربية استولت على بابل عدة قرون قبل الميلاد باكثر من ألفي سنة
(من هم العرب) العرب من الساميين والساميون هم الشعوب الذين يتكلمون
بالعربية والبرانية والسريانية والحبشية . ومنها الشعوب التي كانت تتكلم باللغة
الفتيحية والآشورية والآرامية

ومعنى ساميين انهم منسوبون الي سام بن نوح عليه السلام

والناقد البصير يحكم لاول وهالة ان هذه اللغات مشتقة كلها من اصل واحد لتساها

لهذا وتركيبا

وقد اصطلح مؤرخو العرب ان يقسموا تاريخهم قبل الاسلام الي قسمين :

العرب البائدة والعرب الباقية. فالبائدة عندهم هي التي بادت قبل الاسلام. والباقية
قسمان: العرب القحطانية باليمن، والعرب العدنانية بالحجاز وما يليها
(العرب البائدة) هي قبائل عاد وثمود والعمالقة وطسم وجديس واميم وجرم
وحضر موت ومن يتصل بهم. ويقال لهم العرب العاربة

وقد كان لهذه القبائل ملوك ودول وقد امتد ملكهم الى الشام ومصر
وروي المؤرخون ان هذه القبائل كانت تسكن اولاً في بابل من آسيا للصغرى ثم
هاجروا الى جزيرة العرب. وقالوا ان بنى عاد والعمالقة ملكوا العراق
ثم ان مؤرخي العرب يقسمون القبائل البائدة الى قسمين العماليق هم من نسل
لاوذ بن سام وسائر القبائل الاخرى من ارم بن سام

فالعمالقة في نظر مؤرخي العرب من نسل لاوذ بن سام والعرب البائدة من نسل
ارم اى اراميين
والعمالقة هم اهل شمال الحجاز مما يلي جزيرة سيناء فتعدوا مصر مدة الفراعنة وأسسوا
فيها اسرة ملكية

قلنا ان العرب ملكوا العراق وأسسوا بها دولة وتقول ان هذه الدولة سماها المؤرخون
المحدثون دولة حمورابي وهو اسم اكبر ملوكها ومؤسس أقدم شريعة في العالم. وزعموا
انه كان من اهل القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد. أثار على الدولة البابلية
الاولى قاتيس قومه تقاليد البابليين ومدنيتهم واستخدموا لغتهم ثم فنى القهرون في
القاهرين وصارت الدولة البابلية عربية بحت

اما دولة العمالقة في مصر فتبدي من سنة ٢٢١٣ الى ١٧٠٣ قبل الميلاد جاؤها
من طريق برزخ السويس أو البحر الاحمر فاقاموا بها وكثر عددهم فيها ثم لما سئعت
لهم الفرصة وثبوا على ملوكها وملكوا البلاد دونهم. وكان اول ملوكهم سلاطيس. حكم بعده
بنوه الى سنة ١٧٠٣ فتمكن المصريون من انتزاع الملك من ايديهم وطردوهم ففرقوا في
جزيرة العرب قبائل وانحازوا وأنشأوا دولاً في اليمن والحجاز وسائر جزيرة العرب
اما عاد فهي من القبائل الارامية ولذلك سميت ايضاً عاد ارم. والعرب يضربون
المثل بهم في القدم

اما نمود فكان مقاما في الحجر المعروفة بمداين صالح في وادي القرى بطريق
الحاج الشامي وكان اليهود يسكنونها قبل الاسلام

اما طسم وجديس فقد قال عنهما مؤرخو العرب انهما من ارم مثل سائر العرب
البائدة وذكروا انهما سكنتا اليمامة في شرق نجد وقاعدتها القرية . وكانت طسم صاحبة
السيادة الي أن تولاهما رجل ظلوم فانقت جديس من الخضوع له فقتلوه هو وخاصة
قومه ، فهرب رجل الي تبع اليمن حسان بن اسعد فشكا اليه ماأنته طسم واستنجده
فارسل الي طسم وجديس جيشا فانهم ما

(دولة الانباط) ذكر العرب دولة الانباط في كتبهم وارادوا بهم اهل العراق وقد
تحقق المنقبون في الآثار والمتبعون لتواريخ اليونان والرومان وما ذكر في التوراة ان
دولة الانباط كانت عربية قامت بمشارف الشام في الجنوب الشرقي من فلسطين ممتدة
الي رأس خليج العقبة . يحدّها من الجنوب بادية الحجاز ومن الشمال فلسطين ومن
الشرق بادية الشام وكان اليونان يسمون هذه المملكة ببلاد العرب الحجرية وكانت
عاصمتها بطرا (الحجر)

كان اقدم سكان هذه الجهة الحوريين وهم سكان الكهوف القدماء وكانوا قبائل
على كل منها رئيس . غزاهم داود ملك اليهود وكانوا يسمونهم الادوميين وبقوا تحت
سيادة اليهود الي أن ضعف امرهم فاستقلوا وكبر سلطانهم في عهد بنحصر اذ ساعدوه
في حروبه لليهود . ثم دهمهم الانباط من الشرق فملكوا مملكة ادوم قبل القرن الرابع
للميلاد وبقيت الي اوائل القرن الثاني بعده حتي دخلت في حوزة الرومان سنة ١٠٦
وهم عرب على الأرجح

أما مدينة بطرا عاصمتهم فكانت قائمة في مستوى من الارض تحبب به الصخور
عند ملتقى طرق القوافل بين تدمر وغزة وخليج فارس والبحر الاحمر واليمن وكان
العرب يسمونها الرقيم

كان للنبطيين ملوك ووزراء ونظام سياسي واقتصادي وكان الاسم الغالب علي
ملوكهم الحارث أو عبادة أو مالك . فكان الحارث الاول سنة ١٦٩ قبل الميلاد وهو
اول ملوكهم

اما مدينة تدمر فهي الواقعة في طرف البادية التي تفصل الشام عن العراق وتبعد نحو ١٥٠ ميلا عن دمشق نحو الشمال الشرقي تحيط بها جبال من اشهر ملوكها (زينوبيا) وهي امرأة اذينة وكانت وصية على ابنها القاصر فلحقت مصر والشام والعراق وما بين النهرين وآسيا الصغرى الى انقرة فقاتلها القيصر الروماني اورليان وهزمها

كانت زينوبيا من أعجب النساء شجاعة ودهاء وكانت تتركب الخيل وتجالس قوادها وقد رجح بعضهم ان زينوبيا هي التي يسميها العرب الزباء ملكة الجزيرة بعد أبيها عمرو بن الظرب بن حسان العمليقي ويذكرون انها احتالت على جذية الابرش ملك الحيرة الذي قتل اباها حتى قتله

(دول اليمن) اليمن هو الجزء الجنوبي الشرقي من جزيرة العرب وكان ينقسم الى ٨٤ مغلخا والمخلاف تحته مدن ومخاقد وقرى

اما تاريخ اليمن فمن أشد التواريخ سقما واضطرابا

اول من ملك اليمن يعرب بن قحطان فانه قهر قوم عاد باليمن والمالقة بالحجاز وولي اخوته على ما كان بايديهم فولى أخاه جرهما على الحجاز ، وطاد بن قحطان على الشعر، وحضر موت بن قحطان على جبال الشعر، وعمان بن قحطان على عمان ثم تولى بعده ابنه يشجب بن يعرب ثم ابنه عبد شمس وهو سبأ الذي بنى سد مأرب المشهور

وقد اعقب سبأ هذا عدة اولاد اشهرهم حمير وكهلان ، ولما مات سبأ خلفه ابنه حمير وهو مؤسس الدولة الحميرية وهي طبقتان الملوك التابعة وملوك حمير . للمؤرخين اختلافات كبيرة في عددهم وعصورهم وتتابعهم ولكنهم اتفقوا بان آخر ملوك حمير واول التابعة هو الحارث الرائش

اما التابعة فاولهم الحارث الرائش المذكور وآخرهم ذو جدن حكم بعد ذي نواس الذي غلبه الاحباش وأخذوا اليمن منه وقد بلغ عدد التابعة ٢٦ تبعا

ثم فتح الاحباش اليمن في آخر عهد التابعة وكان عليها التابع ذو نواس فهرب وهلك في هروبه فخلفه ذو جدن فقهره الاحباش أيضا واقاموا باليمن تلك الايام

التاريخية الدالة على قيام ثلاث دول في اليمن وهي الدولة المعينية والدولة السبائية والدولة الحميرية ولا بد لنا من كلمة على كل منها

(الدولة المعينية) لم يتنبه علماء التاريخ الى هذه الدولة الا حديثا ولم يكن لها ذكر في تواريخ العرب انفسهم . وما نبههم اليها الا ورود ذكرها في كلام المؤرخ اليوناني استرابون وقد ذكرهم غيره من المؤرخين القدماء كبلينيوس وذيونيسيوس وبطليموس فكان العلماء يظنون ان المعينيين هم المناييون نسبة الى منى بقرب مكة ولكن المستعرب هاليفي لما ارتاد بلاد الحوف في شرق صنعاء اكتشف انقاض معين وقرأ اسمها عليها مكتوبا بالقلم المسند ووجد بجانبها براقش ونقل معه ثلاثمائة وثلاثة نقوش منها ٧٨ وجدت بمعين و ١٥٤ وجدت ببراقش و ٧٠ وجدت بالسوداء فقرأ المستعرب المذكور اسماء الكثيرين من ملوك الدولة المعينية ووقف على كثير من نظامها . وقد بلغ عدد من عثر على اسمائهم من ملوك معين ٢٦ يشترك كل عدد منهم في اسم و يتميزون بالالقباب فمنهم (اب يدع) يثبع اى المنقذ و (أب يدع) ريام اى السامى

وقد ثبت ان سلطان هذه الدولة امتد الى شواطئ البحر الابيض المتوسط وشواطئ خليج العجم وبحر العرب اى انها استولت على جميع شبه جزيرة العرب وكانت دولة تجارة وسلام لا فتح ولا حرب

والظاهر ان اصل هذه الدولة قبيلة من عرب العراق الذين اسسوا دولة حمورابي في بابل فلما بادت دولتهم هنالك نزحوا الى اليمن وأسسوا فيها الدولة المعينية (الدولة السبائية) دولة سبأ قحطانية ويسمون بالعرب المتعربة ولكن المؤرخين من العرب أغفلوا ذكر اصل هذه الدولة والذي عرف الآن ان هذه الدولة تأسست في القرن الثامن قبل الميلاد بعد الدولة المعينية وقد بلغ عدد من عرفت اسمائهم من ملوك هذه الدولة اكثر من ثلاثين ملكا استدلوا عليهم من النقوش الاثرية وقد كانت دولة سلام وتجارة وقد دفعت اجزية للاشوريين ويظهر من النقوش ان هذه الدولة هزمت على اربعة ادوار تتميز بالقباب ملوكها فكان ملكهم في الدور الاول يلقب بـ (مكرب سبأ) وكان في الدور الثاني يلقب (بملك سبأ) وفي الدور الثالث

(بمكرب سبا وريدان) وفي الدور الرابع (بمكرب سبا وريدان وحضر موت وغيرها)

يرجع ان هذه الدولة وجدت سنة ٨٥٠ و زالت سنة ١١٥ قبل الميلاد

(دولة حمير) الحميريون فرع من السبأيين وحمير عند العرب هو ابن سبا ويظهر أن

الحميريين كانوا يقيمون في ريدان قبل توليتهم بمدة قرون فلما سنحت لهم الفرصة

اخضعوا اخوانهم السبأيين ثم اشركوهم معهم فصار ملكهم يدعي (ملك سبا وذوريدان)

كان آخر ملوك حمير ذانواس سنة ٥٢٥ ميلادية فكان مدة بقاء الدولة السبأية

٦٤٠ سنة

(فتح الاحباش لليمن) العلاقة بين اليمن والحبشة كانت موجودة من القدم

لقرب البلدين وقد طمع بعض ملوك الحبشة في الاستيلاء على اليمن فروى ان

احدهم حاول امتلاكها في اوائل القرن الثاني للميلاد وان واحداً آخر ملك بعض

مدنها في اواخر القرن الثالث فطرده الحميريون. ثم عاد الاحباش في منتصف القرن

الرابع فاكثسحوا اليمن كلها فحدثت بينهم وبين العرب وقائم كثيرة ولا سيما بين ملك

الحبشة العلي اسكندی وبين الهدهاد ملك حمير ثم بين العلي عميدة وبين الهدهاد

وبلقيس. ثم تم للاحباش فتح اليمن بمساعدة الرومان ومكثوا بها الى سنة ٣٧٤

ميلادية ثم استردها الحميريون الى سنة ٥٢٥ حيث اعاد الاحباش عليها الكرة وملكوها

ثانية فحدث في هذه المدة ما حدث من ابرهة ابن الاثمم الذي تصدى لهدم الكعبة

ثم مل الحميريون سلطة الاحباش فذهب احد امرائهم واسمه سيف بن ذى يزن

الى الفرس واستنجد بهم فانجدوه بجيش قهر به الاحباش فووقت اليمن تحت سيادة

الفرس الى أن فتحها المسلمون في عصر النبي صلى الله عليه وسلم

(مدينة العرب في اليمن) تبين القارىء مما تقدم ان اهل اليمن لم يقلوا عن اهل

مصر و فنيقية مدينة في العصور القديمة اذ كان منهم الملوك الفاتحون والتجار المنتقلون

وكان لديهم مدن عامرة وآثار جميلة ويظهر انهم اقتبسوا ذلك من البابليين أولاً على

عهد دولة حمورابي التي اُغارت عليهم قبل نحو أربعة آلاف عام وقد عثر الباحثون على

آثار قصورهم واطلال معايدهم وقطع من سكتهم (اي نقودهم)

وقد عرف ايضا انه كانت لهم تجارة واسعة في انواع البخور والطيوب والصمغ

وروى أنهم كانوا يفلحون الارض ويستثمرونها وكانوا يستخرجون المعادن من باطن الارض كالذهب والفضة والاحجار الكريمة . وكانت لهم قصور شاهقة كقصر عمدان وقصر ناعط وقصر ريذة وقصر صرواح . هذا غير القلاع والسدود والجسور

(الدول القحطانية الاخرى) كان عرب اليمن كثيرا ما يزحون من بلادهم عند نزول الشدائد بهم فيزلون الحجاز او اليمامة او البحرين او عمان . وقد تيسر لبعضهم انشاء دول في بعض تلك الجهات . وقد عد العرب من دولهم الغساسنة بالشام والمناذرة بالعراق وكندة بنجد

وقد اعتبر العرب تسم عشرة قبيلة خارج اليمن من بني قحطان اى يمنية غير عداية وهي : قبائل طي والأشعر وبجيلة وجذام والازد وماملة وكندة ونهم ومذحج وهمدان ومازن وغسان وعدنان ومزيقيا وازدشنوة والأوس والخزرج وخزاعة . ولكل من هذه القبائل بطون وانحاذ وعمائر وعشائر لا سبيل لحصرها هنا وقد نشأت من بعضها وهي غسان ونهم وكندة دول سيرد ذكرها وقد اتفق العلماء على ان هذه القبائل كلها قحطانية وانهم خرجوا من اليمن بعد انهدام سد مارب على اثر سيل العرم . وانا لذا كرون موجزاً من تاريخ كل دولة من هذه الدول الثلاث المار ذكرها

(دولة الغساسنة)

قلنا ان بني غسان هاجروا من اليمن لتهدم سد مارب بسيل العرم فنزلوا مشارف الشام وحرار بها قوما من قضاة يقال لهم الضجاعة واخذوا ما بأيديهم وأسسوا هنالك دولة تحت حماية الرومان في الجهة التي تعرف الآن باسم البلقاء وحووران فبلغوا درجة عالية من المدنية يقول بحاثو الغرب ان عدد ملوك الغساسنة لا يتجاوز العشرة وان اولهم جبلة بن شمر وآخرهم جبلة بن الأيهم الذي قهره المسلمون واخذوا بلاده

امتد ملك الغساسنة حتى عم مشارف الشام وتدمر وفلسطين ولبنان وبنى ملوكهم القصور الفخمة والقناطر الفخمة . من قصورهم المشهورة القصر الابيض وقصر المشي

وقصر الفضاء وقصر السريداء وقصر ابن وغيرها

(دولة اللخمين في العراق)

اول من حكم العرق آل تنوخ ومنهم جذيمة الابرش ثم صار الحكم بعده الى ابن اخته عمرو بن عدى وهو من آل نصر فرع من نخم . وقعت دولة اللخمين تحت سلطة الفرس كما كانت قد وقعت دولة الفساسنة تحت سلطة الرومان و يطلق العرب على ملوكهم اسم ملوك الحيرة

كان أول ملوك الحيرة عمرو بن عدى كما قدمنا وآخرهم المنذر المعرور . وكانت عاصمتهم مدينة الحيرة وهي على نحو ثلاثة أميال من الكوفة في موضع يقال له النجف على الساحل الغربي للفرات وكانت أهلة بالقصور والمباني العظيمة والحدائق الغناء وبقيت الحيرة عامرة في الاسلام بضعة قرون . وكان بجوارها القصران المشهوران وهما الخورنق والسدير

﴿ دولة كندة ﴾

كندة بطن من كهلان هم قحطانيون ، اصلهم من البحرين والمشقرها حروا الى حضرموت فاقاموا ببلدة اسمها كندة فكانوا هنالك مواليين للحميرين فاتفق ان حجر بن عمرو آكل المرار سيد كندة كان اخا حسان بن تبع ملك حمير من امه فولاه قبائل معد كلها تأسست هذه الدولة في القرن الخامس وانقرضت وفاة امرئ القيس سنة ٥٦٠

﴿ تاريخ العرب العدنانية ﴾

العرب العدنانية هم ذرية اسماعيل ابن ابراهيم عليهما السلام ، وذلك ان ابراهيم هاجر بامرأته هاجر وابنها اسماعيل الى بلاد العرب فاسكنها بمكة وبنى البيت الحرام ثم عاد الى الشام فلما كبر اسماعيل تزوج بامرأه من نبي جرهم أصحاب مكة في ذلك العهد قيل فولدت له اثني عشر واداً فتناسلوا حتى بلغ عددهم الملايين وكانت العرب تسميهم الاسماعيلية والعدنانية ايضاً نسبة الى عدنان جد ذرية اسماعيل والفرق بين العرب العدنانية والعرب القحطانية ينحصر في النظام الاجتماعي

وفي الدين واللغة

فمن الوجهة الاجتماعية يمتاز العرب العدنانية عن القحطانية بان جمهورهم أهل بدو
يسكنون الخيام ويربون الماشية ويرحلون وراء المياه والاعشاب فهم لا يبنون بيوتا
ولا يؤسسون امصارا الا اهل مكة فانهم تحضروا منهم

ومن الوجهة الدينية يمتاز القحطانيون بان آلهتهم تقرب من آلهة البابليين منها
عشتاروايل وبعل الخ ولكن آلهة العدنانيين كانت لا تشترك مع سواها ولها أسماء خاصة
كاللات والعزى ومناة وهبل

ومن الوجهة اللغوية يوجد بين الطائفتين خلاف جوهرى وان كان الجميع
يتكلمون العربية والخلاف يتناول الاعراب والضمائر والاشتقاق والتصريف
كان هؤلاء العرب العدنانية على حالة قبائل وكان لهم ماشية كثيرة وتجارة
وكان مقامهم فى تهامة والحجاز ونجد على حالة بدو الا قرىشا فقد تحضرت
وسكنت مدينة مكة

ثم ان هذه القبائل نزلت من بلادها لطلب العيش فانشا بعضها دولا وضاع ذكر
البعض الاخر

فكان اول من نزع بنى قضاة ففرقت بطونها من جزيرة العرب فى نجد والبحرين
ومشارف الشام فاشأ بعضها دولا بالعراق والشام وكان نزوح هذه القبيلة حوالى القرن
الاول للميلاد

(دول قضاة)

من بطون قضاة (جهينة و بلى) وكانت منازلهم بين ينبع و يثرب ومصر على شواطئ
البحر الاحمر ولم تكن لهم دول ذات ملوك ولكنهم غلبوا على بادية مصر وصعيدا اجيالا
ومن دول قضاة (تنوخ) وهو فرع كبير من قضاة . وقال بعض المؤرخين ان
تنوخا كانت مزيجا من قضاة والازد وكانت دولتهم فى اوائل ظهور النصرانية
كان لتنوخ دول فى مشارف الشام والعراق منها دولة جذيمة الارش كانت عاصمتها
فى المضيرة بين بلاد الخانوقة وقرقيسيا . ويرى المؤرخون ان هذه الدولة كانت فى
نحو القرن الثالث من الميلاد

لم تطل ايام هذه الدولة فحل محلها بطن آخر من قضاة اسمه سليح

(دولة سليح)

سليح بطن من قضاة ملكوا مشارف الشام بعد تنوخ وكان مقرهم في مواب من ارض البلقاء وفي سادية وحوارين والزيتون . ومن ملوكها النعمان بن عمر ومالك بن النعمان وعمرو ابنه ثم خلفهم النساسنة كما مر والاولون هم الضجاعة الذين ذكرنا ان النساسنة تغلبوا عليهم

(انمار)

انمار بطن من قضاة رحلت الى جبال السروات فملكوها ثم تخاصمت هنالك القبيلتان المكونتان لانمار وهي بجيلة وخشم فحدث بينهما حروب يطول بسطها

(اباد)

اباد بطن من قضاة نازعتها مضر الحياة فنزحت من تهامة الى العراق قرب الكوفة ثم انهم شنوا الغارة على الفرس فاوقع بهم كسرى انوشروان وأجلام عن العراق فنزلوا الى تكريت والجزيرة والموصل ثم نزحوا منها الى بلاد الرومان والشام

(ربيعة)

هاجرت ربيعة من تهامة فنزحت قبيلة عبد القيس منها الى البحرين وهجر ونزلت قبائل اخرى منها الى نجد والحجاز واليمن . وكانت القبائل التي نزلت الحجاز منها بكر وتغلب وعنزة وضبيعة . ثم حدثت بينهم حروب فتغلبت بكر على تغلب ففرقت تغلب في البلاد وانتشرت بكر ابن وائل وعنزة وضبيعة باليامة الى سواد العراق . وانحازت النمر وغفيلة الى اطراف الجزيرة وطانات . وكانت الزعامة لعنزة ثم تحولت الى عبد القيس ثم الى النمر ابن قاسط ثم الى بكر بن وائل ثم الى تغلب فتولي منها وائل بن ربيعة وهو كليب المشهور

(مضر)

استاثرت مضر بتهامة حتى كثر عددها فوقعت بين بطونها الحروب واشهر تلك البطون قيس بن عيلان وخندف فنزلت الثانية فظعننت قيس بن عيلان الى نجد الا

قبائل منها انحازت الى اطراف البؤر من تهامة فنزلت هوازن ما بين غور تهامة الى ما
والي ييشة وبركا وناحية السراة والطائف وذي الحجاز وحنين واوطاس
وكان بنو خندف يتألمون من قبيلتي طابخة ومدركة فنزلت طابخة بطواهر نجد
والحجاز وأوت مزينة الى جبال رضوى وما والاها بالحجاز ورحلت تميم وضبة الى
منازل بكر وتغلب. وهاجرت بنو سعد الى يبرين ونزلت طائفة الى عمان واخرى
بين اطراف البحرين الى مايلي البصرة

واقامت قبيلة مدركة بتهامة . وكانت لهذيل بنو فهم وعدوان من قيس عيلان .
واقام بنو النضر بن كنانة حول مكة انزلهم قصي بن كلاب الحرم وهم قریش فكان
بالحجاز من العرب اسد وعيس وغطمان وفزارة ومزينة وسليم وفهم وعدوان وهذيل
وخشم وسلول وهلال وكلاب وطيء وأسد وجهينة وغيرها

ذكرنا عرضاً في هذه الفذلكة عند ذكر استعمار الحبشة لليمن ما حدث من اعترام
تاملمه ابرهة على صرف الناس عن حج البيت الي حج كنيسة بناها بصنعاء. وتفصيل
هذا الاجمال هو أن ابرهة لما هم بذلك واخذ له اهبتة جاء رجل من العرب فأهان تلك
الكنيسة ، فهاج ذلك غضب ابرهة فعزم ان يثار ليعتته بهدم الكعبة . فجهز لذلك
جيشاً وسار على رأسه قاصداً مكة وما زال يطوى المعاوز والمواصي حتي وصل الي
ضواحي مكة واستاق من اموالها ابلا لعبد المطلب جد النبي صلى الله عليه وسلم، وكانت
قریش قد اخلت البلدة ولجأت الي الشعب تاركة البيت الحرام وما فيه من اصنامها
ونصبها لرحمة المغير الحاقد . وهناك اصاب جيشه حادث اضطره للاسراع بالرجوع.
فماد وقد بادا كثير عسكره ، ولم يقض مما اراده وطراً . في هذه السنة ولد النبي صلى
الله عليه وسلم فكابت هذه الغارة قبل بعثته باربعين سنة

هذا موجز من تاريخ العرب معتبس من اجحات العلماء الغر بين الذين عنوا بدرس
الآثار العربية ، وأغروا بتحرير تاريخ هذه الامة على نور ما هؤدوا اليه من المعالم
التاريخية والآثار العمرانية

مناقشة ما كتبه الدكتور طه حسين في العرب

يقول حضرته ان الشعر المسمي بالجاهلي لا يمثل حياة الامة العربية قبل البعثة
المحمدية . ونحن لا يسعنا الا موافقة الاستاذ على ذلك . فالتا نرى كما رأى النقاد
الاقدمون ونقلناه عنهم في الفصل الاول من هذا الكتاب ان هذا الشعر الذي بين
ايدنا اكثره مختلف وضعه الوضاعون في القرن الاسلامي الاول والثاني والثالث كما
وضعوا مئات الالوف من الاحاديث ونسبوها للنبي صلى الله عليه وسلم وكما وضعوا
خطبا لاتحصى وكلمات مأثورة لاتحصر على كبار الصحابة والتابعين والملوك والقادة
من جميع الاجناس والنحل . ولئن كان الرواة الاولون قد حفظوا عن الجاهليين شعراً
صحيحاً فتمام قد تحروا منه مالا يصادم الاسلام تأثماً من نقل اخبار المشركين واذاعة
ضلالاتهم الاعتقادية . وقد ثبت ان العرب الاسلاميين في ابان نهضتهم قد تخرجوا
من ترجمة الياذة المنسوبة لهوميروس الشاعر اليوناني القديم وكان ذلك كما
يقول العلامة درابر *Draper* في كتابه المنازعات بين العلم والدين
Les conflits de la science et de la religion تخرجوا من ذكر الآلهة
اليونانيين ، وتعظيم ابطالهم الممتازين . فلا غرو ان يهمل الرواة حفظ القصائد
الدينية التي قالها العرب وفيها ما فيها من ذكر الاصنام وانحرافات التي لاتخف على
سمع من كان يعنون بالشعر في تلك الايام

ويقول الدكتور طه حسين : « ان القرآن اصدق مرآة للحياة الجاهلية ، واصح
تمثيلاً لها من الشعر المسمي بالجاهلي »

ونحن نوافق على ذلك من وجه ونحالفه من وجه آخر . اما ان القرآن يعتبر اصقل
مرآة لما كان عليه عرب الجاهلية من التناقص الخلقية والعيوب الاجتماعية ، والمنكرات
العادية فَنَسَم . لان القرآن قد عرض عقائد ودافع عنها ، وعرض عقليه الجاهليين

وسخر منها ، وعرض اعتراضاتهم على دعوته ودحضها ، وعرض تفصيلات حجة عن احوالهم الاجتماعية ، وعاداتهم الزوجية ، ومألوفاتهم البيتية ، ومنازعاتهم السياسية والاقتصادية وشتم عليها وطابها ، ولم يدع كبيرة ولا صغيرة من اخلاقهم الرديئة ومعاملاتهم المعيبة الا اتي عليها وازرى عليها وتهكم بها ، واستنزل سخط العقلاء عليها ، فهو يمثل حياة الجاهليين من وجهة نقائصهم وسياساتهم تمثيلا لا يدانيه فيه شعر ولا تاريخ . وكيف لا يكون كذلك وهو انما جاء لقلهم مما هم عليه الى حال ارقى منه درجات ، وتهيئتهم لان يحيوا حياة سالحة تأخذ بهم الى معارج الارتقاء ، وتحفزهم الى تخطي دوائر الجمود التي كانوا فيها ولا يبنون عنها تحولا ، ولا يتخيّلون وراءها مذهبا . وهل يتأتى له ذلك الا بالدخول في صميم شؤونهم الحيوية ، وحكاية مآمهم عليه من المنكرات الاجتماعية ، ثم الكر عليها بالتقبيح والتهجين ، او بالتعديل والتقويم ونخالف الدكتور طه حسين من وجه كفاية القرآن وحده في تجلية ما كان عليه العرب من الصفات المحمودة ، وليس له ان يعرض لذلك وهو في مقام دعوتهم الى دين يقلب وجودهم الاجتماعي رأسا على عقب ، ويهدم مآمهم عليه من اساسه ، ويقم على انقاضه صرحا جديدا لحياة جديدة لم يعرفوها الى ذلك الحين

فتكون النتيجة اللازمة لمذهب الدكتور طه حسين اننا نبقى جاهلين بما كان عليه عرب الجاهلية من الكرم الذي ضربت به الامثال وبلغ حد التضحية بالنفس ، وحفظ الجوار الذي لم يؤثر مثله عن غيرهم ، والشجاعة وابع الضمير وحب الحرية والصبر على المكاره والنجدة والصدق في القول والذكاء وهي الصفات التي يجلبها الشعر المدعو بالجاهلي في حدودها البدوية كل التجلية . فهذا الشعر لا يمكن الاستغناء عنه في بناء تاريخ العرب الجاهليين ولا يكفى القرآن وحده في ذلك . وما دام الشعر المنسوب لهم ، وفيه المخلوق والصحيح . قد اجمع على نسبة هذه الصفات لهم فيمكن الاعتماد عليه في تكميل بناء تاريخهم . والافنكون قد حكنا بعدم امكان الوصول الى هذا التاريخ على الاطلاق

فلننظر الان فيما يقوله الدكتور طه حسين من ان القرآن يمثل لنا في عرب

الجاهلية حياة دينية قوية ، وقدرة على الخصام والجدال ، وانهم كانوا اصحاب علم
وذكاء وعواطف رقيقة ، وعيش فيه لين ونعمة ، وانهم كانوا على اتصال قوى بمن
حولهم من الامم قسمهم احزابا وشيما ، وكانوا يعنون بسياسة امقي الفرس والروم ،
وعلى اتصال اقتصادى بغيرهم من الامم ، وانهم تجاوزوا باب المنذب الى بلاد
الجبشة ، وتجاوزوا الحيرة الى بلاد الفرس ، وتجاوزوا الشام وفلسطين الى مصر ،
وانهم كانوا متأثرين بالسياسة العامة ومؤثرين فيها ، وبذلك فقد كانوا امة متحضرة
راقية لامة جاهلة همجية . ثم قال وكيف يستطيع رجل عاقل ان يصدق ان القران
قد ظهر في امة جاهلة همجية؟

قول اننا لانرى رأى الاستاذ في كل هذه الاطلاقات ونوجز رأينا في
الفصول الآتية :

هل كان للعرب الجاهلين حياة دينية قوية

وحياة عقلية قوية ؟

لا جدال في ان العرب كانوا قبل البعثة المحمدية على دين هو الوثنية على اخس اشكالها
لا كوثنية اليونان ذات الميتولوجيا المتأنفة في الخيال ، ولا كوثنية المصريين والهنود
والصينيين الثرية في الاصول الداعية الى تطهير النفس ، والتجرد من عالم المادة والتغلغل
في الحياة الروحية بفرض الرياضات ، وايجاب العبادات . وقد دفعت الاديان الوثنية
اصحابها الى كثير من العلوم والفنون فعبادة الكواكب جعلت من الكلدانيين اول المستكشفين
لمساطر القبة الزرقاء واول الضابطين لحركات الاجرام العلوية ، وعبادة الطبيعة في
قواها المتعددة حفزت اليونانيين للنظر في عوالمها وتقليد صنائعها فوصلوا الى غايات
بعيدة في فنون النقش والنحت والتصوير ، ودفعت بفريق آخر منها الى باحات
الفلسفة والعلوم . وقل مثل ذلك عن الهندين والصينيين والمصريين الاقدمين .
اما العرب فكانت وثنيتهم ساذجة مبهمة قليلة السلطان على عقولهم لم تدفعهم لاي
صناعة من الصناعات التي يدفع اليها التدين ، ولو لا اصنام كانوا اقاموها في مكة
يحجون اليها في كل عام مرة لساغ عدم من الامم المجردة من العاطفة الدينية

يقول الدكتور ان الامة العربية كانت قوية في دينها . ونحن نقول أسمعنا ان امة تكون قوية في دينها ، وليس لها هيئة كهنوتية ، ولا اساطير دينية ، ولا معابد محلية ، ولا كتاب يرجع اليه في شؤونها العبادية ، وتهتدى بهديه في امورها التعاملية ؟ أ كان للعرب من مظاهر التدين الا انهم كانوا يحجون البيت الحرام بمكة كل عام مرة ثم تعود كل قبيلة الى محلتها لا تربطها مع جاراتها رابطة ملية ، ولا تجمعها وايها عاطمة روحية ، حتي انه لما اعزم ابرهة عامل ملك الحبشة على اليمن هدم الكعبة وصدد اليها على رأس جيش لتنفيذ هذه العزيمة ، كان كل ماعمله العرب لدرء الخطر عن البيت الذي يحترمونه ان لزمته كل قبيلة مكانها ، ماضية في شأنها من الاغارة على جيرانها وسلب اموالها وسي نساؤها ، وتركت جيش ابرهة ينحترق صحاريها ومعاييرها آمنة مطمئنا . وكان كل مافعله قريش التي كانت تتولى سداية الكعبة ان فرت من وجه المغير بن نسيانها واولادها وماشيتها معتصمة بشعاب الجبال تاركة تحت رحمة آلهتها وكعبتها يفعل بها مايدوله . فلو كان لهذه الامة غيرة على دينها وهي امة حريية بطبيعتها ، أما كانت تداعت لحماية اصنامها وانصابها ، فتدفقت سيول فرسانها من كل حذب والتفت حول حرمها تدافع عنه المعتدين عليه ونستमित في الذباد عنه ولو فنت دونه ؟

اما ولم تفعل ماكانت تفعله كل امة تفار على كرامتها الدينية فلا نستطيع ان نوافق الدكتور طه حسين على انها كانت ذات نزعة دينية قوية . بل نستطيع ان نقول انها كانت قليلة الغيرة على دينها الى درجة معيبة

يعتمد الدكتور طه حسين على القرآن نفسه في التدليل على ان العرب كانوا ذوي حياة دينية قوية، يستنتج ذلك من تشدهم في رفض الدين الجديد وثباتهم على دينهم الموروث ، وذهابهم في الاستعصاء على الدعوة كل مذهب حتى ادام ذلك الى الحرب الضروس . ولو كان تأمل قليلا في نفسية العرب الجاهليين لرأى هذا الاستعصاء منهم كان حالة اشتركت في احداثها بضعة عوامل تعتبر من مميزات الامة العربية في جاهليتها . وبما ان الدكتور طه حسين لا يعتد في بناء تاريخ الجاهلية الا بالقرآن فنحن سنسرد هذه العوامل واحداً واحداً مستندين الى نص القرآن نفسه ، فاليك :

(اول هذه العوامل) ضعف العاطفة الدينية عندهم . واجلى مظهر لهذا الضعف انهم لم يكونوا على امر جامع من عقائدهم شأن الذين لاعراقه لهم في الدين . فقد كان بعضهم دهريا لا يعتقد بوجود اله ، و بعضهم لم يكونوا يعتقدون بالبعث بعد الموت . ومنهم من كانوا يعبدون الكواكب . ومنهم من كانوا يعبدون الملائكة . ومنهم من كانوا يعبدون الاصنام ويعتقدون انها شفعاؤهم عند الله فهل يعقل ان تكون امة على مثل هذا الخبط من امر دينها ، لا تجمعها جامعة ، ولا ترجع في عبادتها الي اصل مدون ، وليس لها في تلك العصور هيئة ممتازة تهيمن على عقائدها ، وتكون مع هذا كله قوية في دينها ؟ واذا ثبت ضعف العاطفة الدينية عندها من هذا الطريق فلا عجب ان يلاقى كل دين جديد من تلكؤها في قبوله مالاقي الاسلام في اول امره منها

(ثاني هذه العوامل) افراط العرب في الفخر بابائهم ، والتباهي بمناقبهم وما آثرهم فقد لا تصادف في امم الارض قديما وحديثا من يشاكلهم في هذه الخصلة ، فكان يصعب عليهم ان يسجلوا على اولئك الاباء ، بقبولهم الدين الجديد ، انهم كانوا على ضلال مبين

(ثالث هذه العوامل) جهودهم على ما كان عليه آباؤهم بغير تعقل ولا اعمال روية . وقد حكى عنهم القرآن ذلك فقال : « انهم ألفوا آباءهم ضالين فهم على آثارهم بهرعون » « قالوا انا وجدنا آباءنا على امة وانا على آثارهم مهتدون » « واذا قيل لهم اتبعوا ما انزل الله قالوا انما نتبع ما وجدنا عليه آباءنا »

(رابع هذه العوامل) مجيء الدين من طريق محمد بن عبد الله وهو وان كان من ذؤابة قریش نسبيا وحسبا الا انه لم يكن من الموسرين المستكثرين ، ولا من زعمائهم المتصدرين . وقد اشار الي ذلك القرآن في قوله تعالي : « وقالوا لولا انزل هذا القرآن على رجل من القرينين عظيم » المراد بالقرينين مكة والطائف . ومؤدى هذه الآية انه لو كان قام بالدعوة الي الاسلام احد هؤلاء الزعماء لاتبعوه . وقد صرح القرآن بانهم كانوا يقلدون رؤساءهم بلا روية ولا تفكير ونعي ذلك عليهم في صورة حكاية ماسيقولونه يوم يعرضون على العذاب في الحياة الاخرة : « وقالوا ربنا اننا اطعنا ساداتنا

وكبراءنا فاضلونا السبيلا»

فاشترك هذه العوامل الاربعة يكفي في تعليل استعصائهم على الدعوة الاسلامية

بادي ذي بدء

على ان القرآن قد صرح ان العرب كانوا لا يعباون بالدين لقولهم «اذا كنا ترابا
واباؤنا انا لخرجون؟ لقد وعدنا هذا نحن و اباؤنا من قبل ان هذا الاساطير الاولين»

وقال: «وما كان دعاؤهم عند البيت الا مكاء وتصديّة» اي وما كانت عبادتهم

في البيت الحرام الا صغيراً وتصفيقا . وقال: «ان هؤلاء يقولون اذا متنا وكنا ترابا

وعظاما انا لمبعوثون؟ أو اباؤنا الاولون؟ قل ان الاولين والاخرين لمجموعون الى

ميقات يوم معلوم»

ولو كان حقا ما يقوله الدكتور طه حسين من ان ذلك الاستعصاء الذي قابل به

العرب الدعوة الاسلامية كان ثمرة قوتهم في دينهم لكان جداهم مع النبي صلى الله

عليه وسلم أخذ شكلاً يشعربانهم على عقائد مقررة، واصول محددة على مثال الجدال

الذي كان يقرم به اليهود، فقد كانوا يسألون النبي صلى الله عليه وسلم في امور

ويجيبهم عنها ويحاكمهم الى كتابهم اذا انكروها، ولكن عرب الجاهلية قابلوا

الدعوة الاسلامية بسلاح العاجز وهو قولهم انهم لا يستطيعون ان يتخلوا عن دين اباؤهم

الاولين: وكل ما فعلوه بعد ذلك انهم كانوا يتمجبون من التوحيد فقالوا كما حكاه عنهم

القرآن: «أجعل الالهة الها واحداً ان هذا لشيء عجاب. وانطلق الملائمة انهم ان

امشوا واصبروا على آلهتكم ان هذا لشيء يراد. ماسمعنا بهذا في الملة الاخرة ان هذا

الا اختلاق»

ولا يخفى ان التعجب من وحدانية الله لا يدل على شيء من الذكاء، والتواصي

بالصبر على آلهتهم لا يتجاوز المقاومة السلبية، مقاومة الجهالة الاغبياء. وتصريحهم

بانهم لم يسمعوا بهذا التوحيد في الملة الاخرة يدل على سذاجة لا يعذرون عليها

على اية حال

وقد استند القرآن كل انواع البيان في اقناعهم فلم يظفر بطائل فاخذ يسألهم: ألكم

كتاب فيه تدرسون، أعندكم أثارة من علم عنها تصندرون، ألكم عقول بها تميزون

وعلى حكما تنزلون ؟

فلما أعيام أمره ، واستعصى على علاجه جمودهم قررانهم كالانعام بل أخط من الانعام فقال : « أم نحسب ان اكثرهم يسمعون او يعقلون ، انهم الا كالانعام بل هم أضل سبيلا » . وقال : « لهم قلوب لا يعقلون بها ولهم آذان لا يسمعون بها ، ولهم اعين لا يبصرون بها ، انهم الا كالانعام بل هم أضل سبيلا »

فاين بعد هذا ما يستخرجه الدكتور طه حسين من القرآن من قوة حياتهم الدينية والعقلية ، وسمو قدرتهم اجداية والمنطقية ، وعلو كمبهم في الشؤون العلمية ؟ لعله عرض ما ذكره القرآن من تعنتهم في طلب الآيات فعدده من فرط ذكائهم ، وقوة ادراكهم ، ونحن نعرض عليك ماورد في القرآن من ذلك لنرى هل يدل على ذكاء أم غباء ، قاليك :

قال الله تعالى : « وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا ، او تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الانهار خلالها تفسجيرا ، او تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا ، او تأتي بالله والملائكة قبيلا ، او يكون لك بيت من زخرف او ترقى في السماء ، ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرأه »

« وقالوا لوما تأتينا بالملائكة ان كنت لمن الصادقين »

« وقالوا ما هذا الرسول يا كل الطعام ويمشي في الاسواق لولا انزل اليه ملك فيكون معه نذيرا ، او يلقى اليه كنز او تكون له جنة يأكل منها وقال الظالمون ان تتبعون الا رجلا مسحورا »

« وقالوا هل هذا الا بشر مثكم أفتأتون السحر وأتم تبصرون »

« بل قالوا اضغات احلام ، بل افتراه ، بل هو شاعر ، فليأتنا بآية كما ارسل

الاولون »

« ام يقولون افتراه ، قل ان افتريته فلا تملكون لي من الله شيئا ، هو اعلم بما تفيضون فيه كفى به شهيدا بيني وبينكم وهو الغفور الرحيم . قل ما كنت بدعا من الرسل وما ادرى ما يفعل بي ولا بكم ، ان اتبع الا ما يوحى الي ، وما انا الا نذير مبين »

« ويقولون ، انا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون »

« ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده ، وان يوما عند ربك كالف سنة
مما تعدون »

« ام يقولون به جنة ؟ بل جاءهم بالحق واكثرهم للحق كارهون »
« وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم اذا مزقتم كل ممزق انكم لنرى
خلق جديد؟ أفترى على الله كذبا ام به جنة؟ بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب
والضلال البعيد »

« وقال الذين كفروا لولا أنزل عليه القرآن جملة واحدة ، كذلك لنثبت به فؤادك
ورتلناه ترتيلا . وما ياتونك بمثل الا جئناك بالحق واحسن تفسيرا »
« واذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا ما هذا الا رجل يريد ان يصدم عماما كان
يعبد آباؤهم . وقالوا ما هذا الا إفك مفترى . وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم ان هذا
الا سحر مبين . وما آتيناكم من كتب يدرسونها وما ارسلنا اليهم قبلك من نذير .
وكذب الذين من قبلهم وما بلغوا معشار ما آتيناكم فكذبوا رسلي فكيف كان نكير »
« وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر انك لمجنون . لو ما تأتينا بالملائكة ان كنت
لمن الصادقين . وما نزل الملائكة الا بالحق وما كانوا منظرين »
« وقالوا قلوا بنا في أكنة مما تدعونا اليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب
فاعمل انا عاملون »

« واذا قيل لهم تعالوا الي ما أنزل الله والى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه
آباءنا . أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون »
« وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون »
« ام يقولون نحن جميعا منتصر . سيهزم الجمع ويولون الدبر ، بل الساعة موعدهم
والساعة ادهى وأمر »

هذه صورة كاملة من الآيات التي وردت في القرآن فيما يتصل بالجدال الذي
وقم بين عرب الجاهلية ورسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا يؤخذ منها انهم كانوا على
شيء من الذكاء والعلم والقدرة على الخصام ، بل يقين منها انهم كانوا على تقيض
ذلك كله . فان كل ما طلبوه ان يخرق لهم النبي صلى الله عليه وسلم العادة بعين ماء

يفجرها ، او بجنة تكون له فيا كل منها ، او بيت يُمطاء من الذهب فياوى اليه ،
 او يطير الى السماء وياتيهم بكتاب منها يقرأونه ، او ياتيهم بالله وملائكته ليروه
 باعينهم ، او يسقط السماء عليهم قطعا قطعا فيهلكهم ، وهذا كله بالهزل اشبه منه بالجد ،
 ولا يدل على شيء من الفطنة والفهم ، بل هو نوع من الهذيان يقدر عليه حتى الاطفال .
 اما الذي يدل على الصفات التي نحلهم اياها الدكتور طه حسين فهو قرع الحججة بالحجة
 ومقابلة البيان بما يبطل سحره ، و يلاشي سخذه ، والاستشكال على اقوال النبي
 وافعاله بشبه يحار فيها العقل ، و يضيق عنها الوسع

زعموا ان القرآن مفترى فتجدهم بأن يأتوا بسورة مفتراة من مثله فعجزوا .
 « فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين . فان لم تفعلوا
 ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين »

فما هي القيمة العلمية والجدلية لقوم يصيحون بأن هذا القرآن مفترى ثم يعجزون
 عن تأليف سورة من كلام يشبهه ؟

كان كل ما فعلوه ازاء هذا التحدي المحزى ان تداعوا الى اللغو والنهويش حين
 يتلى عليهم القرآن ليبتلوا تأثيره فيهم وفي غيرهم فقال الله فيهم . « وقالوا لا نسمعوا
 لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون »

فهل هذا فعل قوم يوصفون بالذكاء والعلم والقدرة على الجدل ؟ وهل عهد في
 تاريخ المناظرات ان يستعين الخصم باللغظ والفضوضاء حين يدلي الخصم بحجته ليبتلها
 بهذا النحو من العبث الذي لا يصدر الا من الغوغاء ؟

هنا نسأل انفسنا اذا كانت الحالة العقلية والنفسية للعرب كانت على ما وصفه
 القرآن من الاحطاط والسقوط فكيف يمكن تفسير اقامتهم لحكومة عقب وفاة النبي
 صلى الله عليه وسلم مباشرة امكنها ان تلم شعثهم ، وتجمع شتاتهم وتحافظ على وحدتهم ،
 وتدفعهم لدحر الامتين العظيمتين اللتين حملوا نيرها قرونا طويلة وهما الفرس والرومان
 فسحقت الاولى ومثلتها بجهانها ، وهزمت الثانية وامتلخت الشام ومصر من برائتها ؟ هل
 كانت تكفي المدة التي لبثها النبي صلى الله عليه وسلم بين ظهرانيهم وهي ثلاث

وعشرون سنة لأن تخلفهم خلقا جديدا فيصعبوا قادرين على ما لم يكونوا يحلمون به امام جاهليتهم؟ هب انه اوجد فيهم صلاحا وورعا وادبا فهل اوجد فيهم عقلا عمليا ومرانا حكوميا، واستعدادا للترقي وقدرة على تصريف الامور من قبيل الطفرة؟

يقول قائل: نعم ان هذه المدة تكفي لأن تتمكن روح عالية كروح النبي صلى الله عليه وسلم من قلمهم من حال الى حال يناقضها، وتعددهم لان يقوموا باعباء مملكة شاسعة الاطراف لم تدر لهم في اى عهد من عهودهم
قول هذا سائح من الوجهة الخيالية الشعرية ولكنه من الوجهة العملية لا ينقم غلة المنقب عن العال الطبيعية، ولا ينطبق على السنن الاجتماعية. وحل هذا المشكل في نظرنا هو ما سنجمله في الاسطر التالية:

عرب الجاهلية وبخاصة في مكة والطائف ويثرب كانوا لا يختلط كثير منهم بالامم المجاورة لهم وترددهم على سورية ومصر وفارس ولاشتغالهم بالتجارة والمعاوضات على شئ من الحياة المدنية اقتبسوها اختلاسا في رحلاتهم المتكررة وبمزاولة مهنتهم المحلية. ولكنهم كانوا في هذه المدن مقيمين على النظام البدوي المحض من الاقسام الي قبائل وبطون وانحاز وفصائل واسر. فلم تكن لهم حكومة مركزية، ولا رئيس محدود السلطة، ولا شرطه، ولا محاكم، ولا شئ مما يميز الحكومة النظامية. وكانوا يغيرون على جيرانهم ويغار عليهم كسائر العرب وكانا ستنين ذلك في هذا الكتاب.
فلم يكن من فارق بينهم وبين اهل البادية الا ان هؤلاء كانوا يقيمون في دور مبنية بدل الخيام، وكان مرتزقهم من الاتجار وتربية الانعام. فلما ظهر النبي صلى الله عليه وسلم ودعا الناس سرا الى الاسلام تسارعت اليه العناصر الصالحة من هؤلاء الناس وقبلوا دعوته، وكنتموا امرهم عن الدهماء. فلما امر النبي باعلان الدعوة واخذ المشركون يضطهدونهم لصبوهم عن دين آباؤهم صبروا معه صبورا استنفد كل ما في وسعهم من احتمال. ثم قرروا، وقد بلغ السيل الزبي، ان يهاجروا الى حيث يأمنون على انفسهم ودينهم من عنت المشركين فاختاروا ان تكون دار هجرتهم الحبشة. ولما شدد الكافرون النكير على رسول الله ومن بقي معه قرروا الهجرة الى المدينة بعد الاتفاق

مع اهلها سرا على ذلك . فتسللوا اليها ثمت جنح الظلام ، ثم لحق بهم من كان قد ذهب الى الحبشة منهم ، فكان هؤلاء المهاجرون الاولون وهم صفوة قریش والعناصر الصالحة فيهم ، ومن انضم اليهم من اهل يثرب (المدينة) نواة لدولة جديدة كتبت لها ان تنمو وتمتد وتحدث في العالم الانساني حدثا جللا لا يزال له نور يمسألق الى اليوم

واتفق في ذلك الحين ان الدولتين اللتين كانتا تتنازعا في الارض وهما دولتا الفرس والرومان آخذتين في الانحلال ، فبعد ان تحققت للعرب وحدة دينية وسياسية ، ودفعتها طبيعة الاجتماع المنظم للتبسط في الارض انتزعت سورية ومصر من الرومانيين ، وكان اهلوهما ينتظرون فرجا من عسف المستعمرين ، ثم وجهوا وجوههم شطر فارس وكانت في حالة النزاع فما هي الا ضربتان حتى تفككت اوصالها ، وضاع وجودها ، وتبادر عقلاؤها لقبول الدين الجديد ، فانضم الى العرب بذلك عنصر عريق في المدنية كان له اثر كبير في حفظ وجود الدولة الاسلامية



هذا ولسنا بمن يذهبون مذهب الذين يعدون عرب الجاهلية همجا متوحشين ، مارين من كل فضيلة ، وكاسين بكل رذيلة . بل نتقد كما يعتقد الدكتور طه حسين بأنه كانت لهم حياة دينية وعقلية ، وانهم كانوا اذ كفاء بفطرتهم ، وبأنه كانت لهم عواطف ، وكان لبعضهم عيش فيه لين ونعمة ، وانهم كانوا على اتصال سياسي واقتصادي بمن حولهم من الامم جنبي على الملاصقين منهم للامم المتقدمة الوقوع تحت نيرها ، وأن اهل المدن منهم كانوا على شيء من الحضارة

كل هذا صحيح من بعض الوجوه ، ولكنهم كانوا قبيل البعثة المحمدية وفي ايمانها في دور تدهور وانحلال ، عقب دور اخذوا فيه حظهم من الحضارة والغلب والاستقلال . ولا أدل على ما نقول من ان جميع بلادهم المجاورة لدولتي الفرس والرومان والحبشة وقعت تحت نير هذه الامم حتى ان القبائل العدنانية الوسطى سكان الحجاز ونجد لم تنج من الخضوع لسلطان الاجنبي فقد كانوا تابعين لعرب اليمن الى اواخر القرن الخامس . وكان عرب اليمن تابعين اذ ذلك للاحباش . وأدله من هذا على

انهم كانوا في دور تدهور وانحلال ان دولتي الفرس والرومان كانتا اiban البعثة المحمدية وقبلها في دور انحطاط مريع ، فاستمرار الاقاليم العربية المجاورة لهما على حمل نيرهما وهما في هذا الدور من الدلائل المحسوسة على ان اهلهما كانوا في حالة نفسية يقبلون معها كل اذلال يفرض عليهم

وليس أدل على تدهور وانحلال القبائل العدنانية في نجد والحجاز ايضا من تركهم جيش ابرهة حامل الحبشة يتوغل في بلادهم على عزم هدم الكعبة دون ان يلاقى اية مقاومة . اين هذا من غيرة اليونان حين اعتمز (الملك اكسيركسيس) ملك الفرس في القرن الخامس قبل ميلاد المسيح على اكتساح بلادهم فقاوموه شبرا شبرا حتى اصلوه في مضابق الترموبيل نار حرب طاحنة لم يجد معها مناص من الارتداد على عقبه زغما زغما كان معه من الجيوش الجرارة والعدد المجتاحة

وان تذكرت ان جواب قريش نفسها على تلك الغارة الحبشية كان تركها الكعبة وما فيها من آلهتها تحت رحمة ولياذاها بالشعاب دون ان يراق من رجالها قطرة دم علمت ان داء الانحلال كان قد سرى في جسد الامة العربية متحضرها ومتبديها سر يانا لم تعد معه تصلح لحماية حوزة، ولا للدفاع عن كرامة

نعم قد كان لبعض العرب ذكاء وفهم، وعيش فيه لين ونعمة ، وان سكان المدن منهم كانوا على شيء من الحضارة ، ولكنهم كانوا على حال من الانحلال الادبي والاجتماعي لا يرجي لهم معه قيام . فكانوا من الدين على وثنية منحطة خالية مما يموهها من المعابد الفخمة ، والهاياكل الضخمة ، والسدنة الراقين ، والمرشدين الروحانيين ، وكانت عبادتهم تنحصر في حج البيت والتصفيق والصفير فيه . وكان لديهم السفاح دائما ، وشرب الخمر شائعا ، واعمب الميسر مباحا ، وتعدد الزوجات الي ما لا حد له سائفا ، وحرمان النساء من الميراث بل وراثتهن كما تورث الانعام والتحكيم فيهن حقا مقررا ، واجبار فتياتهن على البغاء طمعا في اجورهن عملا محملا . وكانوا مع ذلك يدعون اليتيم ، ولا يتحاضون على طعام المسكين ، ويأكلون التراث أكلا لما ، ويجبرون المال حبا حبا

كل هذا صرح به القرآن ، وشهد به عليهم ، وجبهم به على رؤس الاشهاد .

وهو ليس بشيء في جانب داء دوى سرى في دماهم ، واختلط بكيمائهم ، واصبح
عنصرا من عناصر وجودهم ، واصلا من اصول طبيعتهم ، الا وهو داء الفرقة مع كل
ما يستتبعه من تناحر وتنازع ، وما يقتضيه من تناكر وتقاطع ، فكانت سيوفهم لا
تجف من دماهم ، ورماحهم لا تطهر من اشلائهم ، لا يجمعهم دين جامع ، ولا يلم
شعثهم غرض واحد ، قال تعالى : «لوانفقت ما في الارض جميعا ما الفت بين قلوبهم ولكن الله
ألف بينهم»

فاذا كان لا يجوز لنا ان نعتد على اقوال المؤرخين الاسلاميين فيما رووه عن
عسف ملوك العرب المجاورين للفرس بالعراق ، وللرومان في حدود الشام ، وعن
انهمالك الناس هنالك على السفاسف والديثات من الامور ، والعود عن استرداد
استقلالهم ، وقناعتهم بحياة العبودية والذل . وفيما رووه عن تناحر الاوس والخزرج
بيثرب ، وشغل اهل مكة باللهو بالقيان ، والعزف بالعبدان ، والفسوق والعصيان ،
قلنا اذا كان لا يجوز لنا الاعتماد على اقوال المؤرخين في ذلك لاتهامهم بتحقير الجاهلية
والجاهليين ، وترويجهم دعوة الاسلام والمسلمين ، فان الحوادث تشهد عليهم بذلك ،
فان هذه القبائل الكثيرة منهم قد لبثت قرونا قبل البعثة المحمدية في حالة جمود وجمود لم ينبغ
فيهم داع الى هداية ، ولا رادع عن غواية ، ولا مصلح يحاول لمشعثهم ، وجمم متفرقهم ،
وتوحيد كلمتهم ، ولا مشرع يجهد ان يضع لهم نظاما ، او يطلب لهم وثاما ، ولا
فيلسوف ينظر في الحقائق ، ويحاول ادراك الدقائق ، ولا طامع في ملك يعالج من
امرهم ما عالج الطامعون في الامر ، ويماني ما عاناه الساعون في بعث الهمم ، واحياء
الرمم ، ولا صانع حتى في عواصم المتحضرة يعسن نحت اصنامهم ، او بناء
معابدهم ، هذا والامم المتمدنية تحيط بهم من كل مكان ، والاتصال بينهم حاصل في
كل آن ، فماذا تستنتج من هذه الحالة الراكدة ، والحياة الهامدة ، الا انهم كانوا قد
استنفدوا كل ما في قدرتهم من اسباب البقاء ، ولم يبق لهم منها ما يبعثهم على الارتقاء ،
لمباراة الاحياء ؟

يقولون قد بعث النبي صلى الله عليه وسلم في عهد كان العرب فيه يتحفزون
للنهوض ، ويتهبأون للوثوب ، وقد بحثنا في مبلغ هذا القول من الصحة فلم نجد له اثرا

يدل عليه ، بل وجدنا ان الجود ، والتمسك بالقديم ، والاستقامة الى المألوف العتيق ، كان قد بلغ منهم حدا يكاد لا يوجد له شبيه في تاريخ الامم . فقد دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم الى توحيد الله وتنزيهه ، وترك ما هم عليه من الوثنية الساقطة ، والامادات الساقطة ، ولم يترك وجها من وجوه التأثير عليهم الا آتى به على أكمل ما يكون ، فلم يلبه من اهل مكة الا عشرات من اهل الفهم والفتنة ، فرماهم مواطنوهم عن قوس ، واذاقوهم جميع الوان الازى ، فصبروا على هذا الاضطهاد صبر الكرام ، فلما فاض للابناء ، وطفح الكيل ، فروا بدينهم حيث يأمنون عليه في بلاد الحبشة ، وقضى رسول الله فيهم ثلاث عشرة سنة يدعوهم الى الخروج من الظلمات الى النور ، فلم يزحزهم ذلك عما هم فيه قيد شعرة . بل ظلوا يتهمونه بالكهانة تارة ، وبالسحر اخرى ، وبالشر حيناً ، وبالجنون حيناً آخر ، حتى قبض الله له اهل المدينة وهم بنو الاوس وبنو الخزرج هاجروا الى يثرب بعد سيل العرم في القرن الثاني بعد الميلاد وكان يحيط بالمدينة يهود كثيرون ، فروا بدينهم من بطش الرومانيين ، فوقف منهم اولئك القحطانيون على ماهية الدين والتوحيد والنبوة فصاروا يعرفون عن كل هذه الامور شيئاً ، ويملون ان ينالوا منها حظاً ، محاكاة لليهود ، وتخلصاً من تعييرهم اياهم بالوثنية التي كانوا عليها ، فاستعدوا ان لا ينفروا من التحول عن باطل الى حق يدعون اليه ، ولا عن قبيح الى حسن يعرض عليهم ، ولا عن ركود الى حركة يندبون اليها . فلما دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الاسلام ، وقرأ عليهم شيئاً من القرآن ، وآسوا من ذلك حقاً ساطعاً ، وجمالاً رائعاً ، لبوا نداءه ووعدوه بحماية دعوتهم ضد كل من يتصدى له مادامت فيهم بقية من حياة

فكانت هذه الطائفة ومن انضم اليهم من مهاجرة مكة حجر الزاوية في صرح الدولة الاسلامية التي نذبتها العناية الالهية لاحداث اكبر الحوادث العالمية وقلب الشؤون الارضية من حال الى حال آخر

واني اميل ايضا لان اجعل لطول المحصومة والحرب بين الاوس والخزرج دخلاً ايضا في تراميهم على الاسلام ليكون وسيلة سلام بين الفريقين دون ان يشعر طرف منها بذلة المنهور ، وان يتحمل غطرسة الغالب الفخور

هذا ان ابينا ان نعتد في بحثنا هذا بغير العوامل الطبيعية والسنن الاجتماعية ،
ولكننا إن وسعنا قليلا من دائرة التعليل حتى شملت للقوة المدبرة للأفراد والجماعات،
والمهيمنة على نظام الوجود والموجودات، ساغ لنا ان نقول ان دخول الاوس والخزرج
في الاسلام لأول دعوة من رسول الله وتمسكهم به الى حد التضحية بالنفس دون
تأمل في اجر دنيوي يمكن ان يعتبر من الاستحالات الاجتماعية الفجائية ، على نحو
الاستحالات الفجائية الحيوية التي اثبت العالم الالماني دوفريس *De Vries* حصولها
بالعجربة في عالم النباتات والحيوانات ووجد حض بها مذهب دارون القائم على النشوء
الطبيعي ، والتطور التدريجي ، حتى قال العلامة البيولوجي لوهانك *LeDantee*
« لا اقول على مذهب دارون فحسب، ولكن اقول على مذهب التطور السلام »

نعم يمكن ان تعتبر الاستحالة الفجائية التي دخل فيها الاوس والخزرج من ناحية
الدين من قبيل التدبير الالهي لاحداث ما يبتنى عليه من التطورات العالمية العظيمة،
ولكننا ننقل هذا الاعتبار مادام يمكننا التعليل بالعوامل الاجتماعية حتى لا ندخل
في العلم المتفق على حدوده لصولا من طبيعة علوية لم تبلغها وسائله بعد

يلوح من هذا لاول وهلة ان العرب لو كانوا على وشك نهضة لما صادفت دعوة
النبي صلى الله عليه وسلم منهم كل هذا النفور ولما كانت حججهم المثلى في رفض الدين
الجديد قولهم : « انا وجدنا آباءنا على امة وانا على آثامهم مقتدون » و « انما تبع
ما وجدنا عليه آباءنا » فان الامم المتحفزة للنهوض لا تدفع المجددين بمثل هذا الاصل
الدال على اقصى درجات الجمود . بل عهدنا لها تكتسب شعورا حادا يسوقها لكراهية
ما كان عليه آباؤها الاولون، وقد تغلوفتسلخ من حقهم وباطلهم، وحسنهم وقبيحهم
على السواء، وتترامى في احضان كل جديد حتى ما كان منه ضارا بها كما يشاهد في
تركيا ومصر اليوم . فالفضل في التطور العظيم الذي دخلت فيه الامة العربية فأصبحت
به منقذة العالم من براثن الجهالة والهمجية يرجع الى الروح المحمدية التي بثت الحياة
في هذه الاشباح الجامدة فركتها لطاب الحياة الصحيحه من كل مظالمها، وبثت
هذا الشعور فيمن حولها من الجماعات حتى استحققت خلافة الله في الارض كما
استحققتها قبلها امم لاصلة بينها وبين العرب في شيء : « وعد الله الذين آمنوا منكم

وعملا الصالحات ليستخلفهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدلهم من بعد خوفهم آمننا يعبدونني لا يشركون بي شيئا »

مبلغ اتصال العرب بالامم الاجنبية من الوجهة السياسية والاقتصادية وتأثيرهم في السياسة العامة

يقول الدكتور طه حسين ان عرب الجاهلية كانوا على اتصال قوى بمن حولهم من الامم قسمهم احزابا وشيعا، وانهم كانوا يعنون بسياسة الفرس والروم وعلى اتصال اقتصادي بغيرهم من الشعوب، وانهم تجاوزوا باب المندب الى بلاد الحبشة، وتجاوزوا الحيرة الى بلاد الفرس، وتجاوزوا الشام وفلسطين الى مصر، وانهم كانوا امة متحضرة راقية لامة جاهلة همجية

نقول قبل نقد هذا الكلام انه يجب على القارىء ان يذكر ان العرب كانوا فريقين فريق يجاور الفرس والروم في العراق والشام والاحباش في اليمن، وفريق في نجد والحجاز بعيد عن مطامع الامم الاجنبية لصعوبة الوصول اليهم من جهة ، ولجدوبة ارضهم من جهة اخرى . فاما الفريق الاول فكان واقما تحت سلطان الامم الاجنبية منذ قرون قبل البعثة المحمدية . وقد استنام لذلك السلطان حتى صار لا يحدث نفسه بالاتصال عنها . فكان افراد من هذا الفريق يجاوزون حدود بلادهم فيجوبون بلاد الفرس والرومان والحبشان طلبا للعيش . ونحن مع اقتناعنا بأن عرب تلك البلاد كانوا على شيء من الحضارة الا ان شخوصهم الى تلك الاقطار لا يصح الاستدلال به على رقيهم الادبي والاجتماعي فان كثيرين من بدو طور سيناء وطراباس وبورنو وغيرها يحضرون الى مصر ويعودون الى بلادهم وهم على ما هم عليه من شظف العيش والجمود على المألوف

وهذه الاقطار العربية التي كانت خاضعة للاجانب لم ترفع بالاسلام رأسا عند ظهور النبي صلى الله عليه وسلم، بل بقيت مخرقة لاساداتها الاجانب وساعدت جيوشهم لصد العرب المسلمين عن بلادها وبلادهم . وقد ارسل رسول الله صلى الله عليه وسلم

جيشا نخاض اليمن من مخالبا الفرس وغزا بنفسه شمال بلاد العرب فدفعت له بعض قبائلها اجزية . ثم خلفه ابوبكر فلم تطل مدته لعمل شيء اكثر من ارجاع القبائل العربية التي ارتدت بعد وفاة النبي الى حظيرة الاسلام ومن فتح بعض سورية . ثم لما خلفه عمر فتح بلاد العراق والفرس ومصر وألحقها ببلاد المسلمين

وكان تعضر هذا الفريق ورفقه ينحصران في ان الطوائف المجاورة للفرس اقتبست بعض عاداتهم في اللبس والمأكل والمسكن والمجاورة للرومان دانت لملتهم واخذت إخدم في حياتهم، واكنهم لم يبلغوا قط مبلغ قاهريهم في علومهم وصنائعهم ولم يدركوا شأومهم في مدنيتهم وترفهم . فلم يترك لنا المجاورون للفرس مثل ما تركه سادتهم في ذلك العهد من طبهم وفلسفتهم وآدابهم، ولا المجاورون للرومان مثل ما بقوه من شرائعهم ونظمهم وعلومهم . والحكم للشعوب بالرقى والمدنية لا يكفي فيها مجرد الادماء ، فان للمدنية آثارا تبقى ، وللرقى معالم يقف عليها الاخلاف فيعرفون منها مبلغ ما وصل اليه اسلافهم . فان قلنا ان المصريين كانوا متمدنين راقين منذ خمسة آلاف عام فانما نستدل على ذلك بما تركوه لنا من الاهرام والانصاب والتماثيل والنقوش والمصنوعات . فهل لمن جاور الفرس والرومان من العرب شيء من هذه المتروكات لنستدل بها على انهم كانوا راقين متمدنين وعلى مبلغ ما وصلوا اليه من الرقى والمدنية ، اللهم الا اطلال قصور كانوا يستأجرون البنائين الاجانب لاقامتها لهم كما يستأجر القروي الثري بعض البنائين من القاهرة ليبنوا لهم دورا فخمة لا تقل عن احسن قصور العاصمة، بينما جمهور اهل القرية يسكنون الاكواخ المتخذة من الطين

اما الفريق الثاني من العرب وهم اهل نجد والحجاز فقد كانوا دون الاولين في كل ناحية من نواحي الترقى الادبي والمادى لاشتغالهم بالغارات وبعدهم عن مرا كز الحركة المدنية . فلم يكونوا على اتصال قوى بمن حولهم، قسمهم احزابا وشيما كما يقول الدكتور طه حسين ، وما كانوا يعنون بسياسة الفرس والروم ، ولا كانوا متأثرين بالسياسة العامة ولا مؤثرين فيها

قد يكون حدث ان بعضهم تقلب في بعض بلاد الفرس والرومان طلبا للعبس بنقل

بعض البضائع وبيعها هنالك . ولكن لا يصح تسمية هذه الاتصالات الفردية ،
والمفاوضات التافهة اتصالا قويا في العرف السياسي . فلدينا هنا اليوم رجال من
بورنو وشنقيط والصومال يتعلمون العلم في مدارسنا ويوردون لنا شيئا من
مصنوعاتهم ومحصولاتهم وينقلون لبلادهم شيئا من مصنوعاتنا ومحصولاتنا ومع ذلك
فلا يقال ان بيننا وبينهم اتصالا قويا . ويتبع هذا انهم لا يعقل ان ينقسموا الى الخراب
وشيع بسبب هذا الاتصال الذي لا يذكر والا لظهر تأثيره فيهم ، ولا نتقل خبره
لينا في شيء من الشعر او التاريخ على علانها . وقد ذكر في اشعارهم انهم اتصلوا
بالجن والاغوال والسعالي وورد في تاريخهم اخبار عن هذه الكائنات ، ولم يصلنا عن
اتصالهم بالفرس والروم شيء غير ما ذكرنا

اما ما استند اليه الدكتور طه حسين في هذا الصدد من قوله تعالى « غلبت الروم
في ادنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين ويومئذ يفرح المؤمنون
بنصر الله » فان له سببا : وذلك انه لما وردت اخبار الركبان بان الفرس غلبوا الرومان
في حرب كما يرد الي نيجيريا او ليبريا او السنغال اخبار عن مصر وتركيا والصين
والسويد ، فرح المشركون بانتصار الفرس ، لا لأن ذلك الانتصار سيكون له تأثير في
نجد والحجاز ، ولكنهم تفاءلوا منه لا تقسم ذقالوا ان الروم اهل كتاب مثلكم ،
والفرس لا كتاب لهم مثلنا ، وقد انتصر الاخرون على الاولين فسننتصر عليكم نحن
كذلك . فنزلت هذه الآية تنبئهم بان النصر سيكون للروم في بضع سنين ويومئذ
يفرح المؤمنون بانتصار اهل الكتاب على من لا كتاب لهم . فراهن ابو بكر بعض
المشركين على ان ذلك سيقع بعد ثلاث سنين واخبر النبي صلى الله عليه وسلم بما فعل
فقال له ان البضع تمتد الى التسع فمد في الاجل الي تسع وزده في الرهان . ففعل . ولم
تمض هذه المدة حتى كثر الروم على الفرس فهزموهم

هذه حقيقة تلك الآية وهي لا تعدو التفاؤل كما تفاءل المصريون بانتصار اليابانيين
على الروس باعتبار انهم شرقيون مثلهم ، وكما فرحوا بانتصار الاحباش على ايطاليا
لكراهتهم لمبدأ الاستعمار لا لتأثرهم من انتصار احدهما على الاخرى في اى ناحية
من نوحى شؤونهم الادبية او الاقتصادية

والا لماذا كان تأثير الفرس غير الكتابيين في الدعوة الاسلامية وقد لبث امد
انتصارهم تسع سنين ؟ أقلل من نشاط النبي صلى الله عليه وسلم ؟ أصد الناس عن الدخول
في الاسلام ؟ أمد المشركين بما يمكنهم من ابادة الدين آمنوا بالقرآن ؟
ثم ماذا كان من تأثير كفة الروم على الفرس ؟ أفت في عضد المشركين فعملهم
على الدخول في دين الله افواجا ؟ أهالهم امره فسلموا مكة لرسول الله بلا حرب ؟
أستوجب ان يمد الروم المسلمين بالسلاح والمال ليتقوا بهما على المشركين ؟

شيء من ذلك لم يكن، وهو اول دليل على ان ماورد في القرآن مما يتصل بهذا النزاع
بين الروم والفرس كان الداعي اليه ما ذكرناه من نفي تفاؤل المشركين لانهم كانوا مؤثرين
في السياسة العامة ولا متأثرين بها

اما اتصالهم الاقتصادي (اى اهل نجد والحجاز) بغيرهم من الشعوب فكان على
ادني ما يمكن ان يتصوره العقل وكل ما في هذه المسئلة ان سكان مكة كان لهم
رحلتان احدهما في الصيف الى الشام والاخرى في الشتاء الى اليمن . وكان غرضهم
من ذلك مبادلة أشياء من محصولاتهم ومصنوعاتهم بأشياء من محصولات ومصنوعات
دينك القطرين . ومثل هاتين الرحلتين لانسيان اتصالا اقتصاديا بالمعنى المعروف
عند علماء الاقتصاد . فان كل ما فيها ان أهل مكة والمدينة كانوا يسافرون مرة الى
الشمال ومرة الى الجنوب لاستيراد بعض ما هم في حاجة اليه من الاقمشة والانية والاسلحة
كما يحصل بين كل بلدين متجاورين . وما كان اهل مكة والمدينة في حاجة الى شيء يعتد به
يصح تسميته اتصالا اقتصاديا

فان كان لابد من الاستدلال بالارقام فاليك ما جاء في السيرة النبوية عند الكلام
على غزوة المشيرة . وذلك ان النبي صلى الله عليه وسلم خرج في نحو مئتين من اصحابه
يريد عير قريش التي صدرت من مكة الى الشام بالتجارة . وكانت قريش جمعت
اموالها في تلك العير ويقال ان فيها خمسين الف دينار والف بعير . وكان قائد
تلك العير ابوسفيان بن حرب ومعه سبعة وعشرون وقيل تسعة وثلاثون رجلا
منهم مخزومة بن نوفل وعمرو بن العاص فوجدها قد مضت قبل ذلك بأبام .
وهذه العير هي التي خرج اليها لما عادت من الشام فافلتت منه وحدثت بسببها

وقفة بدر (١)

ثروة تقدر بخمسين الف او مئة الف دينار ليست بشيء يذكر ولا ينحني ان مؤلفي
المسلمين لا يهتمون في بنس ثروة قریش

وماذا يرجي ان يكون من الاتصالات الاقتصادية بالخارج في مدينة يسكنها
زهرة العرب وليس فيهم من يعرف القراءة والكتابة غير رجلين اثنين حتى انه لما
نشأت الدولة الاسلامية واحتاج الامر لتدوين الدواوين واحصاء الجنود واصحاب
الحقوق اضطروا لاستخدام الكتبة من غير العرب فكانت اللغات الرسمية في الولايات
هي لغات اهل تلك الولايات لعدم وجود من يصلح من العرب لذلك . فلما وجد في
العرب متعلمون في خلافة عمر ابدل هؤلاء بأولئك

فنحن وافقنا الدكتور طه حسين في ان عرب الجاهلية كانوا على اتصال بمن
حولهم من الامم ، وعلى ان بعضهم كان على شيء من الحضارة ، ولكن في الحدود
التي رسمناها هنا بشهادة الواقع نفسه ، والافأى سحر بيان في العالم يستطيع ان يقنع
الناس بأن امة يقال انها كانت متحضرة وراقية ومتصلة اتصالا اقتصاديا قويا بالامم
المجاورة لها ، وكانت مؤثرة في السياسة العامة ، ومع هذا كله لم يوجد فيها بعد ان
صارت دولة رجال من ابنائها ممن يعرفون القراءة والكتابة يستطيعون ان يتولوا العمل
لا نقول في وزارات ومصالح ولكن في بضعة سجلات يحصرون فيها اسماء الجند
 واصحاب المرتبات ؟

ان كل من يتعمق في دراسة تاريخ عرب الجاهلية ويستبطن ما كانوا عليه من
عوامل التقهقر التي اوقعتهم تحت نير الامم المجاورة لهم وقضت على البعدين منهم عن
تلك الامم في حالة بداهة وفوضى وتناحر آما داطويلة ، يدهش من عظم تأثير الروح
المحمدية التي اذابت هذه السكتل المتحجرة من الطوائف المتعادية ذات التقاليد
والعادات الموبقة ، وكوّنت منهم امة ذات اصول ومبادئ عالية دفعتها في سنين معدودة
الى بلوغ غاية من العلم والمدنية لم تبلغها امة قبلها ، ولا يزال العالم يتأثر بروح منها

٤

شعر جاهلي واللغة

ننتقل الآن الي الفصل الرابع من فصول كتاب الشعر جاهلي ونلخصه فيما يلي مع المحافظة على عبارات المؤلف قال :

(الشعر الذي رأينا انه لا يمثل الحياة الدينية والعقلية للعرب اجاهلين بعيد كل البعد عن ان يمثل اللغة العربية في العصر الذي يزعم الرواة انه قيل فيه . فلنجهد)
 (في تعرف اللغة الجاهلية هذه ماضي ، او ماذا كانت في العصر الذي يزعم الرواة)
 (ان شعرم الجاهلي هذا قد قيل فيه . اما الرأي الذي اتفق عليه الرواة او كادوا)
 (يتفقون عليه فهو ان العرب ينقسمون الى قسمين : قحطانية منازلهم الاولي في اليمن)
 (وعدنانية منازلهم الاولي في الحجاز)

(وهم متفقون على ان القحطانية عرب منذ خلقهم الله فطروا على العربية فهم)
 (العاربة ، وعلى أن العدنانية قد اكتسبوا العربية اكتسابا ، كانوا يتكلمون)
 (لغة اخرى هي العبرانية او السكدانية ثم تعلموا لغة العرب العاربة . وهم متفقون)
 (على ان هذه العدنانية المستعربة اما يتصل نسبها باسمايل بن ابراهيم)
 (ويتفق الرواة ايضا على ان هناك خلافا قويا بين لغة حمير (وهي العرب)
 (العاربة) ولغة عدنان (وهي العرب المستعربة)

(اذا كان ابناء اسماعيل قد تعلموا العربية من أولئك العرب العاربة فكيف)
 (بعد ما بين اللغة التي كان يصطنعها العرب العاربة واللغة التي كان يصطنعها العرب)
 (المستعربة حتي استطاع ابو عمرو بن العلاء ان يقول انهما لغتان مهايذتان . وواضح)
 (جدا لكل من له الملم بالبحث التاريخي عامة و بدرس الاساطير والاقاصيص خاصة)
 (ان هذه النظرية متكلفة مصطنعة في عصور متأخرة دعت اليها حاجة دينية او)
 (اقتصادية او سياسية)

(للتوراة ان تحدثنا عن ابراهيم واسماعيل، وللقرآن ان يحدثنا عنهما ايضا ولكن)
 (ورود هذين الاسمين في التوراة والقرآن لا يكتفي لاثبات وجودهما التاريخي فضلا)
 (عن اثبات هذه القصة التي تحدثنا بهجرة اسماعيل بن ابراهيم الى مكة ونشأة)
 (العرب المستعربة فيها . ونحن مضطرون الى ان نرى في هذه القصة نوما من الحيلة)
 (في اثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة و بين الاسلام واليهودية والقرآن)
 (والتوراة من جهة اخرى . واقدم عصر يمكن ان تكون نشأت فيه هذه الفكرة انما)
 (هو هذا العصر الذي اخذ اليهود يستوطنون فيه شمال البلاد العربية ويشون)
 (فيه المستعمرات . فنحن نعلم ان حروبا عنيفة شبت بين اليهود المستعمرين وبين)
 (الذين كانوا يقيمون في هذه البلاد وانتهت بشيء من المسالمة والملاينة . فليس)
 (يبعد ان يكون هذا الصلح الذي استقر بين المغيرين واصحاب البلاد منشأ هذه)
 (القصة التي تجعل العرب واليهود ابنا اعمام)

(ولكن الشيء الذي لاشك فيه هو ان ظهور الاسلام وما كان من الخصومة)
 (العنيفة بينه وبين وثنية العرب من غير اهل الكتاب قد اقتضى ان تثبت الصلة)
 (الوثيقة بين الدين الجديد وبين الديانتين القديمتين : ديانة النصارى واليهود)
 (فاما الصلة الدينية فتأجبه واضحة ، ولكن هذه الصلة معنوية عقلية بحسن ان)
 (تؤيدها صلة اخرى مادية ملموسة بين العرب واهل الكتاب . فما الذي يمنع ان)
 (تستغل هذه القصة قصة القرابة المادية بين العرب العدنانية واليهود؟)

(وقد كانت قریش مستعدة لقبول مثل هذه الاسطورة في القرن السابع)
 (للمسيح . فقد كانت في اول هذا القرن قد انتهت الى حظ من النهضة السياسية)
 (ولاقتصادية ضمن لها السيادة في مكة وما حولها وبسط سلطانها المعنوي على جزء)
 (غير قليل من البلاد العربية الوثنية . وكان مصدر هذه النهضة وهذا السلطان)
 (امرين : التجارة من جهة والدين من جهة اخرى)
 (فاما التجارة فكانت قریش تصطنعها في الشام ومصر وبلاد الفرس واليمن)
 (وبلاد الحبشة)

(واما الدين فهذه الكعبة التي كانت يجتمع حولها قریش ويحج اليها العرب)

(المشركون في كل عام والتي اخذت تبسط على نفوس هؤلاء العرب المشركين نوما)
(من السلطان قويا ، والتي اخذ العرب المشركون يجعلون منها رمزا لدين قوى كان)
(يريد ان يقف في سبيل انتشار اليهودية والمسيحية . فنحن نلمح في الاساطير ان)
(شيئا من المنافسة الدينية كان قائما بين مكة ونجران . ونحن نلمح في الاساطير ايضا)
(ان هذه المنافسة بين مكة وبين الكنيسة التي اسأها الحبشة في صنعاء هي التي دعت)
(الي حرب القيل التي ذكرت في القرآن)

(فقر يش اذن كانت في هذا العصر ناهضة نهضة مادية تجارية ونهضة دينية)
(وثنية . وهي بحكم هاتين النهضتين كانت تحاول ان توجد في البلاد العربية وحدة)
(سياسية وثنية مستقلة تقاوم تدخل الروم والفرس والحبشة ودياناتهم في البلاد)
(العربية . فيكون من المنقول جدا ان تبحث هذه المدينة الجديدة لنفسها عن اصل)
(تاريخي قديم يتصل بالاصول التاريخية الماجدة التي تتحدث عنها الاساطير .)
(واذن فليس ما يمنع قریشا ان تقبل هذه الاسطورة التي تفيد ان الكعبة من تأسيس)
(اسماعيل وابراهيم)

(امر هذه القصة اذن واضح : فهي حديثة العهد ظهرت قبيل الاسلام)
(واستغلها الاسلام لسبب ديني وقبيلتها مكة لسبب ديني وسياسي ايضا . واذن)
(فدستطيع ان نقول ان الصلة بين اللغة العربية الفصحى التي تتكلمها العدنانية واللغة)
(التي كانت تتكلمها القحطانية انما هي كالصلة بين اللغة العربية واي لغة اخرى من)
(اللغات السامية . وان قصة العاربة والمستعربة وتعلم اسماعيل العربية من جرم كل)
(ذلك حديث اساطير لا خطر له ولا غناء فيه)

(والنتيجة من هذا البحث هي ان الشعر الذي يسمونه الجاهلي لا يمثل اللغة)
(الجاهلية ولا يمكن ان يكون صحيحا . ذلك لاننا نجد بين هؤلاء الشعراء الجاهليين)
(قوما ينتسبون الى عرب اليمن التي كانت تتكلم لغة غير لغة القرآن والتي اثبتت)
(البحث الحديث ان لها لغة اخرى غير العربية)

(ولكننا حين نقرأ الشعر الذي يضاف الي شعراء هذه القحطانية في الجاهلية)
(لانجد فرقا بينه وبين شعر العدنانية ، بل لانجد فرقا بينه وبين لغة القرآن .)

(فكيف يمكن فهم ذلك أو تأويله ؟ امر ذلك يسير وهو ان هذا الشعر الذي يضاف)
(الى القحطانية ليس منها في شيء وانما حمل على شعرائها بعد الاسلام لاسباب)
(مختلفة سنبينها حين نعرض لهذه الاسباب)

رأينا في هذا الكلام

ذهب علماء العربية الى ان القحطانيين عرباً خلص لغتهم العربية الفصحى
وان العدنانيين عرب ولكن جدم الاعلى اسماعيل بن ابراهيم ، ويذهب الدكتور
طه حسين الى ان لغة اليمن لغة غير العربية اعتمادا على قول اللغوي عمرو بن العلاء
وبعض الباحثين المحدثين . وان الصلة بين العربية الفصحى التي كانت تتكلمها
العدنانية وبين اللغة التي كانت تتكلمها القحطانية انما هي كالصلة بين اللغة
العربية وأي لغة اخري من اللغات السامية . ونحن لانوافق على هذا الرأي بل هو
غير معقول اصلا واليك البيان :

الأصل في اللغات السامية البابلية وقد اشتقت منها العبرانية والحبشية والسريانية
والعربية حتى ان العارف باحدى هذه اللغات يستطيع ان يعيش بين ظهرائها اهل
سائر هذه اللغات و يؤدي حاجاته الضرورية بلغته ثم لا يلبث غير قليل حتى يصير في
لغتهم كأحدهم . وقد كانت سميت اللغة التي يتكلم بها ساكنو الحبشة باللغة الحبشية
واللغة التي كان يتكلم بها ساكنو بابل باللغة البابلية فمن الحق ان تسمي اللغة التي يتكلمها
اهل البلاد التي اصطلح على تسميتها قديما وحديثا ببلاد العرب باللغة العربية . وقد
أطلق مؤرخو الاقدس على اليمن اسم البلاد العربية حتى سماها اليونانيون لغتها
ببلاد العرب السعيدة . واذا كانت اليمن من بلاد العرب فمن العبث ان تسمي لغتها
باللغة العربية . وادان ثبت ان بين لغة اليمن ولغة نجد وتهامة اختلافا فيجب ان يلتمس
تعليل هذا الاختلاف في لاسباب السياسية والاقتصادية والجغرافية لاني غيرها . واذا
كنا رغما عن الخلاف الكبير بين اللغات الحبشية والعبرانية والسريانية والعربية
ندعي انها كلها مشتقة من البابلية فمن العبث ان يحملنا الخلاف الموجود بين لغتي شمال

العرب وجنوبها على القول بانها لغتان متمايزتان مع وجود الصفة المميزة الوحيدة للغة العربية وهي الاعراب في كلتا اللهجتين المدناية والقحطانية

واذا كان بين اللهجتين المدناية والقحطانية خلاف فبأى مرجح ندعي ان المدناية هي اللغة العربية الفصحى وان اليمنية لغة اجنبية ، مع ان اهل هاتين اللغتين جميعا يسكنون بلادا اطاق عليها الناس من يوم خلقت اسم البلاد العربية ، ولا مرجح لذلك لان الوجهة الجغرافية ولا من الوجهة الدينية فكلا الطائفتين كانت تسكن بلادا واحدة وتخرج الي كعبة واحدة ، وتجري في اخلافها وعوائلها على سنة واحدة ، وتعرفان انهما ابناء امة واحدة وكلتا همدان في البلاد العربية

نعم لك ان تقول ان لغة المدناية كانت ارق من اللغة القحطانية ، وان لهجة قریش كانت ارق من سائر لهجات القبائل المدناية التي كانت تتخالف فيما بينها تخالفا عظيما ، حتى نزل القرآن بها . ولكن لك ليس ان تقول ان القحطانية ليست بعربية بسبب الخلاف بينها وبين المدناية

اما هذا الخلاف بين اللغتين المدناية والقحطانية فسببه يرجع الى اعوامل سياسية واقتصادية . فان اليمن لعظم مواردها الطبيعية قد تعاورها الفاتحون من زمان بيد فاحتلها الفرس والاحباش آمادا طويلة . وقصدها التجار من مختلف الاقطار فتسربت الي لغتها الفاظ كثيرة من لغات الفاتحين والمتعاضين بايذت بها عربية شمال بلاد العرب كما بايذت اللغة التركية التي يتكلمها اترك الاناضول وتراقيا اللغة التركية الاصلية التي يتكلمها اترك الخلص في التركستان وبلاد التتار ، وذلك بسبب دخول الفاظ عربية وفارسية واورية اليها حتى صار التركي الاناضولي لا يفهم لغة التركي التركستاني او التتاري . وكما بايذت اللغة الالمانية التي يتكلمها المان امريكا لغة اخوانهم الالمان في وسط اوروبا

اما تقسيم اللغويين القدماء العرب الي عاربة لغتها الاصلية العربية ، والي مستعربة لغتها الاصلية العبرانية فليس بشيء . فان اسماعيل لما سكن مكة كان غلاما صغيرا كما يقولون واختلط هالك ببني جرهم . فالعقول ، وبخاصة مع تقارب اللغتين العبرانية

والعربية ، انه لم يلبث معهم شهورا حتى صار يتكلم العربية مثلهم . ثم لم تمض عليه بضعة سنين حتى نسي لغته الاصلية . وقد روى انه تزوج امرأة من جرحم وولد له اولاد منها ، فكيف يعقل ان اولاده تكلموا العبرانية في تلك البيئة التي ليس فيها من يتكلمها حتى ولا ابوم لنسيانها اياها ولا استغنائها عنها

فالمقول ان اسمايل وبنيه نشأوا يتكلمون العربية لغة امهم فاية حاجة بعد هذا لتقسيم العرب الي عاربة ومستعربة ؟ ألان اسمايل كان عبرانيا ؟ اذن وجب قياسا على هذا ان يكون بين العرب عرب مستعربة لا يحصى لهم عدد فقد تزوج رجال من الزنوج والاحباش والفرس والروم في كل الاجيال نساء عربيات فيجب ان يطلق على اولادهم جريا على هذه القاعدة اسم عرب مستعربة . هذا لم يحصل قط . فلماذا اذن خص اولاد اسمايل بهذا الاسم الى اليوم ؟ وهل كان بقي من عبرانيتهم شيء من عهد اسمايل الى عهد النساين الذين وضعوا هذا التقسيم في صدر الاسلام عن جهل وهذه المدة تقدر بنحو سبعة وعشرين قرنا

كان هذا التقسيم يكون له موضع لو ان قبيلة عبرانية برمتها هاجرت من فلسطين الى بلاد العرب وحافظت على ديارتها وتقاليدها ومقوماتها واكبتها اتخذت اللغة العربية لغة لها . فيصح ان يطلق على هذه القبيلة انها مستعربة ولكن تسمية نصف الامة العربية بالمستعربة لان رجلا واحدا اندج فيها منذ عشرات من القرون فهذا اغرب ما يسمع من انساب الامم وليس له نظير في العالم كله

يقول الدكتور طه حسين : « اننا مضطرون ان نرى في قصة هجرة اسمايل الى مكة ونشوء العرب المستعربة بها نوعا من الحيلة في اثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة وبين الاسلام واليهودية والقرآن والتوراة من جهة اخرى . واقدم عصر يمكن ان تكون نشأت فيه هذه الفكرة انما هو العصر الذي اخذ اليهود يستوطنون فيه شمال البلاد العربية . فنحن نعلم ان حروبا عنيفة شبت بين اليهود وبين الذين كانوا يقيمون في هذه البلاد وانتهت بشيء من المسالمة والملاينة فليس بعيد ان يكون هذا الصالح منشا هذه الفكرة التي ستجعل اليهود والعرب

اولاد اعمام

ثم قال : « امر هذه القصة اذن واضح فهي حديثة العهد ظهرت قبيل الاسلام واستغلها الاسلام لسبب ديني ، وقبلها مكة لسبب ديني وسياسي ايضا »

ونحن نقول ان شمال بلاد العرب لا يسكنه المدفانيون من ذرية اسماعيل وحدهم بل يسكنهم فيه العرب القحطانيون فكان بنو غسان في بادية الشام وهم اول من لقبهم اليهود من العرب في طريق هجرتهم . وكانت قبيلتا الاوس والخزرج سكان المدينة الذين اختار اليهود جوارهم من القحطانيين ايضا . وكان في شمال بلاد العرب من القبائل القحطانية بنو مذحج في اطراف الحجاز ، بنو الازد في منى ، وبنو خزاعة بجوار مكة وجل هذه القبائل اشتركت في اصلاء اليهود نيران الحروب وكانت اشدها عليهم فاذا كانت قصة هجرة اسماعيل الي مكة قد اخترعها اليهود لاثبات قرابتهم للعرب بقصد رد عاديتهم عنهم فلماذا جعلوا هذه القرابة خاصة ببعض العرب دون البعض الاخر وكلهم كانوا سواء في خصومتهم ، بل كان اول من قابلهم في طريقهم القبائل اليمنية وقد اختاروا ان يجاوروا تلك القبائل بقرب يثرب ؟ وما دام اساس هذه القصة الخدع والتزوير وقد حدثت قبيل ظهور الاسلام اي بعد هجرة القبائل اليمنية الى شمال بلاد العرب فأي داع جعلهم يقتصر على بعض القبائل دون البعض الاخر ؟

ثم لو كانت هذه القصة حيلة من اليهود اقتعلوها ليعيشوا مع العرب بسلام آمنين لكانوا حين اجمعوا على الهجرة الى بلاد العرب ، جعلوا ترويحها بين العرب باكورة اعمامهم لأن يبدأوا هجرتهم بالحروب العنيفة حتى اذا طاحتهم الممارك سنين ابتكروها لتكون سببا في اجتلاب عطف خصومهم عليهم

وهل ابتكارها بعد تلك الممارك الطاحنة لا يثير في نفوس العرب الشك في صحتها ، بل الجرم بأنها حيلة يراد بها خضد شوكتهم ، وتلثم حميتهم ؟

وعلى اي اساس طاف بمخيلة اليهود ان هذه الحيلة ترد مادية العرب عنهم ؟ أأنسوا انهم يكبرون شأنهم الى حد انهم يفخرون بقرابتهم لهم وهم يضربون وجوههم وادبارهم ، ليطردوهم من بلادهم ؟

أرأوا ان العرب يباهون بالاعتزاز الي اب اجنبي عنهم فأتوهم من جهة ميلهم هذا وأوهموهم انهم ابناء اسماعيل لا ابناء رجل عربي صميم ، وهم معروفون منذ اقدم ايامهم بكراهية الدخلاء ، وتحقير الملحقين والادعياء ، حتي انهم ليسمون من كانت امه عربية وابوه احنبيا بالهجين تحقيرا له ؟

أشاهدوا ان العرب يعظمون اليهودية ، ويعتبرونها دينا سماويا صحيحا فيسرم ان يكرموا وقادة الاتخذين به فزوروا لهم هذه القرابة ؟

أأحسوا ان العرب يعظمون ابراهيم ويعدونه نبيا ويسرم ان ينتسبوا اليه فقاموا بتزوير هذه النسبة لهم توسلا بها لنيل مرضياتهم ؟

أعلموا ان العرب كانوا يحبون التوحيد حبا جما ويحبون كل داع اليه ، ويسرم ان يكونوا اقرباء زعمائه الاولين ، فاختلبوا الباطل بتمويه هذه الحيلة عليهم ، وهم المعدادون للآلهة ، القائلون لمحمد عليه الصلاة والسلام : « أجعل الآلهة الها واحدا ان هذا لشيء عجاب ، وانطلق الملا منهم ان امشوا واصبروا على آلهتكم ان هذا لشيء يُراد ، لمسمعنا بهذا في الملة الاخرة ان هذا الاختلاق » وقالوا : « انا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون ؟ » كما ورد في اقرآن عنهم في سورتي ص والصفات

ثم اننا نقول ان قريشا لم تعمل قط على ترويح نسبتها الي ابراهيم واسماعيل لعدم وجود اى دليل على ذلك . ولعلها امتنعت عن ذلك لثلاثة اسباب :

(اولها) انها لم تكن تأبه بهذه النسبة لان اسماعيل لم يكن في نظرها ممن يؤبه له لان الوجهة الدينية ، فانها كانت وثنية ، ولا من الوجهة الدنيوية ، فانه لم يكن ملاكا عظيما ، ولا فاتحا خطيرا ، ولا فارسا مغوارا ، ولا شيئا مما يعتد به الجاهليون ويفخرون به . ولو كانوا يرون في الانتساب اليه فخرا لهم لكثروا من تسمية انفسهم بابراهيم واسماعيل ولكانوا على دينها متشددين في التوحيد ، متمسكين باديهما الي مدى بعيد

(ثانيا) ان ترويح نسبة قريش اليهما لم يكن يُرجي من ورائه فائدة لها ذلك لانها لم تكن هي القبيلة الوحيدة التي تنتسب اليهما فقد كان نحو نصف العرب ينتسبون اليهما ،

ويعرفون انهما هما اللذان بنيا الكعبة

(ثالثها) لأن هذا الترويح كان يفضى الى إضغان القبائل اليمنية عليها. وأن تلك القبائل لم تكن تهتقد بنبوتها حتى تخضع للمنتسب اليهما، فكانت تعد ذلك من قریش فضولا يسقط من كرامتها بدل ان يرفع من منزلتها

ومما يدل دلالة تكاد تكون محسوسة على ان قریشا لم يطف بنحياها هذا الترويح قط عدم عنايتها بتسمية اولادها بآراهيم او اسماعيل وانت خير أن هذه التسميات ذات دلالات قوية على تطور الحوادث الاجتماعية حتى انها وحدها تشير الى مبلغ تشييع الشعوب لبعض الافراد الممتازين ، او الى دور انتقال جديد ، او الى اتجاه الامة نحو مثل أعلى في الحياة الادبية

اما الذى احيا هذا التاريخ القديم في البلاد العربية ، ووصل بين حلقات الحوادث الخاصة به، واشاد بذكر ابراهيم واسماعيل فهو القرآن وحده لانه جاء بالتوحيد و ابراهيم كان اشهر الداعين اليه فى الاولين ، وهو مع هذا الجد الأعلى لكثير من القبائل العربية ، وباني الكعبة . فكان من مصلحة الدعوة الاسلامية ترويح هذا التاريخ الصحيح واشاعته بكل ما فى الوسع من بيان وتأثير

فالقرآن هو الذى احيا اسمي ابراهيم واسماعيل في بلاد العرب ، ونوه بديانتها الحنيفية القائمة على التوحيد والتمزيه ، ودعا ذريتها العرب الى الاخذ بها ونشرها فى العالمين حتى ان الدين قرن اسمه فى التشهد فى الصلاة باسم خاتم النبيين وهو « اللهم صل وسلم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما صليت وباركت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم فى العالمين انك حميد مجيد »

وقد اذبح التنويه بآراهيم واسماعيل نتيجة الطيمية فلاخذ الناس بدينها واكثرها من التسمي باسميها . هذا هو الترويح لتاريخها ودينها ، وهذا اثره فى حياة امة برمتها لا ما كان عليه الحال فى الجاهلية

لهذا الترويح لزعماء المذاهب الكبرى فائدة لا تنكر فهذا هو الدكتور طه حسين نفسه يكثر من ذكر ديكارت ويروج اسلوبه فى البحث ترويحاً وآه بعضهم . (غير حق) داعياً الى السخرية . فما ظنك لو كان ديكارت هذا جدياً أعلى للامة المصرية

أكانت دماية الدكتور طه حسين له تقف عند حد؟ وهل كان يلومه عاقل على استهتاره ذلك وبلوغه منه أقصى ما يحتمله الوسم؟

ويقول الدكتور طه حسين: ان قصة هجرة اسماعيل الي مكة نوع من الحيلة لاثبات الصلة بين الاسلام واليهودية والقرآن والتوراة ونحن نسأله أكان الاسلام، لا لجل ان يقوم بما انتدب له من هداية العرب ورفعهم الي مستوي الامم الحية، في حاجة الي انتحال الصلة بينه وبين اليهودية حتي يصح ان يقال انه استغل هذه القصة لمنفعته الشخصية؟

ان اساس اليهودية التوحيد فهل كان العرب يحبون التوحيد الي حد أنهم لا يقبلون دينا جديدا لا يكون ذا صلة بالدين الذي يدعو اليه من زمان بعيد وهو اليهودية؟ ان العرب كانوا يكرهون اليهود واليهودية و يعملون على طردهم وطردها من بلادهم بالسيف والرمح فهل من حسن سياسة الدين الجديد الذي يعمل لان يكون دين العرب كلهم ان يثبت ان بينه وبين اليهودية صلة وثيقة من بعض الوجوه؟ واذا قيل ان محمدا استغل هذه القصة ليسرغ له ادعاء النبوة باعتبار أنه من ولد اسماعيل بن ابراهيم فهل كان هو وحده من بين جميع القبائل العدنانية من ذرية اسماعيل ابن ابراهيم؟

وهل كان من القواعد المقررة عند العرب انه لا ينال النبوة الا رجل من ذرية اسماعيل بن ابراهيم؟

وهل كان العرب يعتقدون بنبوة اسماعيل وهو موحد وهم معدودون؟ ان العرب العدنانية كانوا يعرفون بأنهم ذرية اسماعيل بن ابراهيم ولكنهم لم يكونوا يفخرون بذلك. ولو كانوا يفخرون به لملاؤا الدنيا شعرا في هذا الباب ولاشتد التناظر بينهم وبين العرب القحطانيين، ولامتنع هؤلاء عن الحج الي مكة نكاية في العدنانية. والحقيقة ان العرب لا شغلهم بتنازع البقاء، ولوقوعهم في التناحر الشديد، كانوا بعيدين عن البحث في امثال هذه المسائل الكامية. فكل الذي كان يعنيههم هو ان يحصلوا على القوت والماء في تلك الصحارى والمهامه القاحلة الماحلة التي تسم انهار

الدنيا مجتمعة ولم تمنح منها بجدول يدل غلة اهلها بشيخ زلال ، وينبت لاهلها بعض ما تحتاج اليه من النباتات

بقي القرآن، فهل كان في حاجة لأن يثبت ان بينه وبين التوراة صلة، وهو ينحى على اهل التوراة تحريفهم للكلام ، وصرفهم الامور عن وجوهها ، ويشنع عليهم بذكر تردم على موسى وهرون، وعبادتهم العجل في دور من أدوارهم الخ الخ، فهل مما جرت به العادة ان يعتمد المحتال على اثبات صلة كتاب بكتاب الي مهاجمة اهله هذه المهاجمة العنيفة ، ويؤلمهم هذا الايلام الشديد، ليحملهم على العمل ضده بكل ما في استطاعتهم، ام يلاينهم ويصانعهم ، ويتوسل لاثبات تلك الصلة بوجوه غاية في المهارة وحسن الاسلوب ؟

ثم انا نسأل هل كان عرب الجاهلية يحترمون التوراة ويرونها كتابا الهيا ويتخذون منها تمام وطلاسم للتبرك بها ، ويكتبون آياتها على جدران بيوتهم، ويحفظون نسخا كاملة منه في معابدهم ، فرأى محمد أن من حسن التوسل الى قومه ان يعمل جهده على اثبات ان بين كتابه وبين التوراة صلة مؤكدة ليا نسوا به ويحبوه حبهم للتوراة او اقل قليلا ؟ وهم الذين كانوا يعملون على طرد اليهود من بلادهم بما حملوا من كتابهم واساطيرهم بأقسي ما يتصوره العقل من حرب طاحنة ؟

اللهم انا لانرى وجها للحيلة في اثبات الصلة بين الاسلام واليهودية ولا بين القرآن والتوراة ، فان كان في القرآن ذكر عن اليهودية والتوراة فمبنيه ذكر عن النصراني والانجيل ، بل هو قد ذكر النصراني والانجيل وعيسى والحواريين والرهابة بكثير من العطف فقال : « ولتجدن أقر بهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا انا نصاري ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وانهم لا يستكبرون ». وقد ذكر ايضا الصابئة والمجوس والدهريين ومنكري البعث وغيرهم . ذلك لان الاسلام قد جاء باصلاح ديني عام للامم كافة فكان لا بد من ذكر هذه الاديان والتنبيه على ما فيها من الانحراف عن جادة المنطق لناثير في اهلها كما يضطر الفيلسوف الى ذكر مذاهب اسلافه وتقدها

ويقول الدكتور طه حسين : « ان قريشا كانت تحاول ان توجد في البلاد العربية وحدة سياسية وثنية مستقلة تقاوم تدخل الروم والفرس والحبشة ودياناتهم في البلاد العربية . فيكون من المعقول جدا ان تبحث هذه المدينة الجديدة لنفسها عن اصل تاريخي قديم يتصل بالاصول التاريخية المأجدة التي تحدث عنها الاساطير . واذن فليس ما يمنع قريشا ان تقبل هذه الاسطورة التي تفيد ان الكعبة من تاسيس اسماعيل و ابراهيم »

ونحن نقول ان كان هذا صحيحا وكانت قريش تحاول ان توجد في البلاد العربية وحدة سياسية وثنية كانت تبحث لنفسها عن اصل تاريخي يعم جميع العرب لاعن اصل يشطرها شطرين فيجعل بمضها من ولد اسماعيل وبعضها لا اصل له ، خصوصا وان الجهات الواقعة تحت برائن الاستعمار الفارسي والروماني والحبشي كل سكانها من القحطانيين . فالين وهي بيئة القحطانيين كانت تئن تحت النير الحبشي والعراق الذي كان يسكنه بنو تنوخ كان تحت سلطان الفارسيين ، وشمال بلاد العرب الذي كان يشغله النسانيون كان يرزح تحت كلا كل الرومانيين وكل هذه الاقطار كانت مأهولة بالقبايل القحطانية التي لا تمت الى اسماعيل بسبب ، فهل يعقل ان تختار قريش اصلا يخرج من حظيرتها هذه القبائل التي تحاول تخليصها من نير الاستعمار الاجنبي وهي اقوى العناصر العربية واصلاحها للوقوف في وجه الاجنبي لو توحدت كلمتها ، وحسنت قيادتها ؟

ثم نقول : ان الطائفة التي تنتحل اصلا تاريخيا لمحاولة ايجاد وحدة سياسية تحت سلطانه انما تعد الى اصل تبجله تلك الامة كل التبجيل ، وتفخر بالاعتزاز اليه ، فهل كانت الامة العربية وهي غرقى في لجة وثنيها تعتقد بنبو ابراهيم واسماعيل قبل تلقي تلك النسبة ليسوغ القول بانها في نظرها من الاصول المأجدة ؟ وهل كانت تفخر بالانتساب اليها وهي تطارد اليهود الذين يمتنون اليها باسباب شتى كما تطارد الوحوش الضارية ، وتأنف ان تجمعها واياهم جامعة ؟

ويقول الدكتور طه حسين : « ان هذه القصة (قصة بناء ابراهيم واسماعيل

للكعبة وانها جدا العرب العدنانية (أمرها واضح فهي حديثة العهد ظهرت قبيل الاسلام واستغلها الاسلام لسبب ديني، وقبلتها مكة لسبب ديني وسياسي ايضا) ونحن نقول ان قول الدكتور طه (قبيل الاسلام) يعني قبله بنحسين او بمئة سنة على الاكثر، اذ لا نظن ان قبيل تحتمل اكثر من ذلك. وانت تعلم ان هذه الكعبة كان يعظمها العدنانيون والقحطانيون على السواء، اى من كان منهم من ذرية اسماعيل ومن لم يكن من ذريته، فهل تكفى هذه المدة الوجيزة لترويح فرية كهذه في مثل بلاد العرب الشاسعة الارحاء حتى تصبح الرمر الوحيد لديانتها الوثنية

مُعرف العرب بأنهم من أشد الامم محافظة على قديمتهم، وترسما لخطوات أسلافهم فلا يعقل ان فرية يختلقها اليهود للتمكن من البقاء في ارض غير ارضهم تنشر في بلاد العرب من اقصائها الى اقصائها في مدى نصف قرن او قرن، وتحمل الناس على ضرب آباط الابل اياما وليالى في أشد بلاد الله جدوبة وقحولة، ليحجوا معبدا قيل انه قد بناه جد بعض قبائلهم. أتدرى كم بين الشحر وعمان وحضرموت وعدن وصنعا والمراق وبين مكة من الاميال، وما طبيعة الارض التي تسير فيها الجمال، والعقبات التي تصادفها في طرقها المتداخلة، والاحطار التي يتعرض لها الناس من المناسر، الكامنة في الكهوف والمغاور، أنكفى والحالة هذه خمسون او مئة سنة لنشر فرية لا أساس لها في شعب جاهلي عنيف قليل الاهتمام بالدين فيصبح افراده في جميع أصقاع البلاد العربية لا فرق بين رجل وامرأة وطفل يعرفون البيت الحرام ويتمنى كل منهم ان يطوف به او يجاوره تاركا اهله وعمله سنين؟

اللهم ان هذا محال، وان قد در لفرية ان تروج في العرب هذا الرواج الكبير فلا بد لها من زمان طويل، ولا تناول الا الطائفة التي يجعل جدها الاعلى بطلا للرواية، اما سوامم ممن لا نافة لهم فيها ولا جمل كلقحطانيين فلا

يقول الدكتور طه حسين: « ان قريشا في هذا العصر كانت ناهضة نهضة تجارية مادية ونهضة دينية وثنية، وهي بحكم هاتين النهضتين كانت تحاول ان توجد في البلاد العربية وحده سياسية وثنية مستقلة تقاوم تدخل الروم والفرس والحبشة

ودياناتهم في البلاد العربية

ونحن نقول : اما ان قريشا كانت قبيل البعثة المحمدية ناهضة نهضة تجارية مادية فما لا دليل عليه . فان آية « لا يلاف قريش لإيلافهم رحلة الشتاء والصيف » لا تدل على شيء اكثر من ان قريشا كانت لها رحلتان رحلة في الصيف الى بلاد الروم ورحلة في الشتاء الى اليمن ولا نظن ان طائفة من الناس يقيمون في مدينة ولا يحتاجون الى اشياء من محمولات ومصنوعات البلاد الخارجية . فاذا كان اسكان العريش ورفع وسيوه والواحات رحلات الى القاهرة لبيع بضائعهم واخذ بدلها ولا يدل ذلك على ان هذه القرى في دور نهضة تجارية ، ولا على وشك تكوين وحدة سياسية ، فلا نظن ان رحاتي اهل مكة تدلان على اكثر مما تدل عليه رحلات اهل هذه القرى والواحات

اما انتداب قريش لتكوين وحدة سياسية وثنية لتخليص البلاد من مطامع الفرس والروم والحبشة فهذا هو الذي تنازع الدكتور طه حسين فيه ونطلب منه الدليل عليه

هل كان لقريش مركز ممتاز بين العرب من ناحية القوى الحربية او المالية او العلمية او الدينية فتحدثها نفسها ارتكابا على شيء من ذلك باحداث امر جليل في جزيرة العرب لم يكن يعلم به سواها

ان كان لها ذلك المركز من اية ناحية كانت فهل من دلائل تاريخية ، او قرائن ظنية تسمح لنا ان نعزو اليها هذا المقصد العظيم ؟

لم يكن لقريش مركز ممتاز من اية ناحية من نواحي المميزات الاجتماعية غير سداقتها للكعبة . وهذه السدانة لم تكن حقا خالصا لها غير متنازع فيه ، فانها ليست القبيلة الوحيدة التي تعزى الي اسماعيل بن ابراهيم فتحتكر هذه الخطة . ولم يكن حق السدانة معتبرا من نصيب واد اسماعيل على وجه عام ايضا . فانه لما تزحمت بنو خزاعة ، وهم يمنيون لا ينتسبون لاسماعيل ، الى الحجاز في نحو القرن الثاني للميلاد تسلطوا على مكة وأقصوا اهلها الاصليين وهم من بني اسماعيل عن سدانة الكعبة فلم تنازعهم العرب في ذلك ، ولم نسمع انه حدث لذلك حدث بين القبائل ، وبقيت

سدانة الكعبة في يد خزاعة الى القرن الخامس حيث قويت كنانة وهي من القبائل
المدانية وتفرعت منها قريش فاتفق ان سيد قريش كان في ذلك العهد قصي بن
كلاب بن مرة فتزوج بابنة صاحب سدانة الكعبة الخزاعي تدرما لورائته فيها . فلما
حضرت حماء الوقة اوصى بسدانة البيت لابنته زوجة قصي . فاعتذرت لابيها عن
احتمال هذا العبء ، فأوصى بها لابن له اسمه المحترش فابتاع قصي هذا المنصب
منه بعرض قليل فشق ذلك على خزاعة وحدثت بسببه حروب بينها وبين
قريش ، ثم تداعوا الى التحكيم فحكم لقصي . فما زالت سدانة الكعبة لقريش حتى
جاء الاسلام

هذا مجمل تاريخ سدانة الكعبة ومنه يرى القارىء ان هذه السدانة لم تكن حقا
صريحا لقريش ولا للقبائل المدانية فان بقاءها في يد اليمنيين بضممة قرون بلا
منازع ، ثم خوف بني خزاعة للمطالبة بها بالسيف يدل على ان المتغلبين كانوا يتداولونها
طلبا للشرف لبس غير

ويدل هذا التاريخ ايضا على ان سدانة الكعبة لم يكن امرها عظيما عند العرب
فان ايضاه صاحبها الخزاعي بها لابنته ثم لابن سفيده له يبيعها بعرض تافه امر فيه نظر .
ولا عبرة بقيام الحرب بين خزاعة وقريش من اجلها فان القبائل العربية كانت
تتناحر لا وهي الاسباب كسبق حصان او عقر ناقة

فان قال قائل ان صحة هذا التاريخ مشكوك فيها قلنا ذلك لا يضيع من قيمة حكمتنا على
تلك السدانة من انها لم تكن ذات خطر عند العرب فانهم هم الذين وضعوا هذا
التاريخ ، ولو كانت هذه الخطة ذات خطر عندهم لما تجارأوا على الحط من قيمتها
بوضع مثل هذه الاسطورة في شانها

ولو كان للسدانة شأن كبير عند العرب لرأبناهم يحترمون قريشا ويمنعونها مكانا
ممتازا بينهم ، ويجعلون لسادتها سدة البيت خطرا عظيما ولكننا رأينا من تاريخهم غير
ذلك ، رأينا ان الحروب كانت تقع بين قريش وغيرها من القبائل على حد سواء .
وقد حضر النبي صلى الله عليه وسلم نفسه حرب الفجار قبل ان يتشرف بالرسالة .
وكان سبب هذه الحرب التي لم تكن الاولى من نوعها ان رجلا اسمه الهراض قتل

عروة بن عتبة سيد هوازن فابت ان تقتل به البراض لانه كان رجلا لا قيمة له .
وطلبت ان تقتل سيدا من قريش . فوقعت الحرب وهزمت كنانة وقريش معا وفي
ذلك يقول خدش بن زهير وهو من هوازن :

ياشدة ماشدونا غير كاذبة على سخينة لولا الليل والحرم
لما رأوا خيلنا تزجي اوائلها آساد غيل حمي اشباطها الأجم
واستقبلوا بضراب لا كفاء له ييدى من العول الا كفال ماكتموا
ولوا سلالا وعظم الخيل لاحقة كما تحب الي اوطانها النعم
ولت بهم كل محضار ملهمة كأنها لقوة بجنبها حزم

ثم تلاقوا في السنة التالية في يوم سهوه يوم شمطة فجمعت كنانة قريشها
وعيد منافها والاحابيش ومن لحق بهم من بني اسد تحت قيادة حرب بن امية
فدارت الدائرة على كنانة وقريش واستحرفهم القتل . وفي ذلك يقول خدش بن
زهير وهو من هوازن:

الم يبلغك ما لقيت قريش وحي بنى كنانة اذ ابروا
دهننا ام باوعر مكفهر فظل لنا بعقوتهم زئير

ثم التقوا للمرة الثالثة في يوم يقال له العباء فانهمت فيه كنانة وقريش ايضا .
ثم تلاقوا في يوم اسمه يوم شرب فانتصرت فيه كنانة وقريش على هوازن . ثم
تصادموا في يوم اسمه يوم الحريرة فهزمت فيه هوازن كنانة وقريشا
فلو كانت لقريش مكانة ممتازة من الوجهة الدينية ، لما اجتراً مجترى على قتالها .
ولو كان لرؤسائها خطر يفوقون به سوامم لما طالبت هوازن بقتل احدهم في نار
قد يقول قائل ، جريا على طريقة التشكك الواجبة في هذه المواطن ، ان هذه
الوقائع والاشعار موضوعة مختلقة ، وضعها الانصار للحط من قيمة القرشيين
تقول يجوز ذلك ، ولا مانع منه ، ولكن الواقع المحسوس الذي لا يمكن التماري
فيه ان قريشا حين تصدها النبي صلى الله عليه وسلم عام فتح مكة لم تجد من ينجدها
من العرب المجاورين لها ودخلها الجيش الفاتح بحركة اشبه بمدورة عسكرية منها
بوقعة حربية ، ولو كانت هذه الهيلة ذات مركز ممتاز بين العرب لتسارع العرب

لانجادهما خفافا وثقالا ولاحتشد حولها عشرات الالوف من المقاتلة يذودون من يريد
اذلالها والاستيلاء على الكعبة التي هي مجتمع اصنامهم وانصابهم ولم يتركوها لجماعى وضم
امام الجيش الفاتح

فلا يمكن ان يقل في هذا الموطن ان العرب كانوا قد خضعت شوكتهم، ومجرت
حميتهم فلم يعودوا يقوون على إنجاد لثلاث يصيبهم من جراء عملهم ما هم في غنى عنه .
لا يمكن ان يقال مثل هذا القول لأن قبيلة هوازن العظيمة المجاورة لمكة ، بعد أن
تم للنبي صلى الله عليه وسلم التغلب على قريش خشيت ان يصيبها مثل ما أصابها
فخشدت رجالها والقت منهم في ساحة الحرب عشرين الفا وقيل ثلاثين الفا وشنت
على المسلمين حربا ضروسا لقي فيها المسلمون شدة عظيمة حتى انكشفوا عن رسول
الله متقهقرين وكاد المتقهقر ينقلب الى هزيمة تامة لولا ان اهل السابقات الحسنة
واسمائتهم في القتال

فلو كان لقريش منزلة ممتازة عند العرب لتسارعت هوارن وغيرها الى امدادها
ولو وجد المسلمون امامهم جيشا عرمرما قد لا يقل عن خمسين الف مقاتل كما هي سنة
البشر قديما وحديثا ، ولا تستعصي على المسلمين فتحها . ولكن الذى حدث ولا سبيل
الى انكاره ان المسلمين لم يصادفوا امامهم فيها الا زعانف لا بصيرة لهم بقودم رجال
لاميزة لهم الا انهم صبروا على الباطل حتى احيط بهم ، ثم تراموا على الاسلام لحماية
حياتهم . لم يؤثر عنهم انهم فعلوا كما يفصل الجماء من الاسماناة في الدفاع والموت في
ساحات القتال ، او اللجأ الى القبائل المجاورة وإثارتها لصد التيار الجارف ، كما فعل
جماعة الترك في العهد الحديث اذ تسللوا الى الاياضول بعد ضياع عاصمتهم . وما زالوا
يتقهقرون أمام المغير الفاتح لا يمكنونه من اصيبهم حتى رأوا الساعة مناسبة لان يحاكموه
الى الحديد والنار فقلوا وقازوا بالحسنين معا الحياة المستقلة والذكرى الخالدة

اما من وجهة القوى الحربية فلم يكن لقريش في اجاهلية ما يجعلها بمنزلة ممتازة
تحدثها معها نفسها بزعامة العرب . يدل على ذلك ضعف مقاومتها للدعوة الاسلامية،
وضعف انتقامها ممن كانوا يترصدون لتجارتها فان القوة التي كانت ترمى بها الى
ساحات الحرب أمام المسلمين لم تردعن المثات عدا

واما من الناحية المالية فلم تك قريش في مثل ثروة المناذرة بالعراق ، ولا
الغساسنة بالشام ولا التبابعة باليمن .

واما من الوجهة العلمية فقد كانت دون كل الاقطار الواقعة تحت سلطان الدول
المستعمرة ناهيك ان النبي صلى الله عليه وسلم بعث ولم يكن في مكة غير رجلين او ثلاثة
يعرفون القراءة والكتابة حتى ساهم القرآن بالاميين فقال تعالى : « هو الذي بعث في
الاميين رسولا منهم »

وبعد، فان قبيلة لا امتياز لها من الوجهة الدينية ، ولا خطر لها من النواحي المالية
والحرية والمامية، على اى سلطان تستند لتولي زمامة العرب ، واحداث وحدة سياسية
وثنية تحرر بها بلادها من الرقعة الاستعمارية ؟

ان التظنى في مثل هذه المسائل الاجتماعية لا قيمة له فكل انسان يستطيع ان
يتخيل الامور على ما يوده ويلائم هواه ، ولكن هنالك امارات وقرائن يمكن الاستدلال
منها على ما يراد الاستدلال عليه ، فان لم توجد هذه الامارات والقرائن كان كل فرض
يمكن ان يقابل بضده

فالدكتور طه حسين يقول ان قريشا هذه كانت في نهضة وانها كانت تحدث
نفسها باقامة دولة مستقلة وثنية تحرر بها البلاد العربية ، فهل هناك امارات وقرائن
تدل على ذلك ؟ هل كانت تبسّث لها دعوة في القبائل القريبة منها والبعيدة عنها ؟
هل احدثت تغييراً ما في شكل سداتها للكعبة ، اودونت كتابا يفصل امورها الدينية،
او سنت للحج والعبادة سننا جديدة ما يؤخذ منه انها تنذرع بالعاطفة الدينية لقضاء
ما ربهما الاجتماعية ؟ هل احدثت نظاما للمبادلات وعملت على ايجاد روابط تجارية
بين القبائل تتوسل بها الى الوصول الى مراميها من وجهة اقتصادية ؟ هل ارسلت بمن
يشير حمية القبائل ويشعل فيها جذوة النعرة القومية تذرعا الى ايجاد وحدة سياسية ؟
هل حاولت ان تقتدى بنظام الحكومات التي كانت ترحل الى بلادها للتجارة
فشرعت في اقامة حكومة مركزية ، واتخذت لمدينتها شرطة، ومحام ، وجيشا كاملا،
تحايل على ان يصبح نواة لهيئة اجتماعية ؟

شيء من هذا لم يكن ، فكيف يمكن ان يدعي انها كانت في حالة نهضة

سياسية وانها كانت ترمى الى آمال بعيدة من تكوين وحدة دينية وثنية مستقلة تحرر
بها البلاد العربية

واكنا ندعي انها كانت في حالة انحلال ادبي واجتماعي وصل بها الى نهاية أدواره
واستدلنا على ذلك بضعف وسائلها في مقاومة الدعوة الاسلامية وبوهن محاولاتها في
الدفاع عن بيئتها الاجتماعية ، وتسارع قاداتها الي اظهار الاسلام ثقافا عند مادمهم
الخطر استبقاء حياتهم الشخصية

يقول الدكتور طه حسين : « ان ورود اسمي ابراهيم واسماعيل في التوراة والقرآن
لا يكفي لاثبات وجودهما التاريخي فضلا عن اثبات هذه القصة التي تحدثنا بهجرة
اسماعيل بن ابراهيم الي مكة ونشأة العرب المستعربة فيها »
ونحن نقول ان قول الدكتور طه حسين ان ورود اسمي ابراهيم واسماعيل في
التوراة والقرآن لا يكفي لاثبات وجودهما التاريخي ، معناه انه لا يمكن اثبات وجودهما
اذا جرى التاريخ على اسلوبه في اثبات وجود الرجال ، وتحقيق الحوادث المعزوة
اليهم ، مستقلا عن نصوص الكتب السماوية . لان التاريخ وسائر العلوم قد أعلنت
استقلالها عن الاديان منذ نحو ثلاثة قرون . فالتاريخ يطلب في اثبات وجود الرجال
أدلة حسية ، وآثارا مادية فوق ما تذكره عنهم الكتب الدينية وبخاصة بالنسبة للافراد
المتغلغلين في القدم كابراهيم واسماعيل . ونحن نرى أن هذا الموقف من العلوم في الاستقلال عن
النصوص الدينية ضروري لها لتستطيع ان تؤدي وظيفتها من التحرير والتحصيل
مطابقة الحرية ، في دائرة العلل الطبيعية . فلا يجوز لحفظة الاديان الصحيحة ان
يكرهوا هذا الاستقلال لها فانها ، بتأدي اليه من نتائج علمية محققة من طرق
مادية محضة تؤيد الدين وتصدقها فتساق النفوس لحبه والاخذ به ، والتأدب بأدبه ،
خلافا لما اذا كانت العلوم تابعة للدين فانها تقع تحت وصايه قاداته اى تحت وصاية
رجال ليسوا من أهلها ، فيرون في كل حركة من حركاتها انحرافا ، وفي كل رأى من
آراء الباحثين فيها تطرفا فيقم التنازع بين الهيئتين فان انتصر رجال العلوم عملوا
على ملاءمة الدين واهله . فتفاديا من هذا التنازع الضار بالاديان والعلوم معا تراضى

الناس على ان يسير كل منهما مستقلا في طريقه
والقول بأن ابراهيم واسماعيل لم يثبت وجودهما تاريخيا ليس معناه ان التاريخ قرر
بأنهما لم يوجدوا ، ولكن معناه انه لا يستطيع اثبات وجودهما اثباتا ينطبق على أسلوبه
الحسي ، وهذا العجز من العلم لا ينفي انها كانا موجودين ، وانها بنيا الكعبة
فنحن نحترم هذا العجز من العلم ، ونشجعه على الاعتراف به ، بل ولا تقبل منه
ان يدعي علم مالا ينطبق أسلوبه عليه ، وادراك مالا تصل وسائله اليه
ولا يسعنا في هذا المقام الا ان نلاحظ على الدكتور طه حسين انه لم يحسن
التعبير عن رأيه في هذه المسئلة فقد كان يستطيع ان يقول مثل ما قلنا فلا
يلومه احد

وبعد فنقول :

اذا لم يكن لدينا الى اليوم آثار محسوسة تدل على ان ابراهيم واسماعيل كانا
موجودين وعلى انها بنيا الكعبة فان المرجحات التاريخية على وجودهما وعلى صحة ما
عُزى اليهما تكاد تضع هذه المسائل في عداد المحسوسات :

(اولها) لا مانع من العقل يمنع من وجود ابراهيم واسماعيل . فان القائلين
بوجودهما لا يزعمون بأنهما كانا مملكين ، او كائنين فذنين ، بل يقولون انهما كانا
رجلين كسائر الرجال يأكلان الطعام ويمشيان في الاسواق . وكل ما عُزى اليهما
من الميزات انهما كانا نبيين يدعوان الناس الى توحيد الله وتنزيهه ، والاخذ بالفضائل ،
وتجنب الرذائل ، مثلهما في ذلك كمثل جميع الانبياء الذين لا سبيل الى انكار وجودهم
التاريخي كوسى وعيسى ومحمد

(ثانيا) انهما مدكوران بالاسم في تاريخ أمة عظيمة هي الامة الاسرائيلية وقد
اعتبر اولها جدا أعلى لتلك الامة وثابتهما احد ابناؤه . فان لم يكن هو جدّها الاعلى
لكان غيره ، فأى مرجح يرجح انه كان غيره ؟

(ثالثها) انه لا يوجد مانع تاريخي ولا جغرافي يمنع من ان يكون ابراهيم نشأ
بالمراق ثم رحل الي فلسطين

(رابعها) انه لا يوجد مانع تاريخي ولا جغرافي يمنع من ان يكون ابراهيم زار

بلاد العرب مرة او مرات وترك فيها ابنا له مع امه لسبب من الاسباب
(خامسها) انه لا يوجد مانع هادى يمنع من ان يكون ابراهيم لما زار بلاد العرب
بنى بمكة بيتا للعبادة سُمي فيما بعد بالكعبة ، وهي حجرة واحدة قليلة الارتفاع مبنية
بالاحجار والطين مناسبة لمباني تلك الجهة ، يقوم بعملها بناء واحد ، وقد تهدمت
مرارا ، وأعيد بناؤها وزيدت مساحتها ، ولم يقل احد بانها كانت معلقة في الهواء
او من الاتساع بحيث تسع الالوف المؤلفة ، ولا انها اقيمت من ذهب وفضة وورصفت
ارضها بالجواهر الكريمة

(سادسها) انه لا يوجد مانع من أي نوع كان يمنع من ان يكون اسماعيل قدشب
وترعرع في مكة ولما بلغ مبلغ الرجال تزوج امرأة من قبيلة كانت هناك تسمى بنى
جُرهم وانه رزق منها بأولاد

(سابعها) انه لا يوجد مانع يحمل العرب على انتحال جد اجني عنهم وهم من
أشد العرب نفرا بخلوص عربيتهم . ولم يُنحل اسماعيل من المميزات الادبية والمادية
ما يجعل الاتساب اليه من المفاخر التالدة ، ولم ينقل عن العرب في الجاهلية انهم
كانوا يفخرون بانتسابهم الي اسماعيل . وقد فضلوا ان يتلقبوا بالعدنانية نسبة الى واحد
من أجداهم (عدنان) عن ان يتلقبوا بالاسماعيلية جدم الاعلى

كل هذه المرجحات ترجع ان ابراهيم واسماعيل كانا موجودين وان الثاني منهما
شب وترعرع ببلاد العرب وتزوج منهم وامتاز نسله عن العرب الدحطانية باسم
العرب العدنانية

ولو حذفنا من التاريخ كل شخص لم ترد على وجوده أدلة حسية ، وآثار مادية
لحذفنا اكثر رجاله المشهورين ولم يبق منهم الا اسماء معدودة

على ان اجماع امة برمتها كاليهودية على تسمية نفسها بالاسرائيلية نسبة الى
اسرائيل وهو يعقوب بن ابراهيم من منذ وجودها ، واجماع امة اخرى وهي العربية
على اعتبار بعضها من ذرية اسماعيل مما لا يصح ان يقابل بالتحفظ الا
اذا وجدت قرائن تدل على غير ذلك . وقد رأيت ان القرائن كلها ترجع
صحة ذلك

اما لقول بأن قصة اسماعيل حيلة دبرها اليهود ليستعطفوا قلوب العرب عليهم
فمبالايسينه العقل للاسباب التي ذكرناها في محلها من الصحف التي سلفت . وقول
هنا زيادة على ماتقدم انه اذا كان للعدنا نية مصلحة في قبول هذه الحيلة فهل للعرب
القحطانية من مصلحة في مشايعتها على هذه الطريقة؟

هـ

الشعر الجاهلي واللهجات

قال الدكتور طه حسين في فصله الخامس تحت العنوان المتقدم ماملخصه :
(الرواة مجمعون على ان قبائل العدنانية لم تكن متحدة اللغة ولا متفقة اللهجة)
(قبل ان يظهر الاسلام ولكننا لانرى شيئا من ذلك في الشعر الجاهلي . فترى)
(مطولات امرئ القيس وزهير وعنترة وليد ليس بينها اختلاف في اللهجة او)
(تباعد في اللغة او تباين في مذهب الكلام . فنحن بين اثنين اما ان نؤمن بأنه لم)
(يكن هناك اختلاف بين القبائل العربية من عدنان وقحطان في اللغة ولا في اللهجة)
(ولا في المذهب الكلامي ، واما ان نعترف بأن هذا الشعر لم يصدر عن هذه القبائل)
(وانما حمل عليها حملا بعد الاسلام)

راينا في هذا الكلام

نقول اننا نعجب كما يعجب الدكتور طه حسين من ورود الشعر الجاهلي كله بلغة
قريش مع تباين لهجات القبائل ومع اختلافها في قراءة القرآن نفسه . وقد بقي
هذا التباين في الاسلام بضع قرون . ولكن يدعشنا ان يغفل عن ذلك كبار رواة
اللغة والشعر فلا يلحظون هذا الامر مع انه من البدهيات

ومما يزيد هذه المسئلة تعقيدا ان هذه الملاحظة الحقبة تقضى علينا بان نحكم
بأنه لا يوجد شعر جاهلي غير قرشي اصلا فيما كان يروى من الشعر المنسوب للعرب وهو
بعيد عن العقل. فهذه المسئلة تقتضى كما يقول الدكتور طه حسين بحثا جديا في فراغ
من البال ولعله يوفق اليه



الكتاب الثاني

اسباب افتحال الشعر

١

ليس الانتحال مقصورا على العرب

قال الدكتور طه حسين تحت هذا العنوان ماملخصه:

- (يجب ان يتعود الباحث درس الامم القديمة التي قدر لها ان تقوم بشيء من)
(جلائل الاعمال ، وما اعترض حياتها من الصعاب ، ليفهم تاريخ الامة العربية على)
(وجهه ، ويرد كل شيء الى اصله)
(والذين كتبوا في تاريخ هذه الامة انما نظروا اليها كأنها أمة فذة لم تعرف)
(احدا ولم يعرفها احد ، لم تشبه احدا ولم يشبهها احد ، لم تؤثر في احد ولم يؤثر)
(فيها احد ، قبل قيام الحضارة العربية وانبساط سلطانها على العالم القديم)
(والحق انهم لو درسوا تاريخ هذه الامم القديمة وقارنوا بينه وبين تاريخ العرب)
(لتغير رأيهم في الامة العربية ، ولتغير بذلك تاريخ العرب أنفسهم)
(لقد كان شأن الامة العربية كشأن اليونان والرومان تحضرت كما تحضروا)
(بعد بداوة ، وتأثرت كما تأثروا بصروف سياسية مختلفة ، وتجاوزت)
(حدودها الطبيعية كما تجاوزوا ، وتركت كما تركوا تراثا قويا خالدا فيه أدب)
(وعلم ودين)
(وفي الحق ان التفكير الهاديء في حياة هذه الامم اثلاث ينتهي بنا الى نتائج)
(متشابهة ان لم نقل متحدة ، وقد أثرت فيه مؤثرات واحدة او متقاربة فانتهت)
(الى نتائج واحدة او متقاربة)

(نريد من هذا ان نقول ان هذه الظاهرة الادبسية التي نريد ان ندرسها في
(هذا الكتاب ، والتي يجرع لها انصار القديم جزءا شديدا ، وهي انتقال الشعر)
(ليست مقصورة على الامة العربية وانما تتجاوزها الي غيرها من الامم القديمة)
(ولا سيما اليونانية والرومانية . وقد انخدع الناس بما حمل على قدامتها من الشعرحتي)
(كان العصر الحديث واستطاع النقاد ان يردوا الاشياء الى اصولها ما استطاعوا الي)
(ذلك سبيلا . ومنشأ هذه الحركة النقدية انما هو تاثير الباحثين بمذهب ديكارت)
(الفلسفي . وانتشار العلم الغربي في مصر سيقضى بأن يصبح عقلنا غربيا وأن)
(ندرس آداب العرب وتاريخهم متأثرين بمنهج ديكارت)

(ولقد احب أن تلم الماما قليلا بأبي كتاب من الكتب الكثيرة التي تنشر الآن)
(في اوروبا في تاريخ الآداب اليونانية او اللاتينية ، وان تسأل نفسك بعد هذا)
(الامام ماذا بقي مما كان يعتقد القدماء في تاريخ الآداب عند اليونان والرومان ؟)
(ولكنك لا تكاد تجد شيئا من الفرق بين ما كان يتحدث به اسحاق ويرويه)
(الطبري من تاريخ العرب وآدابهم ، وما يكتبه المؤرخون والادباء عن العرب في)
(هذا العصر . ذلك لان الكثرة من هؤلاء المؤرخين والادباء لم تتأثر بعد بهذا)
(المنهج الحديث ولم تستطع بعد ان تؤمن بشخصيتها ، وان تخلص هذه الشخصية)
(من الاوهام والاساطير)

(واذا كان قد قدر لهذا الكتاب أن لا يرضي الكثرة من هؤلاء الكتاب والمؤرخين)
(فنحن واثقون بأن ذلك لن يقلل من تاثيره في هذا الجيل الناشئ . فالاستقبال لمنهج)
(ديكارت لا المناهج القدماء)

رأينا في هذا الكلام

يقول الدكتور طه حسين : « ان الذين كتبوا في تاريخ العرب انما نظروا اليها

كأنها أمة فذة لم تعرف احدا ولم يعرفها احد ، والحقيقة هو ان الأمة العربية كسائر الامم القديمة تأثرت كما تأثروا بصروف سياسية مختلفة وتجاوزت حدودها الطبيعية كما تجاوزوا الخ

وانا لا ندري هل يقصد الدكتور بهذا القول الذين تكلموا في تاريخ العرب قبل الاسلام او بعده . فاما تاريخها بعد الاسلام فكل الذين كتبوا فيه لم ينظروا اليها كأمة فذة، لم تعرف احدا ولم يعرفها احد ، بل أجمعوا بانها تحضرت بعد بداوة ، وتأثرت بالمؤثرات المختلفة وأثرت في غيرها ، وتجاوزت حدودها الطبيعية ففتحت سورية وشمال افريقيا وفارس وما وراء النهر الى حدود الصين ، وفتحت من اوروبا اسبانيا والبرتغال وجزءا من فرنسا الى نهر اللوار ، وأفاضوا فيما تأثرت به من العوامل السياسية والاجتماعية والعلمية ، وفيما أحدثته من الآثار في الامم مما يملأ أسفارا ضخمة .

وان كان يقصد الدكتور الذين تكلموا في تاريخ العرب قبل الاسلام فان مؤرخي العرب انفسهم ذكروا عن تحضرها ومدنيتها امورا تكاد تكون خيالية حتى قالوا ان ارم ذات العباد كانت مبنية بالذهب والفضة ولمدينتها سور مرصع بصفايح الذهب الخ الخ

وذكروا عن مملكة تدمر العربية ان سلطانها امتد في عهد ملكتها الزباء الى مصر والشام والعراق وما بين النهرين وآسيا الصغرى الى اقرة وذكروا ان سعدا ابا كرب ملك الين غزا اذر بيجان وهزم الترك والروم والفرس وجاز الصين وغنم منها مغانم شتى ، وضرب ابنه يعفر الجزية على القسطنطينية ثم سار الى رومية وحاصرها

وقال ابن خلدون عن جهينة ويلي من بطون بني قضاة ان منازلهم كانت بين ينبع ويثرب ومصر وعلى شواطئ البحر الاحمر ، وانهم فتحوا مصر وبلاد الحبشة والنوبة ومكثوا في هذه البلاد اجيال الخ الخ

ولو اردنا ان نسرده ما كتبه مؤرخو العرب في هذا الصدد لملائنا منه صحفا . ف لذين كتبوا في تاريخ الامة العربية قديما وحديثا عن الجاهلية والاسلام لم ينظروا

اليها كأنها أمة فذة لم تعرف أحدا ولم يعرفها أحد بل نظروا اليها نظرم الى كل أمة
تحضرت بعد بدائة واختلطت بالامم وأثرت فيهم وأثروا فيها

يقول الدكتور طه حسين : « وانتشار العلم الغربي في مصر سيقضي بان يصبح
عقلنا غربيا وأن ندرس تاريخ العرب وآدابهم متأثرين بمنهج ديكرت »

نقول اننا لانظن انه يوجد عقل شرقي وعقل غربي ، وانما نعتقد انه يوجد علم
وجهل . وهذا العقل الغربي حينما كان الجهل مخبأ على اوروبا لم ينف عن اهلها شيئا .
فكانت الشعوب تباع مع اراضيها ، وكان كل مجتمع منها منقسما الى طبقات بعضها
يستغل البعض الآخر ، ويسخره لشهواته ، وكان كل من يتجارى على البحث في
شيء من العلم والفلسفة بل على طلب الفهم في الدين يلقى في تنور مسجور . وكان
العقل الشرقي اذ ذاك يكشف المساتير للباحثين ، وينير انيابه للسالكين ، ويبني
العلم والفلسفة والسياسة على أساس متين ، ويقدم أركان العدل والمساواة والحرية بين
الناس اجمعين

فالعقل لاشرقى ولا غربي وانما هوة قوة إن تولاه العلم أداها الى عليين ، وان
قادها الجهل ساقها الى أسفل سافلين

السياسة وانتحال الشعر

قال الدكتور طه حسين في الفصل الثاني من الكتاب الثاني مملخصه :

- (قلت ان العرب قد خضعوا لمثل ماخضعت له الامم القديمة من المؤثرات التي)
- (دعت الي انتحال الشعر والاخبار . والمؤثر الذي طبع الامة العربية بطابع لا يمحى)
- (مؤلف من عنصرين قوين جدا هما الدين والسياسة . ولا سبيل الى فهم التاريخ)
- (الاسلامي الا اذا وضحت مسألة الدين والسياسة توضيحا كافيا . فان العرب لم)
- (يستطيعوا ان يخلصوا منذ ظهر الاسلام من هذين المؤثرين في لحظة من لحظات)

(حياتهم في القرنين الاول والثاني)

- (هم مسلمون ظهروا على العالم بالاسلام فهم محتاجون ان يتميزوا به ويجدوا في)
 (اتصا لهم به ما يضمن لهم هذا الظهور وهذا السلطان . وهم في الوقت نفسه اهل)
 (عصبية ، واصحاب مطامع ومنافع ، فهم مضطرون الي ان يراعوا هذه العصبية)
 (ويلائموا بينها وبين منافعهم ومطامعهم ودينهم)
 (واذا كانت حياتهم متأثرة تاثيرا متصلا بالدين والسياسة وجادة في الاستفادة)
 (منها جميعا نخلق بالمؤرخ السياسي او الادبي او الاجتماعي ان يحمل مسألة الدين)
 (والسياسة عند العرب أساسا لبحثه)
 (واول ما يجب ان نلاحظه هو الجهاد العنيف الذي اتصل بين النبي واصحابه)
 (من ناحية ، وبين قريش واوليائها من ناحية اخرى)
 (في اول ظهور الاسلام كان هذا الجهاد جدليا خالصا . وكان النبي يجادلهم)
 (بالقرآن فيفهمهم فيزداد عدد اتباعه حتى تكون له حزب . ولكنه لم يكن حزبا)
 (سياسيا ذا خطر ولم يطمع في ملك ولا تغلب . وكان كلما قوى هذا الحزب)
 (اشتدت مناضلة قريش له حتى اضطره للهجرة الاولى ثم الهجرة الثانية)
 (هذه الهجرة وضعت الخلاف بين النبي وقريش وضما جديدا فجملت الخلاف)
 (سياسيا يعتمد في حله على السيف بعد ان كان يعتمد على الجدل)
 (أحست قريش ان الامر تجاوز الاوثان والآراء الموروثة الي السيادة السياسية)
 (في الحجاز ، والطرق التجارية بين مكة وبين البلاد التي كانت ترحل اليها ، فاصبح)
 (موضوع النزاع ليس مقصورا على ان الاسلام حق او غير حق ، بل صار يتناول)
 (الامة العربية او الحجازية لمن تدعن ، والطرق التجارية لمن تخضع . وهذا أدى الي)
 (نشوء عداوة بين قريش واهل المدينة « الاوس والخزرج » وكانت علاقاهم ودية)
 (قبل الاسلام . واصطبغت هذه العداوة بالدم يوم انتصر الانصار على قريش في)
 (بدر ويوم انتصرت قريش في احد واشترك الشعر في هذه العداوة مع السيف)
 (فوقف شعراء قريش وشعراء الانصار يتهاجون . وكان النبي يحرص شعراءه)
 (ويعدم بالاجر عند الله كما يعد المقاتلين)

(مضت قريش في جهادها وأمانها من أمانها من العرب واليهود ولكنها لم)
 (توفق. وامست ذات يوم واذا خيل النبي قد اظلت مكة. فنظر زعيمها وحازمها ابو)
 (سفيان فرأى الحزم في ان يصالح ويصالح ويدخل فيما دخل فيه الناس لعل هذا)
 (السلطان السياسي الذي انتقل من مكة الى المدينة ومن قريش الى الانصار ان)
 (يعود الى قريش والى مكة مرة اخرى . فأسلم ابو سفيان وامست قريش واصبح)
 (الناس جميعا في ظاهر الامر اخوانا)

(ولعل النبي لو عمر بعد فتح مكة زمنا طويلا لاستطاع ان يمحو تلك الضغائن .)
 (ولكنه توفي ولم يضع قاعدة للخلافة ولا دستوراً لهذه الامة التي جمعها بعد فرقة فاي)
 (غرابة في ان تعود هذه الضغائن الى الظهور)

(فلم يكذب النبي يدع هذه الدنيا حتى اختلف المهاجرون والانصار في الخلافة)
 (اين تكون ولمن تكون وكاد الامر يفسد بين الفريقين لولا بقية من دين، وحزم نفر)
 (من قريش ولولا ان القوة المادية كانت اذ ذاك الى قريش . فاذعنت الانصار)
 (وانصرفت قوة الجميع الى ما كان من انتقاض العرب على المسلمين ايام ابي بكر)
 (والى ما كان من الفتوح ايام عمر . ولكن المقيمين من اولئك وهؤلاء في مكة والمدينة)
 (لم يكونوا يستطيعون ان ينسوا تلك الخسومة العنيفة التي كانت بينهم ايام النبي ولا)
 (تلك الدماء التي سفكت في الغزوات)

(وقد حال حزم عمر بين قريش والانصار وبين الفتنة . فقد نهي عن رواية)
 (الشعر الذي تهاجي به المسلمون والمشركون امام النبي . وهذه تثبت رواية اخري)
 (وهي ان قريشا والانصار تذاكروا ما كان قد هجا به بعضهم بعضا ايام النبي وكانوا)
 (حراسا على روايته يجردون في ذلك من اللذة والشهامة مالا يشعر به الا صاحب)
 (العصبية القوية)

(وقد ذكر الرواة ان عمر مر ذات يوم فاذا حسان في نفر من المسلمين ينشدون)
 (في المسجد فاخذ باذنه وقال أرغاء، كرها، البعير؟ قال حسان اليك عنى يا عمر فوالله)
 (لقد كنت انشد في هذا المكان من هو خير منك فيرصى . فمضى عمر وتركه. وفقه)
 (هذه الرواية يسير لمن يلاحظ ان الانصار كانوا موتورين فكانوا يتعزبون)

(بنصرهم للنبي واتصافهم من قريش قبل موت النبي . وعمر قرشي تكره عصبية ان)
 (تزدري قريش ، وكان فوق هذا اميرا حازما يريد ان يؤسس ملك المسلمين على شيء)
 (غير العصبية فلم يظفر بكل ما يريد)

(وتحدث الرواة ان عبد الله بن الزبيرى وضرار بن الخطاب قدما المدينة ايام)
 (عمر فذهبا الي ابي احمد بن جحش وطلبا اليه ان يحضر حسانا ليناشداه الشعر . فلما)
 (جاء حسان اخذا ينشدانه مما قالت قريش في الانصار حتي استشاط . ولما فرغا)
 (تركاه ومضيا الى مكة . فذهب حسان الى عمرو وقص عليه الخبر . فأرسل عمر من)
 (ردهما . فلما مثلا بين يديه قال لحسان أنشدهما ماشئت . فأشدهما حتي اشتفى .)
 (وقال عمر بعد ذلك قد كنت نهيتكم عن رواية هذا الشعر لانه يوقظ الضغائن فاما)
 (اذا ابوا فاكتبوه)

(قال ابن سلام : نظرت قريش فاذا حظها من الشعر قليل في الجاهلية فامتكرت)
 (منه الاسلام . وليس من شك عندي في انها استكرت من هذا الشعر الذي يهجي)
 (فيه الانصار)

(ولما تولى عثمان تقدمت الفكرة السياسية التي كانت تشغل ابا سفيان خطوة)
 (اخرى . فلم تصبح الخلافة في قريش فحسب . بل اصبحت في بني امية خاصة .)
 (واشتدت عصبية قريش ، واشتدت عصبية الامويين ، واشتدت العصبيات)
 (الاخرى بين العرب . وهدأت حركة الفتح واخذ العرب يفرغ بعضهم لبعض .)
 (وكان من نتائج ذلك ما تعلم من قتل عثمان ، وافتراق المسلمين ، وانتهاء الامر كله)
 (الى بني امية)

(في ذلك الوقت نشلت الخطة التي كان يخططها عمر ، وهي منع العرب ان)
 (يتذاكروا ما كان بينهم من الضغائن قبل الاسلام . وطاد العرب الي شر مما كانوا فيه)
 (من التنافس في جميع الامصار الاسلامية . ويكفي ان اقص عليك ما كان من)
 (تنافس الشعراء من الانصار وغيرهم عند معاوية ويزيد ابنه)

(لملك قرأت ان عبد الرحمن بن حسان شهب برملة بنت معاوية فاصطنع معاوية)
 (الحلم وقال له اين انت من اختها هند . واما يزيد فكان صورة نجهه ابي سفيان .)

(كان رجل عصبية وقوة وفتك وسيخط على الاسلام وما سـنه للناس من سنن .)
 (فاغرى كعب بن جعبل بهجاء الانصار فاستعفاه وقال اتريد ان تردني كافرا)
 (بعد اسلام ؟ فاغري الاخطل وكان نصرانيا فاجابه وهجا الانصار)
 (ويزيد هذا هو صاحب وقعة الحرة التي انتهكت فيها حرمة الانصار في)
 (المدينة والتي انتقلت فيها قريش من الذين انتصروا عليها في بدر والتي لم تقم)
 (للانصار بعدها قائمة . ويقول الرواة انه قتل فيها ثمانون من الذين شهدوا بدر اى)
 (من الذين اذلوا قريشا)
 (وقد طلب عمرو بن العاص من معاوية ان يحواسم الانصار . فقال الانصارى)
 (الوحيد الذى شايع بنى امية وهو النعمان بن بشير :)
 (ياسعد لا تجب الدماء فلما لنا نسب نجيب به سوى الانصار)
 (نسب تخيره الاله لقومنا أثقل به نسبا على الكفار)
 (ان الذين ثوروا ببدر منكم يوم القليب هم وقود النار)
 (فسمع معاوية هذا الشعر ولام عمرا على تسرعه ليس غير . وكان اصحاب)
 (العصبية القرشية يتفاوتون تفاوتا شديدا فكان منهم المسرف كيزيد ، والمقتصد)
 (كماوية . ومنهم من يتجاوز الاقتصاد الى العطف على الانصار والرثاء لهم كالكثير)
 (ابن العوام . فقد روى انه مر بنظر من المسلمين فاذا فيهم حسان ينشدهم وهم)
 (غير حافلين بما يقول فلامهم وذكر موقع حسان من النبي . فقال حسان يمدحه ،)
 (واحب ان تبتنت الى اول هذا الشعر فهو حسن الدلالة على ما اريد ان اثبته)
 (من دخول الحزن على نفوس الانصار لهذا الموقف الجديد الذى وقفته منهم)
 (قريش :)

(اقام على هدى النبي وهديه حوار به والقول بالفعل يعدل)

(اقام على منهاجه وطريقه يوالى ولى الحق والحق اعدل)

(هو الفارس المشهور والبطل الذى يصول اذا ما كان يوم محجل)

الخ الخ

(فانظر الى هذين البيتين في اول المقطوعة كيف يمثلان ذكر حسان لمهد)

(النبي وحزنه عليه وأسفه على ما فات الانصار من موالاة النبي لهم)
(وانصافه ايام)

(وقد ذكرت لك ما كان من هجاء الاخطل للانصار . فقييل ان النعمان بن)
(بشير غضب لهذا الهجاء وانشد بين يدي معاوية ابياتا زويها لك فستري فيها)
(مثل ما رأيت في أبيات حسان من أثر هذه العصبية التي تضيف الي الشعراء ما لم)
(يقولوا . فقال النعمان بن بشير لمعاوية :)

(معاوى ان لاتعطنا الحق تعترف لِحَيِّ الازد مشدود عليها العائم)
(أيشتهنا عبد الارقم ضيلة وماذا الذى تجدى عليك الارقم)
(فما لي نأر دون قطع لسانه فدونك من رضيه عنك الدرهم)
(وراع رويدا لانسمنا دنية لعلك في غير الحوادث نادم)
(متي تلق منا عصبية خزرجية او الاوس يوما تخترمك المخارم)
(وتلقاك خيل كالفطامستطيرة شاطيط ارسال عليها الشكائم)
الى ان قال :

(فما انت والامر الذى لست اهله وانكن ولي الحق والامر هاشم)
(اليهم يصير الامر بعد شتاته فمن لك بالامر الذى هو لازم)
(فانت ترى الي اى حد كانت العصبية قد انتهت بقريش والانصار، وانت)
(ترى تأثيرها في الشعر والشعراء ، وانت ترى من هذين الاستطرادين كيف استغلت)
(العصبية الزبيرة والهاشمية شعر حسان وشعر النعمان بن بشير لناهضة خصومها .)
(ولا اريد ان ادع هذه العصبية دون ان اذكر ما كان بين عبد الرحمن بن حسان وعبد)
(الرحمن بن الحكم اخي الخليفة مروان من هذا النضال العنيف الذى لم يبق لنا منه)
(الا آثار ضئيلة)

(كان الانصار يتحدثون ان هذين الرجلين كانا صديقين وكان عبد الرحمن بن)
(حسان يحب امرأة صاحبه القرشي فبلغ ذلك صاحبه فراسل امرأه عبد الرحمن)
(ابن حسان وانبات هذه زوجها فاحتال حتى حمل امرأة صاحبه على ان تزوره في بيته)
(واخفاها في احدى الحجور . واحتالت امرأته حتى حملت القرشي على ان يزورها)

(فلما استقر به المقام عندها أقبل زوجها فارادت ان تخفيه فادخلته في احدي)
 (الحجر فاذا هو يرى امرأته . ففسد الامر بين الصديقين . واما قریش فكانت)
 (تروي القصة نفسها ولكنها تعكسها وتظهر صاحبها مظهر الوفي لصديقه فلا يجيب)
 (على رسائل امرأته رعاية لحرمة الصديق)

(وقد تجاوز الامر هذين الشاعرين فاستعان القرشي بشعراء من مضر وربيعة)
 (ثم انتهى الامر الى معاوية فأرسل الي واليه على المدينة سعيد بن العاص بان)
 (يضرب كلا من الشاعرين مئة سوط . وكان سعيد عطوفا على الانصار . وكانت)
 (بين سعيد وعبد الرحمن بن حسان مودة فكره ان يضرب به فعطل امر معاوية . فلما)
 (خلفه على ولاية المدينة مروان بن الحكم ضرب عبد الرحمن بن حسان مائة سوط ،)
 (فكتب للنعمان بن بشير بدمشق شعراء ، فدخل هذا على معاوية وذكر له ان سعيدا)
 (عطل امره وأن مروان اتقذه في الانصارى وحده . فامر معاوية مروان ان)
 (يضرب اخاه فضر به خمسين سوطا واستعفى عبد الرحمن بن حسان في الباقي فعفا .)
 (ولكنه اخذ يذبح في المدينة ان مروان قد ضربه حد الحر مئة سوط وضرب)
 (اخاه حد العبد خمسين . فشقت هذه المقالة على عبد الرحمن بن الحكم وطلب الى)
 (أخيه ان يتم عليه المئة ففعل)

(ولقد يستطيع الكاتب السياسي ان يضع كتابا خاصا ضمخا في هذه العصبية)
 (بين قریش والانصار وما كان لها من التأثير في حياة المسلمين ايام نبي امية ، لا نقول)
 (في المدينة ومكة ودمشق بل نقول في مصر وافرقييا والاندلس . ويستطيع)
 (الكاتب في تاريخ الادب ان يضم سفرا مستقلا فيما كان لهذه العصبية بين)
 (قریش والانصار من التأثير في شعر الفرقيين الذي قالوه في الاسلام ، وفي الشعر)
 (الذي انتحله الفرقيان على شعرائهم في الجاهلية . وقد تجاوزت العصبية هؤلاء)
 (الي العرب كافة . فتعصب العدنانية على اليمانية ، وتعصبت مضر على بقية عدنان)
 (وتعصبت ربيعة على مضر ، وانقسمت مضر نفسها فكانت فيها العصبية القيسية)
 (والتميمية والقرشية . وانقسمت ربيعة فكانت فيها عصبية تغلب وعصبية بكر .)
 (وقل مثل ذلك في اليمن فقد كانت الازد عصبيتها ولحمير عصبيتها ولقضاة عصبيتها)

- (وكانت هذه العصبية تشعب وتتفرع وتشكل بأشكال الظروف السياسية)
 (والاقليمية التي تحيط بها . فلها شكل في الشام وآخر في العراق وثالث في خراسان)
 (ورابع في الاندلس . وانت تعلم حق العلم ان هذه العصبية هي التي ازلت سلطان)
 (بنى امية لانهم عدلوا عن سياسة النبي التي تريد نحو العصبية وارايدوا ان يعتزوا)
 (بفريق من العرب على فريق . قووا العصبية ثم عجزوا عن ضبطها فادالت منهم بل)
 (ادالت من العرب للفرس)
 (واذا كان هذا تاثير العصبية في الحياة السياسية فانت تستطيع ان تتصور)
 (هذه القبائل العربية في هذا الجهاد السياسي العنيف تحرص كل واحدة منها على)
 (ان يكون قديمها في الجاهلية خير قديم . وقد ارادت الظروف ان يضيف الشعر)
 (الجاهلي لأن العرب لم تكن تكتب شعرها بعد . فلما كان ما كان من حروب الردة ثم)
 (الفتوح ثم الفتن قتل من الرواة والحفاظ خلق كثير . ثم اطمانت العرب في الامصار)
 (ايام بنى امية وراجعت شعرها فاذا اكثره قد ضاع ، واذا اقله قد بقي ، وهي في)
 (حاجة الى الشعر تقدمه وقودا لهذه العصبية المضطربة فاستكثرت من الشعر ونحلتها)
 (شعراءها القدماء)
 (وقد كان القدماء يحسون كما نحس ان هذا الشعر الذي يضاف الى الجاهليين)
 (اكثره منحول ولكن منا هجهم في النقد كانت اضعف من منا هجنا فكانوا يبدؤون)
 (ثم يقصرون عن الغاية)
 (وهما يكن من شيء فان هذا الفصل ينتهي بنا الى نتيجة نعتقد انها لا تقبل)
 (الشك وهي ان العصبية وما يتصل بها من المنافع السياسية قد كانت اهم الاسباب)
 (التي حملت العرب على انتقال الشعر و اضافته الى الجاهليين وقد رأيت ان القدماء قد)
 (سبقونا الى هذه النتيجة)

رأينا في هذا الكلام

قال الدكتور طه حسين : « المؤثر الذي طبع الامة العربية بطابع لا يعي مؤلف

من عنصريين قويين جدا هما الدين والسياسة . ولا سبيل الى فهم التاريخ الاسلامي الا اذا وضّحت مسألة الدين والسياسة توضيحا كافيا . فان العرب لم يستطيعوا ان يخلصوا منذ ظهر الاسلام من هذين المؤثرين في لحظة من لحظات حياتهم في القرن الاول والثاني »

ونحن نقول : لم يكن العرب بدعا من الامم في الاشتغال بالدين والسياسة فليس في العالم أمة قديمة او حديثة لم يعمل هذان المؤثران في حياتها عملا مستمرا . فالدين يستغرق جميع ميولها الادبية ، وصراميتها المعنوية ، ومثلها العليا ، والسياسة تستوعب جميع جهودها للبقاء حرة مستقلة ، وكل مساعيها لاقامة حكومة منتظمة قوية . فأى أمة من الامم القديمة والحديثة عرضت على عقلك أمورها فلا تجدها تخلو عن التأثير بهذين المؤثرين الا ما يُعرف عن بعض الامم الاوربية منذ نحو قرن قاما بدأت تدفع تأثير الدين عنها . والمراد بالدين هنا رجاله والقائمون عليه ، لا الدين نفسه ، فالنفوس والعقول لا تزال في شغل شاغل به تقيا واثباتا ، بحثا وتمحيصا . ناهيك ان في اوروبا وامريكا اليوم اكثر من ثلاث مئة مجلة تبحث في الروح وخصائصها وخلقها

وقد تحفظنا فقلنا (الا ما يُعرف عن بعض الامم الاوربية) ذلك لان كثيرا منها لا يزال المؤثر الديني فيها على أشد ما يكون . فهذه ايرلندة كادت تهلك منذ سنتين من جراء النزاع الديني بين بروتستانت اولستروكانوليك بقية الجزيرة فيما يتعلق بتبعيتها او عدم تبعيتها للدولة الانجليزية . وهذا المؤثر الديني لا يزال حيا في البلاد البلقانية ، وفي مكسيكا وامريكا مشكلة دينية بين البروتستانت والكاثوليك كادت توقعها في حرب مع الولايات المتحدة

اما المؤثر السياسي فلا اريد ان احديثك عنه بشيء فأنت خبير بأنه قد استوعب جهود الجماعات والافراد منذ عرف الاجتماع ، ولا يزال يستوعبها ما دام الاجتماع والنظام العالمي قائما . وهو اليوم على أشد ما يكون بنسبة انتشار الديمقراطية . فقد جاوز رجال السياسة الأعلام الى سائر الافراد ، ونظامهم الى طلاب المدارس ، ووصية المكاتب ، وأغلبية الأزقة . واخترق كل هذه الطبقات الى فلاحات الحقول ،

وخدمات الدور

فاذا كان الاسلام قد اوقع العرب منذ ظهر تحت تاثير هذين المؤثرين ، الدين والسياسة ، فيكون معنى ذلك انه نقلهم الي الطريق التي تقوم عليها الامم المتمدنية ، وتقادى بالجرى عليها الى كمالها المقدر لها كما هو مشاهد ، بعد ان كان لاشغل لهم الا التناهب والتناحر ، وقصر الجهود على السفاسف والصغائر . وثمره هذا الانتقال ظهرت حتى بهرت الانظار . فقد كانوا قبل الاسلام خاضعين للامم الاستعمارية ، او هائمين على وجوههم في القفار على حالة بدوية . فلما نقلهم الاسلام الي هذه الطريق ، طريق الشغل بالدين والسياسة اجتمعوا بعد فرقة ، وأثروا بعد فاقة ، وامتد سلطانهم على اكثر المعمور ، واصبحوا دولة آلت اليها خلافة الله في الارض

يقول الدكتور طه حسين : « ان العرب لم يستطيعوا ان يخلصوا منذ ظهر الاسلام من هذين المؤثرين في لحظة من لحظات حياتهم في القرن الاول والثاني »
ونحن نقول : بل لم يستطيعوا ان يخلصوا منها الى اليوم ، ولن يخلصوا منها ما دامت للروح حاجة فيما وراء المحسوسات ، وما دامت بهم حاجة الى حكومة حكيمة تدبر امورهم ، والي مكان يشغلونه بين الامم

ولست ارى ان تاثير المسلمين بهذين المؤثرين في القرنين الاول والثاني كان أشد من تاثيرهم بهما في القرون التي تلتها فان نشوء الفرق الاسلامية التي أربت على السبعين ، وتنازُعها في فهم الدين ، وتنافسها في اجتذاب المشايخين ، وقع اكثره في القرن الثالث وما بعده . وظهور الفتن الخاصة بالخلافة والخلفاء ، وتغلب الفرس والديلم والترك المسلمين على اكثر الممالك الاسلامية ، وتجاوزهم اطرافها بالايدي المسلحة والجيوش الجرارة ، وقيام الدول وسقوطها بين عشية وضحاها ، وما اقتضاه كل ذلك بين المسلمين من الاشتغال بالدين والسياسة ، حصل كله في القرن الثالث وما يليه

فاما ان المسلمين كانوا يعتزون بدينهم وهم في الوقت نفسه اهل عصبية وأصحاب مطامع ، وكانت حياتهم متصلة بالدين والسياسة ، وان المؤرخ السياسي او الادبي او الاجتماعي يجب ان يجعل الدين والسياسة اساسا لبحثه في احوال العرب ، فهذه

الخصال كانت لجميع شعوب العالم . فاليهود قد ظهروا باليهودية واعتزوا بها ، واتصلت حياتهم بحياتها اتصالا وثيقا ، وما خرجوا من مصر وتاهوا في شبه جزيرة طور سيناء ، وفتحوا فلسطين ، وتنقلوا في ادوار الاجتماع تحت حكم القضاة ثم الملوك الا تحت تأثير الدين والسياسة . وما اصابهم ما اصابهم من التشتت والتفرق في الارض ، وما لقوه من الاضطهاد الشنيع والمذابح المنكرة الا بسبب دينهم وسياستهم . فالاسرائيليون يعتبرون من هذه الوجة مثلا يضرب في هذا الموطن

والمسيحيون قد ظهروا بالمسيحية واعتزوا بها ، واتصلت حياتهم بها اتصالا محكما ، وظلمت اوروبا تحت السلطان المطلق لقاداتها نحو الف سنة ثم ظهرت البروتستانتية ونجمت بسببها الحروب الدينية قرونا اخرى حتى القرن التاسع عشر ولا اريد ان احدثك عن البرهمنية الهندية والبوذية التي نشأت اصلاحا لها والزرادشتية الفارسية والكونفسيوسية الصينية وغيرها فكل هذه الامم استوعب الدين منها كل جهودها واتصل دينها بسياستها اتصالا اكيدا و كان من اثره عليها ما تفيض به تواريخها اليوم

يقول الدكتور طه حسين « بدأ الجهاد بين النبي وقريش جدليا ثم لما هاجر الى المدينة ووجد له فيها انصارا اعتمد الجهاد على السيف وتجاوز الخلاف كون الاسلام حقا او باطلا الى النزاع على حكم الامة العربية او القبائل الحجازية وهصر الطرق التجارية »

ومحذقول هذا صحيح فقد بدأ الجهاد بين النبي صلى الله عليه وسلم وقريش جدليا ، ثم لما اشتدت وطأة الاضطهاد على رسول الله ومن آمن من قومه فاضطر اكثرهم ان يهاجروا الى الحبشة فرارا بدينهم . فزادت وطأة الاضطهاد شدة حتى أدت الى تحالف قريش على مقاطعة المسلمين فاضطروا للجلء عن مكة وسكنى بعض شبابها مدة عانوا اشد ضروب الحرمان . ثم عادت قريش الى معاملتهم فعادوا الى دورهم ، وان كان الاضطهاد لم ينقطع ثم اتفق ان شرح الله صدر اهل المدينة وهم قبيلتنا الاوس والخزرج القحطانيين الى الاسلام ، ودعنا النبي صلى الله عليه وسلم

ليقيم بين ظهرائهم . واتفق ان قريشا كانت اتفقت على قتله ، فتمسك هو وصاحبه متكرين حتى خرجا من مكة وتبعتهما قريش فلجآ الي بعض الغيران ثم تابعا سيرهما الي المدينة فوصلها سالمين بعد ان لبث النبي صلى الله عليه وسلم في مكة ثلاث عشرة سنة يدعو قومه فلا يجيبونه . فلما آتت رسول الله من الاوس والخزرج قبولا الي تاييده بالقوى المسلحة دفعهم الي اجهاد فحدثت وقعة بدر التي انتصرت قبضة من المسلمين عددهم ثلاث مئة وثلاثة عشر رجلا على جيش يقدر بنحو الف مقاتل وكان ذلك في سنة ثلاث من الهجرة . ثم تلتها وقعة احد التي انتصرت فيها قريش على المسلمين ولكنها لم توفق لان تستغل انتصارها بتعقبهم الي المدينة واستئصالهم كما كان هذا غرضها من قبل

وفي سنة اربع او خمس خرج ابوسفيان بن حرب قائد قريش في اربعة آلاف مقاتل وخرجت معه بنو سليم وبنو اسد وبنو غطفان وبنو مرة وبنو اشجم فم عددهم عشرة آلاف مقاتل . فأسرع النبي صلى الله عليه وسلم بحفر خندق حول المدينة وجعل عليه المقاتلة فعز على المتحالفين اقتحامه واتفق ان هبت ريح عاصفة أضرت بمسكروهم فاضطروا الي رفع الحصار عن المدينة

وفي سنة ست من الهجرة خرج النبي صلى الله عليه وسلم في الف وخمس مئة من اصحابه قاصدا مكة معتمرا . فاجتمعت قريش في دار ندوتها وقررت منعهم من دخول مكة ، وكان في استطاعة المسلمين ان يقتحموها عنوة ويبيدوا قريشا . فقد كان ادركهم الوهن باسلام اكبر زعمائهم فيقيم هو ومن معه بمكة ثلاثا عليهم سلاح الراكب السيوف في القرب والقسي ، وان توضع الحرب بينهم عشر سنين ، وان يامن بعضهم بعضا

فقل انبي صلى الله عليه وسلم راجعا الي المدينة راضيا بهذه المعاهدة التي عدها جمهور اصحابه مهينة لهم ومزرية بكرامتهم مع قدرتهم على سحق عدوهم والفراغ منه نهائيا . فكان من ثمرتها ان اختلط المشركون بالمسلمين اذ جاء الاولون الي المدينة لقضاء بعض مصالحهم ، وذهب الآخرون الي مكة لمثل ذلك فتعارف الطرفان ، ورأت قريش من امر المسلمين ما كانت لاتوهمه فدخل كثير من زعمائهم في الاسلام

كعمرو بن العاص وخالد بن الوليد وغيرهما . واعتزم كثير ممن بقي قبول الاسلام دينا لهم عند سزوح الفرصة . فحدث ان بعض حلفاء قريش تمدوا على بعض حلفاء رسول الله فعداها النبي صلى الله عليه وسلم تقضيا للمعاهدة واعتزم غزو مكة فبلغ ذلك قريشا فها لها الامر لتحقيقها من عجزها عن مقاومة المسلمين . فارسلت زعيمها ابا سفيان الي المدينة ليرجو رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يغضي عما حدث ويمد في أجل الهدية . فلم يقبل . فتوسل بكثير من كبراء المسلمين فلم يقبلوا التوسط . فآب الي قومه فأخبرهم قاضطربوا واهلوا لهذا الامر وما هي الا ايام حتي خرج النبي صلى الله عليه وسلم على رأس عشرة آلاف مقاتل من رجاله فوجه خالد بن الوليد الذي كان قبل قليل قائدا من ا كبر قواد قريش الوثنية على رأس فرقة من الفرسان لاقتحام مكة من اسفلها ، وامر الزبير بن العوام ان يدخلها برجاله من كداه . فلما وصل خالد الي أسفل مكة وهم بدخولها اعترضه قوم من بني بكر وبنو الحارث بن عبد مناف وناس من هذيل كانت استنصرت بهم قريش فقالتهم خالد وقتل من بني بكر نحو اربعة وعشرين ومن هذيل اربعة فانهزموا وتحصنت طائفة منهم بالجبال وتبعهم المسلمون فصاح حكيم بن حزام وابوسفيان: يا معشر قريش علام تقتلون انفسكم من دخل داره فهو آمن ومن وضع السلاح فهو آمن فجملوا يقتحمون الدور ويغلقونها عليهم

اما ابوسفيان هذا فقد كان خرج يتجسس اخبار الجيش القادم فقبض عليه بعض الحرس واوقده للنبي صلى الله عليه وسلم فأسلم قبل وصول رسول الله الي مكة

فلما تم الفتح اخذ الناس يدخلون في الاسلام افواجا وامر النبي بهدم الاصنام التي كانت بالبيت . وكاد هذا الفتح يكون مفضيا الي خضوع جميع المشركين لولا ان بني هوازن دفعتها الحماسة اجاهلية لمقاومة هذا التيار الاسلامي الجارف فحشدت من رجالها نحو عشرين الف مقاتل وسارت بهم لمهاجمة المسلمين فلقبها النبي صلى الله عليه وسلم بجيشه الذي فتح به مكة فهزمهم بعد قتال عنيف واستولى على جميع ما كان لهم وبذلك انتهت كل مقاومة من المشركين واصبحت بلاد العرب كلها

اسلامية طوما وكرها

فانت ترى من هذا البيان ان قريشا لم تقا تل النبي صلى الله عليه وسلم قتالا جديا يصح ان يستنتج منه انه كان تناحرا بين طائفتين لنصر دين على دين اولضمان سلامة طريق تجارية ضرورية لحياة احدى الجماعتين . فغزوة بدر حدثت بسبب ما اشيع من ان المسلمين استولوا على تجارة قريش فخرجت فرقة تقدر بألف رجل لاستردادها . وغزوة احد شنها المشركون للاخذ بثأر من قتل منهم في بدر . وغزوة الخندق كانت باغراء نفر من اليهود منهم سلام بن مشكم وابن ابي الحقيق وحيي بن أخطب خرجوا من خيبر وقدموا مكة وحرصوا قريشا على غروا المدينة واستئصال شاة المسلمين فيها وتهدوا ان ينضم اليهود اليهم . فلبت قريش دعوتهم وقصدوا المدينة في نحو عشرة آلاف مقاتل كما قدمنا فلما حاصروا المدينة ووجدوا الخندق حولها وخرجت عليهم العاصفة اتخذوا هذه الحادثة عذرا لعودتهم بدون قتال . ولم تبتد قريش بعد هذه الرجعى اقل حركة لمحاربة المسلمين ولم يؤثر عنها في تلك ائوقائم الثلاث الماضية مثل ما يؤثر عن الطوائف الموثورة في دينها ودنياها من غليان الصدور بالسخائم ، واضطرام النفوس بالضغائن ، وابلاغ الحرب الى أقصى شدتها ، والذهاب بالصبر والثبات الى مثل ما يروى عن المستبسلين والمستميتين في الدفاع عن وجودهم . سمعنا ان قريشا استنفرت بعض من حولها من العرب للحرب ليعينوها على الاخذ بالثأر او لنصرة اوثانها ومعبوداتها ولكننا لم نسمع قط انها استنفرت البعيدين عنها كما يفعل الذين تلتهب في قلوبهم نيران الحمية . ولم تذكرهم بضرورة تأمين الطرق التجارية ، ولم يتقل اليها قامت بنشر دعوة حارة ضد المسلمين تصلح لجمع كتلة من المحاربة تتمكن بهم من عمل شىء جدى . ذلك لانها لم تكن من العرب على ما وصفها به الدكتور طه حسين ، ولم يكن لا قطاع الطرق الاقتصادية في نظرها كبير خطر يدفعها للاستماناة في الدفاع عنها

لقد كانت بلاد العرب كلها في عهد الجاهلية اشبه بدار حرب فتجارة قريش على تفاهة قدرها وتجارا ت غيرها من القبائل كانت في حاجة الى الحماية سواء كان طريقها ساحل البحر الاحمر أو العراق

أليس يدل هذا الفتور من قريش في حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم وعجزها عن جمع أكثر من عشرة آلاف من العرب المحالفين لها على أنها لم تكن كما يقول الدكتور طه حسين «نيعة الحوزة ، عزيزة الجانب ، تحدث نفسها بجمع كلمة العرب لتكوين دولة وثنية مستقلة تطرد الأجانب من بلادها ؟

ثم ألا يدل عدم اجتماع العرب على محاربة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يسفه أحلامهم ، ويسب أصنامهم ، ويتوعد عدم بالغناء على أنهم كانوا منصرفين عن أمور دينهم ودنياهم ، وقانعين من العيش بما هم فيه من التناهب والتناحر ، ومن الاجتماع بما هم عليه من التنافر والتدابر ، على مثال الوحوش الهابجة ، والكواسر الهائمة ؟

ألا يدل تمكن رسول الله صلى الله عليه وسلم من ناصية الأمة العربية كلها حاضرها وباديها ، عدنانها وقحطانها ، بواسطة قبضة من رجال ذوى إيمان صحيح على أن هذه الأمة كانت لها على وخصم ، وأنها كانت من الانحلال ، وتفكك الاوصال ، وقلة المبالاة بدينها ودنياها بحيث لا تضرب ضربتين أو ثلاث ضربات حتى تستخذى صاغرة ، وتستكين خاضعة ؟

يقول الدكتور طه حسين : « وهذا أدى إلى نشوء عداوة بين قريش وأهل المدينة ، واصطبغت هذه العداوة بالدم يوم انتصر الانصار على قريش في بدر . ومضت قريش في جهادها ولكنها كسرت في آخر الأمر . فنظر زعيمها وحازمها أبو سفيان في الأمر فرأى أن يصانع ويصالح ويدخل فيما دخل فيه الناس لعل هذا السلطان السياسى الذى انتقل من مكة إلى المدينة ومن قريش إلى الانصار ان يعود إلى قريش وإلى مكة مرة أخرى »

ونحن نقول أما نشوء عداوة بين قريش وأهل المدينة فصحيح وسببها نصرتهم للنبي صلى الله عليه وسلم . أما قوله واصطبغت هذه العداوة بالدم يوم انتصر الانصار على قريش في بدر . فكلام ان ساغ من ناحية كتابية شمرية فلا بسوغ من وجهة اجتماعية علمية تتطلب تدبم الاسباب والعلل ، وعزو الحوادث إلى عواملها الحقيقية . والحق

ان الذي انتصر في بدر هي قريش المسلمة على قريش الوثنية . واما الانصار فكان
مكانهم في هذه الحوادث ، كان المعين الممالء ليس غير . أتري لو قمت فرنسا فتنة
الدروز بجنود مخرسة او ارمنية او سنغالية يصح ان يقال انتصر المغاربة او
السنغاليون او الارمنيون على الدروز ، في حين ان الحرب كانت لمصلحة فرنسا ،
والروح التي تحركها روح فرنسا ، وانرض من اشغال ايرانها تأييد مزاعم فرنسا في
تلك البلاد ؟

فاذا صح لقريش ان تحقد فلتحقد على ابنائها محمد واصحابه الذين كفروا بالهتيا ،
وانفصلوا عن جامعتها ، واخذوا بديانة غير ديانتها ، وانتهجوا في الحياة طريقة غير
طريقتها ، واغروا اصدقاءها على عداوتها

هذا ما يقتضيه علم الاجتماع الذي يربط العلل بمعلولاتها ، والاسباب بمسبباتها ،
والا فقد كان الاوس والخزرج في غفلة عن الاسلام ، وفي غنى عن عداوة قريش ،
ولولا محمد واصحابه لبقوا على ما كانوا عليه ماشاء الله ان يبقوا ، فالروح المدبر لهذا
الامر هي قريش المسلمة لا أهل المدينة ولا غيرهم ممن يلتحق بالمسلمين ويفنى
فيهم

ولكن الدكتور طه حسين رتب هذه المقدمات وتسامح في درس علل هذه
الحوادث على الاسلوب العلمي ، وخالف العرف وطبيعة الاشياء لخدمة غرض
ادبي محض هو تليل الاختلاق في الشعر الجاهلي . فكان مثله كمن يشعل مدينة برمتها
ليأخذ منها قبسا . وليس هذا من العمل الصالح في شيء .

اما قوله : « فنظر زعيمها وحازمها ابو سفيان في الامر فرأى ان يصانم ويدخل
فيما دخل فيه الناس لعل هذا السلطان السياسي الذي انتقل من مكة الى المدينة ، ومن
قريش الي الانصار ان يعود الي قريش والي مكة مرة اخرى » فهو كلام خال من
التحقيق العلمي ، وهو تسامح فيه كل التسامح . فان اباسفيان هذا الذي يصفه الدكتور
طه حسين بالحزم وبعد انظر كان بعد اسلامه يعمل على الاجهاز على ما بقي من آمال
قريش الوثنية وعلى تأييد قريش المسلمة . فقد شهد حرب الطائف مع رسول الله
صلى الله عليه وسلم وأبلى في قتال اهلها بلاء حسنا حتى فقئت احدي عينيه . ثم

وجهه النبي صلى الله عليه وسلم لهدم صنم بنى ثقيف . وقد لزم الاقبياد حتى انتقل رسول الله الى الرفيق الأعلى . وحافظ على اخلاصه مدة ابي بكر . ولما تولى عمر الخلافة وجهه الى اليرموك لقتال من هنالك من متنصرة العرب ووثنيهم فأبلى احسن بلاء فيها حتى فقئت عينه الثانية فبقي كفيف البصر بقية مدة عمر وشطرا من خلافة عثمان ، لم يلاحظ عليه غير الطاعة والولاء حتى توفي . فلو كان ابو سفيان هذا يطوف برأسه مثل تلك الاحلام لالتجأ قبل سقوط مكة مع طائفة من كرام رجاله الى بعض القبائل التي كانت لا تزال على الوثنية كقبيلة هوازن مثلا كما يفعل القادة الذين يكافحون لتأييد المبادئ العالية ، بل كما يفعل القادة من ذوى الخبرة الحربية لاسيما وقد اصرت قبيلة هوازن على وثنيها وجمعت للنبي صلى الله عليه وسلم بعد فتح مكة جيشا جرارا قد ربحه ثلثين الف مقاتل ، ودفعت بهم لمحاربتهم ، فحدثت وقعة حنين المشهورة التي اعتبرت من اشد الوقائم هولا اذ انكشف فيها المسلمون في اول صدمة وكاد الامر يفضى الي هزيمة منكرة لولا كرامة صادقة كرها اهل السابقات الحسنة في ذلك اليوم

اما وقد استسلم ابو سفيان ودخل فيما دخل فيه الناس ، وقام بهدم بعض الاصنام بأمر النبي صلى الله عليه وسلم وحارب معه ومع خلفائه اعداء الاسلام ، وعرض نفسه للهلكة في هذا السبيل حتى فقد عينيه فلا يصح ان يقال عنه انه كان حازم قريش ورجلها الفذ ، وانه كان ينتظر ان يعود لقريش الوثنية مجدها القديم . أي "مجد يصح ان يُسمى عوده وهو نفسه يعمل على تقويضه وازالة معالمه معطيا بذلك اسوأ الامثال لكل من كان دونه ؟

يقول الدكتور طه حسين : « كان ابو سفيان هذا يرجو ان يعود السلطان السياسي

الى قريش بعد ان انتقل منهم الى الانصار . »

ونحن نقول ان السلطان السياسي في عهد الاسلام لم يكن لقريش ولا للانصار

بل كان للمسلمين كافة بن فيهم من الا جانب عن العرب ، لان الاسلام بحق الجنسيات وعفسي على آثارها . فلو فرضنا ان ابوسفين بعد اسلامه كان لا يزال يستبطن الوثنية ، ويكره الاسلام ، ويرى وجود شيء اسمه قريش ، أفما كان يرى ان قريشا قد اسلمت

على بكرة ايها وتولت نشر الدين الجديد بتحطيم الاصنام واجبار العرب بالسيف على الاسلام؟ فأى قريش كان يريد ان ينتقل اليها ذلك السلطان لسياسي؟ أولئك العامة المستضعفين الذين بقوا في مكة بعد الفتح ، ام أولئك الرجال الكبار ، والقادة المحنكين امثال ابي بكر وعمر وعثمان وعلى وابي عبيدة وطاححة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن ابي وقاص وخالد بن الوائد وعمر بن العاص وابني ابي سفيان يزيدومعاوية الخ طغ من القرشيين الذين كانوا بالمدينة يديرون ذلك السلطان الاسلامي ويعملون بانفسهم وأموالهم على تقوية شوكته واعلاء كلمته ؟

ان كان ابو سفيان يعني بقريش اولئك الذين كانوا في مكة فقد كان أولئك مستضعفين ، جلهم رعاة واجراء لاني العير ولا في النفير . واما ان كان يعني بهم رجالها الاعلى ، وصناديدها المعدودين ، وقوادها المحنكين ، فأولئك انتقلوا كلهم قبل الفتح وبعده الى مكة وتولوا تدبير امر الاسلام والمسلمين تحت اشراف النبي صلى الله عليه وسلم ، فكان منهم قادة الجيوش ، وامراء السرايا ، ورؤساء البعث ، والسفراء الى القبائل ، والدعاة للدين ، والولاة على الاقاليم ، قلنا اما ان كان ابو سفيان يعني بقريش هؤلاء وهم زهرة قريش بل الذين لولاهم لما كانت قريش قريشا فان عودهم للكفر امر لا يطوف بخيال انسان يعتد بعقله

يقول الدكتور طه حسين : « لم يكذب النبي يدع هذه الدنيا حتى اختلف المهاجرون والانصار في الخلافة . وكاد الامر يفسد بين الفريقين لولا بقية من دين ، وحزم نهر من قريش ، ولولا ان القرية المادية كانت اذ ذاك الى قريش ، فأذعنت الانصار ، وانصرفت قوى الجميع الى ما كان من انتفاض العرب على المسلمين ايام ابي بكر والي ما كان من الفتوح ايام عمر ، ولكن المقيمين من اولئك وهؤلاء في مكة والمدينة لم يكونوا يستطيعون ان يذسوا تلك الخصومة العنيفة التي كانت بينهم ايام النبي ، ولا تلك الدماء التي سفكت في الغزوات وقد حال حزم عمر بين قريش والانصار وبين الفتنة ، فقد نهي عن رواية الشعر الذي كان يتهاجي به المسلمون والمشركون ايام النبي وقد كانت قريش والانصار يتذاكرون ما كان قد هجا به بعضهم بعضا ايام

النبي وكانوا حراسا على روايته يجدون في ذلك من اللسنة والسمانة ما لا يشعر به الا صاحب العصبية القوية »

ومحذون لما توفي النبي صلى الله عليه وسلم اجتمع نفر من الانصار وتذاكروا في مصير امر المسلمين وشرعوا في اقامة امير منهم . فسمع بذلك ابو بكر وعمر فأسرا اليهم في نفر من قريش وتداولوا الكلام في امر خلافة النبي صلى الله عليه وسلم وأدلى كل فريق بحجته ، فاقنع الانصار بصحة رأى المهاجرين وبايعوا ابا بكر بالخلافة مجمين الا سعد بن عبادة سيد الخزرج فلم يبايع حتى مات فتخلى عنه قومه ولم يرفع واحد منهم بخلافه رأسا

يقول الدكتور طه حسين : « وكاد الامر يفسد بين الفريقين لولا بقية من دين ، وحزم نفر من قريش ولولا ان القوة المادية كانت اذ ذاك لقريش »
فأما قوله كاد الامر يفسد بين الفريقين لولا دين وحزم فصحيح وكفى بقوم فضلا ونبلا ان يخضع فريق لرأى فريق بوازع من الدين والحزم . هذا كل ما ينتظر من فريق كريم وليس بعده مذهب لمستزيد

واما قوله : « ولولا ان القوة المادية كانت اذ ذاك الى قريش » فغير صحيح فان القوة المادية كانت الانصار جاهلية واسلاما ودليلنا المادى على ذلك ان النبي صلى الله عليه وسلم كسر بهم قريشا ومن شايع قريشا من القبائل . وهذا التفوق في القوة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم كان مستساها به عند الكافة حتى نوه به الحباب بن المنذر الانصاري في مؤتمر السقيفة . فقال كما رواه ابن قتيبة في كتاب الامامة والسياسة : « يا معشر الانصار املكوا على ايديكم فانما الناس في فيثكم وظلالكم ، ولن يجير مجير على خلافكم ، ولن يصدر الناس الا عن رأيكم . انتم اهل العز والثروة واولو العمد والنجدة . وانما ينظر الناس الى ما نصنعون فلا تختلفوا فيفسد عليكم رأيكم ، وتقطعوا اموركم . انتم اهل الايواء ، واليكم كانت الهجرة ، ولكم في السابقين الاولين مثل ما لهم . وانتم اصحاب الدار والايام من قبلهم . والله ما عبدوا الله علانية الا في بلادكم ، ولا جمعت "صلاة الا في مساجدكم ، ولا دانت العرب للاسلام الا باسيافكم »

فان قيل ان نص هذه الخطبة يمكن ان يكون مختلفا ، قلنا ونحن نرجح انه مختلف .
ولكن الرواة اعتادوا في اختلاق الاخبار والخطب ان يتحروا من الامور ، مالا
يناقض ما يعرفه الجمهور . فلو ان الناس يعرفون بالبداهة ان القوة والمنعة والعدد كان
للانصار دون المهاجرين لما تجاروا على اختلاق ذلك حذرا من تعريض روايتهم
للكشوك والريب

يقول الدكتور طه حسين : « ولكن المقيمين من المهاجرين والانصار في مكة
والمدينة لم يكونوا يستطيعون ان ينسوا تلك الخصومة العنيفة التي كانت بينهم ايام
النبي ولا تلك الدماء التي سفكت في العزوات وقد حال حزم عمر بين قرية س والانصار
وبين الفتنة الخ الخ

ونحن نقول ان الذين كانوا يقيمون في مكة والمدينة مع النساء والمستضعفين في
ايام تدويخ العرب الذين ارتدوا عن الاسلام وانتفضوا على المسلمين ، وفي ايام
الفتوحات العمرية كانوا اما عجزا لا يستطيعون ضربا في الارض ، واما من حثالة
الناس الذين لا ترجي منهم فائدة ، ولا ينتظر منهم نجدة . ومثل هؤلاء لا تخلو منهم
امة ، ولا يكون لهم من عمل في ساعات فراغهم الا ما يناسب مداركهم من ذكر
العصية ، والتلاهي بالمحظورات الدينية . فهؤلاء هم الذين كانوا ينشدون الاشعار التي
تهاجي بها المهاجرون والانصار ، ويجدون في روايتها لذة ، بينما كان هؤلاء المهاجرون
والانصار متأخين في الله يجاهدون في سبيله كتفا الكتف ، ويشاطر بعضهم بعضا
السراء والضراء في ميادين الشرف يبنون صرح دولة قدر لها ان تملك من الاقطار ما لم
يسمعه مثله لدولة قبلها لتكون واسطة بين العالم وبين العلم والمدنية التي ستؤول اليها
خلافتها دون سواها من الامم

فأولئك القاعدون في اكسار دورهم يتناشدون الاشعار التي كان يتهاجي بها
المسلمون والكافرون ، كانوا نُسفاية ذبلك الفريقين الكريمين المهاجرين والانصار
وكان حظهم من الدين انهم اُجبروا عليه اجبارا فلا يزالون يعمنون الي جاهليتهم الاولى
ولكنهم كانوا من سقوط القيمة بحيث لم يؤثر ما كانوا فيه من عمل الجاهلية في تلك

الوحدة الوثيقة العرى التي عجزت كل عوامل التحليل عن العدوان عليها حتى ادت ما اتدبت له من اقامة تلك الدولة الفتية التي كان من ثمرة قيامها ذلك الخير العام الذي غمر العالم كافة . فلا يصح ان يقوم الدكتور طه حسين بعد الف وثلاث مئة سنة فيلتقط من هنا وهناك حكايات أولئك العاطلين واكثرها محتق موضوع ليثبت بها وهن روابط ذلك المجتمع الكريم بعد ان اثبت ذلك المجتمع نفسه بثباته واستمراره ووقائه بما أخذه على نفسه انه كان كالبنيان المرصوص يشد بمضه بمصا

وقد حدثت فتن بين الحنابلة والشافعية ، وبين هؤلاء والاحناف في امصار كثيرة حتى في الجامع الازهر ادت الي التقاتل والتناحر ، فهل يصح ان يقال استنادا على فعل بعض المتعصبة الاغرار ان بين اصحاب المذاهب الفقهية الاسلامية حرازات ، او ان هذه المذاهب قد اوجدت بين المسلمين الشقاق ؟

لا ، لا يصح ذلك ، لان الذي قام بتلك السفاسف حثالة اغمار لا تتخذ اعمالهم حجة على الجماعات التي ينتمون اليها

يقول الدكتور طه حسين : « وقد حال عزم عمر بين قريش والانصار وبين الفتنة فقد نهى عن رواية الشعر الذي كان يتهاجي به المسلمون والمشركون ايام النبي »

ونحن نقول : وقد قتل عمر فلم لم تقع الفتنة بين قريش والانصار ؟ ثم قتل عثمان . فلم لم تقع الفتنة بين قريش والانصار ؟ ثم قتل علي فلم لم تقع الفتنة بين قريش والانصار . هنا يمكن ان يقال لم تقع الفتنة بفضل بقية دين وحزم . نقول هذا كلام ليس من العلم في شيء ، بل هو من الشعر العريق في الخيال . فان الذي شوهد في تاريخ الطوائف ان مصالحها متي تصادمت ، او شعرت واحدة منها بأن حقوقها قد هضمت ، عدت من الدين ومن الحزم ان تطالب بحقها المهضوم وشرفها المثلوم ، وهبت لا يثنيها شيء عن الكفاح . فالثورة التي قام بها الناس وقتلوا فيها عثمان عدها ذووها من الدين والحزم ، واقتتال معاوية وعلي وذهاب حياة الالوف المؤلفة

هدرا فيها عدها العارقان من الدين والحزم ، والحرب الضروس التي شبت بين شيعة مائشة وطلحة وبين اصحاب علي عدها الخصمان من الدين والحزم ، والتناحر الهائل الذي حصل بين علي والخوارج اعتبرته الطائفتان من الدين والحزم ، فالدين والحزم حجة كل معتد ومعتدى عليه . فهل كان دين الانصار وحزمهم من نوع ارقى من دين وحزم كل طائفة في الارض ؟ هب انهما كانا كذلك أفيعقل انهما كانا يمتعناهم ان يقفوا لتأييد حقهم المهضوم موقف الرجال ، في ميدان الطعن والنزال ، وفي الوقت نفسه يسمحان لهم أن يتسفلوا الى حضيض الرذال ، فيتهاجون بلاشعار ويتطاعنون بما لا يؤثر الا على خيال الاطفال ؟

لا . لا . هذا ليس بمعقول . بل المعقول ان الانصار لم يخضعوا للرأى المهاجرين الا مقتنعين بانهم على صواب ، وانهم لم يجدوا في صدورهم حرجا من قهر الامارة على قریش ، والا لتمحلوا الف عذر لامتلاخ حقهم من ايدي خصومهم المتغلبين ، باسم الحزم والدين ، كما فعلت كل الطوائف في العالمين

سلم الانصار لحجة القرشيين يوم انتخاب الخليفة ، ولكن ما لبث هذا الخليفة اياما حتى ارتدت القبائل التي كانت أسلمت على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، وطردت جباة الاموال ، واضطر ابو بكر لبث جنوده وقواده في جميع ارجاء بلاد العرب لقمع هذه الفتن . فكان الانصار ، لو كانوا موتورون ، يستطيعون في هذا الوقت ان يتذرعوا للثورة على القرشيين بحجة ان حكومتهم بسوء سياستها ردت العرب مشركين

احتضر ابو بكر فاستأذن المسلمين في ان يعهد بالخلافة الى عمر . فقبلوا منه ذلك كارهين ، لشدة كانوا يعرفونها في ابي حفص . فكان هذا الظرف فرصة سانحة لان يشور الانصار بحقوقهم مطالبين ، وانهم لم يفعلوا فلبثوا موالين

ثم قتل عمر فاضطرب لذلك المسلمون وزلزلوا زلزالا شديدا . فكانت هذه نهزة للا نصار يهبون فيها للخلاص من نير القرشيين ، وليكنهم لبثوا كما كانوا مخلصين وادعين

ثم تولى عثمان فساءت الاحوال في زمنه ، واضطربت الامور من تغلب المتعصبة

من قرابته عليه ، وجاءت جنود الاقاليم تحاصره في داره مطالبة اياه بعزل مستشاره
وتسليمه اليهم او التنازل عن الخلافة . فلما لم يفعل هذا ولا ذلك اقتحموا عليه قصره
وقتلوه . وكان هذا الظرف من الاضطراب مناسبا لثورة الانصار المظلومين . . .
واكنهم لم يفعلوا ولبثوا مستسلمين .

ثم تولى علي وخرج عليه معاوية بالشام ، وطلحة والزبير وعائشة بالعراق ،
والخوارج بمختلف الجهات ، وكانت هذه الاضطرابات من احسن الفرص للثورة
على الفاسقين ، واكنهم لم يفعلوا فمكثوا هادئين .

ثم قتل علي واشتدت شوكة معاوية ، واغتصب الخلافة ، ونقل عاصمة الملك الي
دمشق ، وكانت هذه الفرصة اولى من جميع الفرص السابقة بانتصاف المظلومين ،
ولكن الانصار بقوا ساكنين

نعم ثار الانصار والمهاجرون على يزيد بن معاوية ، ولكن كانت يدم في يد
المهاجرين . وما ثارت الطائفتان الا تدمرا من ان يلي الخلافة رجل ليس من
اهلها الصالحين

أفلا يدل كل هذا على ان الانصار لم يكونوا قط ثابتين على المهاجرين ، والا فان
الدين والحزم اللذين يحدنا عنهما الدكتور طه حسين كانا لذي الانصار من نوع غير النوع
الذي عهدناه عند جميع الطوائف ، وانهم هم انفسهم كانوا من نوع غير النوع الانساني .
فهل منعهم هذا الامتياز الرفيع من التلذذ بانشاد الشعر الذي فيه سب للقرشيين ؟
ان صح ذلك فما اولاهم بقول قريظ بن ابي العنبري اذ قال ينمي علي بنى العنبر
تساعهم في حقوقهم :

لكن قومي وان كانوا ذوى عدد ليسوا من الشرفى شىء وان هانا

يجزون من ظلم اهل الظلم مغفرة ومن اماءة اهل السوء احسانا

كان ربك لم يخلق لطاعته سوام من جميع الناس انسانا

ولكن مع هذا الفارق وهو ان قوم قريظ بن ايف كانوا يجزون من ظلم اهل الظلم

مغفرة ، ولكن الانصار على ما يقوله الدكتور طه حسين ، كانوا يظهرون الاخلاص

ويبطنون في صدورهم نارا تلظى من الحقد على قريش

كلا . لو كان الانصار يرون انهم قد هضمت حقوقهم ، وغلبوا على امرهم لئلا
الحقد على قريش قلوبهم ، وكوجدت لهم في كل مشكلة خلافا ، وفي كل فتنة
اصبما ، وفي كل دور من الانتقال استعصاء . واذ لم يحدث منهم شيء مما
ذكرنا ، وهي العلامات الدالة على حالات النفوس ، فلا يصح ان يحتملوا هم
وقريش تبعه ما كان يأتيه بعض الزمانف من كلتا الطائفتين

يقول الدكتور طه حسين : « ان عمر رأى حسانا في المسجد ينشد طائفة من
المسلمين فاخذ بأذنه وقال أرغاء أرغاء البعير » الخ الخ

ونحن نقول : ان الدكتور فسر هذه الرواية بأن الانصار كانوا موتورين فكانوا
يتعزون بانتصافهم من قريش قبل موت النبي . وعمر تكره عصبية ان تزدري قريش .
وهذا التفسير في نظرنا غير وجيه ولا ينطبق على تسمية الصحابة في ذلك العهد ،
تلك التسمية التي يدل عليها تضامهم الوثيق في كل امر . وعندنا ان تفسيره ما
سند كره ، وهو ان الصحابة كانوا يكرهون الشعر و يعدونه من الملهيات لقوله تعالى :
« وما علمناه الشعر وما ينبغي له » اي ولا يصح ان نعلمه اياه لحقارته بالنسبة لمنصبه .
ولقوله تعالى ايضا : « والشعراء يتبعهم الغاؤون . ألم تر أنهم في كل واد يهيمون ،
وأنتهم يقولون مالا يفعلون » . حتى ان لبيد صاحب المعلقة ترك الشعر في الاسلام .
وحذا حذوه ناس كثيرون . وقد روى ان النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لأن
يمتلىء صدر احدكم قيحا خيرا له من ان يمتلىء شعرا » . ولا شك في ان المذموم هو الشعر
المحظور كقصائد الهجاء والمجون . فعمر بن الخطاب كجميع الصحابة يكره ان يتلمى
الناس بسفاسف الامور . فلما سمع حسانا يرغي كارغاء البعير في المسجد كره منه ذلك
لان المساجد جعلت لذكر الله لا لانشاء الشعر . فلما ذكره حسانا بأن النبي كان
يسمع منه شعره في هذا المقام تركه لحرمة ومضى ، لا ان عصبية كانت تكره ان
تزدري قريش اذ لو كان الامر كذلك لطرده من المسجد ولم يُبَلَّ به ولكن له في
ذلك عذر مقبول

يقول الدكتور طه حسين : « ان عبد الله بن الزعبرى وضرار بن الخطاب
قدما المدينة وانشدا حسانا مما قالت قريش في الانصار فلما فرغا لم يسعما
منه ومضيا حائدين الى مكة . فاشتكما لعمر فردهما وامره ان ينشدهما ما شاء
فعل » اطلع الخ

يستشهد الدكتور طه حسين بهذه الحكاية ليثبت ان الانصار كانوا يرتاحون
لسماع هجو قريش انتقاما منهم
ونحن نقول ان هذه الحكاية تثبت ان الوحدة الاجتماعية كانت على اتم ما يكون
في ذلك العهد حتى ان عمر القرشى وهو امير المؤمنين انتصر لحسان الانصارى واحضر
له القرشيين لينشدهما حسان ما يكرهاه . ويثبت فوق ذلك امرا جديرا بالتنبيه اليه
وهو أن الانصار وقريشا المسلمة كانوا سواء في ذم قريش الوثنية المنحلة التي بادت
منذ فتح مكة . ويدل على ذلك دلالة لا تحتمل النقص احضاره القرشيين لسماح حسان
في ذم قريش الوثنية وترخيصه للناس بكتابة هذا الشعر بعد ان امر بعدم كتابته
لعدم اثاره الضعائن . فالناؤه امره الاول والترخيص بكتابه يدل على انه رأى انه لا يثير
الضعائن . والا فلو كان يعلم انه يثيرها لما أقدم على الترخيص بكتابه وهو المعروف
بالورع والمحافظة على وحدة الامة

يقول الدكتور طه حسين : « قال ابن سلام نظرت قريش فاذا حظها من الشعر
قليل في الجاهلية فاستكثرت منه في الاسلام . وليس من شك عندي في انها استكثرت
من هذا الشعر الذى يهيج فيه الانصار »
ونحن نقول ان كان هذا صحيحا فيكون الذين ارتكبوا هذا الاثم نفر من الذين
التحقوا الاسلام ولم يستشعروه فهم تقاضة قريش وتفايتها ممن لا بصيرة لهم
بدين ولا دنيا ، ولا حظ لهم من الحياة الا ان يشتغلوا بالسفاسف والدنايا . اما
القرشيون الذين وضعوا اساس هذا المجتمع المبارك الذى كُتب له ان يكون نواة
لا كبر دولة في العالم فلا يعقل ان يكونوا تحت تاثير حالة نفسية سافلة من هذا
القبيل والا لظهرت اعراضها الملازمة لها كما هي السنة في كل مجتمع

ثم انا لا نستطيع ان نتصور ان طاقتين بينهما من التعادى والتنافر ما يحمل احدهما على اختلاق القصائد ذما في الاخرى وتحقيرا لسانها يكون حالها من التضامن والتكافل على ما رأينا منها في كل دور من الادوار الحرجة التي دخلت فيها جماعة المسلمين في القرن الاول

فان كان ما يقوله الدكتور طه حسين حقا من ان الانصار قد هضم حقهم ، وانهم أحسوا بهذا الهضم وسكتوا على مضض ، وان القرشيين كانوا ينظّمون القصائد طعنا فيهم ، وازراء بهم ، وانهم تحملوا كل ذلك ولم يبدوا حركة تدل على استيائهم ، وجب ان تكون قريش من الظلم والاجحاف ، ونكران الجميل ، وفساد الطوية ، وخساسة النفس في الدرك الاسفل ، وان تكون الانصار في تحملها كل ذلك وجزائها عليه بدوام الوفاء والولاء آية في المروءة والرجولة وشرف للنفس

فهب ان هذا كان هو الواقع فذلك لا يبنى انه نعمة من نعمات الاسلام، وأثر من آثار محمد عليه الصلاة والسلام ، ويكون معجزة خالدة له الى يوم القيام . لان فلاسفة الارض مجتمعين يعجزون عن التوفيق بين رجلين من هذا الطراز ، وعلى هذا التنافي في الاخلاق ، فما ظنك بطاقتين كانت احدهما على هذا الصفات الخاطئة من هضم الحقوق ، والاعتداد بالنفس ، والتجرم على الولي ، وقد بنى بهم تلك الوحدة الاجتماعية التي مكنت ذويها من ناصية العالم ، ودفعتهم لاصطناع مدينة لا تزال بدائمها مضرب الامثال الى اليوم ؟

«*»

يقول الدكتور طه حسين : « ولما تولى عثمان تقدمت الفكرة السياسية التي كانت تشغل اباسفيان خطوة اخرى فلم تصح الخلافة في قريش فحسب بل اصبحت في بني امية خاصة . واشتدت عصبية قريش ، واشتدت عصبية الامويين ، واشتدت العصبية الاخرى بين العرب ، وهدأت حركة الفتح ، واخذ العرب يفرغ بعضهم لبعض ، وكان من نتائج ذلك ما تعلم من قتل عثمان وافتراق المسلمين ، وانهاء الامر كله الي بني امية »

ونحن نقول هذا كلام قدر رتب ترتيبا شعريا خاليا من روح التحقيق العلمي ،

وبعيد عن فلسفة التاريخ واصول الاجتماع بعدا لا يقف عند حد

وحقيقة الامر ان عمر لما جرح واحس بقرب وفاته عين ستة من الذين لا تعدوهم
 الخلافة وهم علي وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وطلحة بن عبد الله والزبير بن العوام
 وسعد بن ابي وقاص وابي ان يعهد بالخلافة الي ابنه عبد الله حتي اقترح ذلك عليه
 قائلا والله لا يليها من ولد الخطاب اثنان . وخاطب هؤلاء الستة بقوله : يا معشر المهاجرين
 الاولين اني نظرت في امر الناس فلم اجد فيهم شقا قولا نفاقا فانه يكن بعدي شقاق
 ونفاق فهو فيكم . تشاوروا ثلاثة ايام فان جاءكم طلحة الي ذلك (وكان غالبا) والا فاعزم
 عليكم بان لا تتفرقوا من اليوم الثالث حتي تستخلفوا احدا ثم فان اشرتم بها الي طلحة
 فهو لها اهل . وليصل بكم صهيب هذه الثلاثة الايام التي تتشاورون فيها فانه رجل من
 الموالي لا ينازعكم امرهم واحضروا معكم من شيوخ الانصار وليس لهم من امرهم شيء ،
 واحضروا معكم الحسن بن علي وعبد الله بن عباس فان لها قرابة . وارجو لكم البركة في
 حضورهما وليس لها من امرهم شيء ويحضر ابني عبد الله مستشارا وليس له من
 الامر شيء . فصدعوا باشارته ولكنهم اختلفوا ثم اجعوا علي تحكيم احدهم وهو عبد
 الرحمن بن عوف . فخرج يسأل الخاصة والعامة عن رأيهم فيمن يصلح للخلافة فوجد
 الناس مجمعين علي تولية عثمان فرجع الي اخوانه واخبرهم بانها اختار عثمان فبايعوه وبايعه
 الناس . واتفق ان كان عثمان ضعيفا فتغلب عليه قريب له يدعي مروان بن الحكم احد
 الذين اصرروا علي الوثنية حتي فتح رسول الله مكة فاسلم اذ ذاك ضمنا بنفسه ، وكان
 مشعبا بروح الجاهلية ، والاثرة القبلية ، فجعل الولاية في الاقاليم من اغيلة بني امية حتي
 الذين لا يصلحون للولاية . فحدثت هذه الحالة تدمرا تاما في المسلمين . وظهر من
 عدم كفاية هؤلاء الولاة ماملأ القلوب بكرامة تلك الحكومة حتي ان احدهم وهو
 الوليد بن عقبة والي الكوفة صلى بالناس الصبح وهو سكران اربع ركعات ثم التفت
 اليهم وقال ان شئتم ان ازيدكم ركعة زدتم . فما عتمت الفتنة ان ادلع لثيبها وقصد
 المدينة جيش من جنود الولايات وحاصروا عثمان في داره وطلبوا اليه عزل مروان بن
 الحكم وتسليمه اليهم . فآبى . فطلبوا اليه الاستقالة فلم يجبهم الي طلبهم . فهددوه بالقتل
 فلم يقم لتهديدهم وزنا . فافتحموا عليه الدار وقتلوه . ثم اجتمعوا فولوا علي بن ابي

طالب الخلافة فأسرع بمعالجة ما فسد من امر الولايات فنزل أولئك الولاة الامويين وولاهم رجالاتهم يثق فيهم مثل محمد بن ابي بكر و ابي موسى الاشعري . وكان ممن اسر بعزله من الولاة معاوية بن ابي سفيان وكان قد مضى عليه في ولاية الشام عشرون سنة اتخذ له فيها جنودا وقوادا . فلما فاجاه خبر العزل احتال لاعلان عصيانه بفرية اُثر بها على الدين حوله وهي ان عثمان ما قتل الا باغراء على بن ابي طالب . واتفق ان جاشة زوجة النبي صلى الله عليه وسلم كانت تكره عليا فاتفقت مع طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام على ان يؤلبا الناس على امير المؤمنين لبسهم رجال الثورة الذين قتلوا عثمان . ولا يخفى ان هذا متعذر . فاعتذر اليهم فلم يقبلوا وجمعوا له سبعين الف مقاتل في العراق فقاتلهم في وقعة اسمها يوم الجمل ، وقتل طلحة وقبيص على عائشة ورجعها الي المدينة ثم قصد معاوية فقاتله فلما كاد يأسره احتال عمرو بن العاص كبير قواده فأمر بمض جنوده برفع المصاحف على رؤس الرماح اشارة الى طلب التحكيم الي كتاب الله . فابي عليهم ذلك باعتبار انها حيلة . فاختلف عليه اصحابه واجبروه علي قبول التحكيم . فلما قبله انشقت عنه طائفة لم يرضها ما فعل وتجمعوا عند نهر النهروان فزحف عليهم فقاتلوه قتالا مرارتي بادوا ثم رجع الي المدينة منتظرا التحكيم . فاجتمع الحكمان ابو موسى الاشعري عن علي وعمرو بن العاص عن معاوية فاتفقا علي ان يعتزل كلا الرجلين امر المسلمين وان يؤخذ رأي الناس فيمن يصلح للخلافة . فلم يقبل علي واصحابه هذا الحكم واعتزم الزحف علي معاوية للفراغ من اسره

في ذلك الوقت اتفق ثلاثة رجال علي قتل علي ومعاوية وعمرو بن العاص بحجة انهم سبب هذه الحروب الاهلية التي كادت تقضي علي المسلمين ، وجعلوا لتنفيذ جنائياتهم يوما معينا . فاما قاتل علي فتمكن منه وهو خارج لصلاة الصبح وكان لا يتخذ حرسا . واما غريم معاوية فاصابه بالسيف في عجزه فلم يصيبه كبير اذى . واما طالب عمرو بن العاص فقتل نائبه علي الصلاة لانه اتفق ان حدث له ما يمنعه في ذلك اليوم عن الجماعة فاناب عنه احد رجاله

لما قتل علي انتخب الناس للخلافة الحسن ابنه . فلما رأى المسلمين اصبحوا

فوهي ، وأن الحرب الأهلية تكاد تقضى على وحدتهم قبل ان يتنازل عن الخلافة
لمعاوية بشرط ان يكون هو ولي عهده . فرضي معاوية هذا الحبل واستتب له الامر
واتخذ دمشق عاصمة للمملكة مكان المدينة . ولبت خليفة عشرين سنة ماتت في اثنائها
الحسن بن علي ، فعهد بالخلافة الي ابنه يزيد وكان منتهكا فاسقا مدمن الخمر فيه صفات
اهل الجاهلية

فلما مات معاوية وتولي ابنه يزيد اعلنت المدينة عصيانها ، وخرج عليه عبد الله بن
الزبير بمكة ونودي به خليفة بها ، وتبعته المدينة ومصر والعراق ، وخرج عليه الحسين بن
علي بالكوفة ، فقاتله حامل يزيد وقتله وارسل اليه برأسه

ثم ارسل الي المدينة بأحد قواده فأوقع بأهلها شرا بقاء وقتل من اصحاب النبي
بين قرشي وانصاري سبع مئة ، ومن غيرهم ممن كان معهم نحو عشرة آلاف . ثم قصد
مكة ليأخذها بالمدينة فلم ينجح واتفق موت يزيد في تلك الاثناء فرجع قائده خائبا
فتولي بعد يزيد ابنه خالد وكان زاهدا تابدا ينكر على ابويه ما فعلوا فلم يلبث الا
اربعةين يوما ثم تنازل عن الخلافة . فولاه بنو امية مروان بن الحكم مستشار عثمان
والسبب في قتله . فلم تطل مدته . وخلفه ابنه عبد الملك بن مروان . فأرسل قائده
الحجاج ففتح له مكة وقتل عبد الله بن الزبير بعد ان ضربها بالمجنون حتى هدم ركنا
من أركان الكعبة . فاستتب الامر لعبد الملك ، وانقطعت الفتنة الا بعض الخوارج
في بعض الجهات فسحقهم الحجاج

ولما مات عبد الملك خلفه اولاده حتى انتهى الامر الي مروان بن محمد ، فخرج عليه
ابو مسلم الخراساني بخراسان واعيا الناس الي مبايعة ابي العباس السفاح من ذرية
عبد الله بن عباس ، فقاتله بنو امية فهزمهم في كل مكان ، حتى تم له النصر . فبويج
ابو العباس السفاح بالخلافة . وبه بدأت اسرة العباسيين

بعد هذا البيان نرجع لمناقشة الدكتور طه حسين فقد قال : « ولما تولى عثمان
تقدمت الفكرة السياسية التي كانت تشغل اباسفيان خطوة اخرى »
والفكرة السياسية التي يذكرها الدكتور طه حسين وينسبها لابي سفيان هي ان

يعود السلطان لقريش الوثنية بعد ان صار للائمير وقريش المسلمة ، ولمكة بعد ان انتقل الي المدينة . ونحن في هذا المقام نجب ونساءل كيف وصل الي الله كتور طه حسين ان ابا سفيان كان يظن هذه الامنية ، ويترقب لها الفرص ، ولم يعلم ذلك النبي صلى الله عليه وسلم حين استصحبه في حربه بالطائف ، وحين ارسله لهدم بعض الاصنام ، وحين ولاه على الصدقات بنجران ، ولا عمر حين ارسله الي حرب اليرموك وقد ابلت في كل ذلك بلاء حسنا حتي قلمت عيناه في المعارك واصبح كفيفا يقوده غلام له الي حيث اراد ؟ وقد ولي عمر ابنه يزيد على الشام ، فلما مات ابلغه خبر وفاته وعزاه . فسأل له ابو سفيان عن ولاه الشام بعده . فقال له عمر ولينا اخاه معاوية (يعني ابنه الثاني) فشكر له ابو سفيان عنايته به وبينه (نبيه القاري) ان ابا سفيان كان له ابن اسمه يزيد وهو غير حفيده يزيد بن معاوية .

فهل يعقل ان يعمي جميع معاصري ابي سفيان عن دخيلة امره ، وما ينتج منه نوايا السوء في صدره ، فيولوه ويولوا اولاده المخطط الرفيسة ، ويملكهم نواصي الجيوش والولايات ، ونظلم نحن بعد الف وثلاثمائة سنة على ما كان يخفيه في اقصى احشاء قلبه ، وأخفى ثنايا جوانحه ؟ هل حدث بذلك احدا فأنشاه بعد مماته ؟ هل خان الامانات التي عهدت اليه في حياة النبي أو بعد وفاته ؟ هل حمل جيشا على عصيان ، او اتار قبيلة على شق عصا للطاعة ، او خابرة اجنبية لمساعدته ؟ او عهد الي ابنه بتنفيذ مقاصده ؟ وقد تولى احدهما وهو يزيد بن ابي سفيان الشام ومات في حياة عمر ، ثم تولاهما ابنه الآخر معاوية بن ابي سفيان ولبت بها واليا عشرين سنة وخليفة عشرين اخرى ، فلم يبد من احدهما ما يدل على السعي لتحقيق هذه الامنية التي يلصقها الدكتور طه حسين بأبي سفيان بن حرب

يقول الدكتور طه حسين : « لما تولى عثمان تقدمت الفكرة السياسية التي كانت

تشغل ابا سفيان خطوة اخرى »

ومعنى هذا انه كان هنالك تيار سياسي يتوقع اشتداده بتولى بني امية الخلافة . فاذا كان ذلك صحيحا فكيف لا يفتن له بنو هاشم خاصة ، ولا تفتن له كذلك قريش عامة ، فيولوا رجلا من تلك الاسرة الخلافة ، ويمكنوه من قلب دولتهم رأسا عن عقب ؟

لم يقتلوا له الحسن بن علي من الخلافة بعد مشاورة جمهور المهاجرين والانصار ؟
لم يصبروا على خلافته عشرين سنة لم يحرك فيها احد منهم ساكنا ؟ هل الامة التي ثارت
على عثمان بن عفان الملقب بذى النورين لزواجه من ابنتين لرسول الله صلى الله عليه
وسلم الواحدة بعد موت الاخرى ، وصاحب اليد البيضاء في الاتفاق على الجيش
الملقب بجيش العسرة ، والذي اجمع المسلمون بعد موت عمر على انه اولي الناس
بالخلافة ، قلنا هل الامة التي ثارت عليه وقتلته تخضع لماوية بن ابي سفيان وليس
له ماض مجيد في الاسلام ، ولا سابقة حسنة تذكر له مع السابقات التي لغيره من
الذين كانوا لا يزالون احياء ، فتتركه يدبر عود الجاهلية اليها ولا تقطن لما يعمله وما
ينتويه من هذه الامور الجسام . اننا لاجل ان نصدق مثل هذا الخيال يجب علينا
قبل ذلك ان ندع عقولنا جانبا ونجرب وراء كل خاطر يزينه لنا الوهم باسم تصيد
اسباب اى امر كان

يقول الدكتور طه حسين : « فلم تصبح الخلافة بتولى عثمان في قرش فحسب ،
بل اصبحت في بني امية خاصة ، واشتدت عصبية قرش ، واشتدت عصبية
الامويين ، واشتدت العصبية الاخرى بين العرب وكان من نتائج ذلك قتل عثمان
وانتهاء الامر كله الى بني امية »

ونحن نقول ان معير الخلافة الى بني امية لم يكن يعتبر شيئا يذكر في عهد
الصحابة عامة وبني هاشم خاصة . ولو كان يعتبر امرا يُعتد به لاحتاطوا له ، ولمنوا
وقوعه والسلطة في ايديهم

ان هاشمية زيد واموية عمرو وقرشية بكر واعجمية خالد ، كانت في عهد
الصحابة معتبرة من الامور الجاهلية ، وكانت هي وانثوية والتفاخر بالآباء في مستوى
واحد . ألا ترى انه لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ولى المسلمين ابا بكر وهو
ليس من هاشم في شيء وتركوا ابن عم رسول الله على بن ابي طالب على هاشميتيه
وكفايته ، وقد احتج هو على ذلك وامتنع عن مبايعة ابي بكر وحمل امرأته بنت رسول
الله على ان تطوف على جماعات الصحابة شاكية من هضم حق زوجها فلم يأبه

لشكايتها احد؟ فلما توفي ابو بكر ولوها عمر بن الخطاب وليس من هاشم في شيء؟
ألا تدل هذه الحوادث المتكررة على ان المسلمين في ذلك العصر لم يكونوا يأنهون لمثل
هذه السفاسف اتقيادا لوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قوله: « اسمع وأطع
ولو ابد حبشي كأن رأسه زبيبة » مادام قد انتخبته الامة ليحكمها باسمها عملا
بقوله صلى الله عليه وسلم: « مارآه المسلمون حسنا فهو حسن » و « لا تجتمع أمق
على ضلالة »

اما قول الدكتور: « واشتدت عصبية قريش » فليس بصحيح لانه لم يحدث
ان قريشا في عهد عثمان سلبت من عداها حقا كان لهم، او خصت نفسها بزية
دونهم. فعلى اى دليل نستند للحكم عليها باشتداد العصبية؟ هل ثار عليها
ثأرون متهميا بهذه النقيصة؟ هل استقلت بعض الولايات استنقالا لثير هذه
القبيلة؟

اما قوله واشتدت عصبية الامويين فهذا صحيح، وقد ظهرت هذه العصبية بمظهرها
الطبيعي من توزيع الولايات على الاقارب والاشياع، ولكن لا تدس ان هذه العصبية
قد لقيت جزاءها اذ ثار الناس على الخليفة فقتلوه واسندوا الخلافة لسواه، وهذا
دليل على ان بنية المجتمع الاسلامى في ذلك العهد كانت لا تحمل العصبية.
فلما حدثت لفظتها لفظ النواة بار تكاب اقسي ما تركبه امة لاصلاح ما فسد،
وهو الثورة

واما قوله واشتدت العصبية الاخرى بين العرب، فليس بصحيح لعدم حدوث
أى مظهر يدل عليه، ومن أدل مظاهرها انفصام الرابطة العامة بين عناصر الامة
وزوال الوحدة التي تجمعها، كأن تستقل الاقاليم البعيدة عن المركز العام، وتؤلف
لنفسها حكومات خاصة بها. وكان تقطع القبائل المتبديدة العلاقات التي تامل بعضها
ببعض وتربطها جميعا بالحكومة الرئيسية، فتمتنع عن تادية ما عليها من الاموال قبل
تلك الحكومة وتطرد عمالها. وكان ينتدب بعضها لمقاتلة بعضها الاخر الخ الخ.
هذا أدل مظهر على اشتداد العصبية، فهل حصل شيء من ذلك؟ لا، بل تولي عثمان
فراينا القبائل والاقاليم المؤلفة للدولة الاسلامية على ما كانت عليه من الوحدة

الاجتماعية . وعيبت مستشاره بتلك الولايات فأُسندها الي اُغيلة لا يحسنون صناعة الحكم ، ولا سياسة الجماعات ، فأثر ذلك في نفوس اهل الاقاليم وحملهم على احداث ثورة ، ولكنه لم يحل رابطتها العامة ، اى لم يولد فيها روح العصبية التي أظهرُ مظاهرها استقلال كل منها برأسه وعدم تعلقه بغيره ، مع ان قتل عثمان كان يصلح ان يكون فرصة لحدوث تفكك تام في اجزاء تلك المملكة الناشئة لو كان هناك ظل من عصبية فضلا عن عصبية شديدة

ثم لما تولى على بن ابي طالب لم تتأثر تلك الوحدة بل زادت وضوحا وتماسكا رغما عن عصيان معاوية ، وخروج عائشة وطلحة والزبير والخوارج على الخليفة الجديد

نعم زادت تلك الوحدة وضوحا وتماسكا دلت عليهما تلك الفتن الأهلية نفسها . فان الجنود والقواد الذين اشتركوا في هذه الفتن لم يكونوا جماعات متجانسة جمعتهم العصبية القبلية ، ولكن فئات جمعتها المذاهب السياسية . فالجنود والقواد الذين انتصروا لمعاوية لم يكن فيهم بنو امية الا كقطرة في بحر لان بنى امية اجمعين ابنا اسرة واحدة قد لا يبلغون المئتين عدا ، ولكن الجيوش الجرارة التي تحزبت لمعاوية كانوا من قبائل شتى جمعها المذهب السياسي لا العصبية القبلية

وكذلك تحزب لعلى بن ابي طالب الانصار جميعهم وهم بنو الاوس والخزرج من القبائل اليمنية ، وعشرات الالوف من الجنود من قبائل شتى كان القرشيون فيهم لا يبلغون جزءا من مئة

وكذلك الجيش الذي لبي دعوة عائشة وطلحة والزبير . كان اكثره من العراق قاموا يطالبون بقتلى عثمان الاموي (تأمل) وليس فيهم واحد من الامويين . بل ولم تك عائشة ولا طلحة ولا الزبير يُمْتون لعثمان بأقل قرابة

وكذلك الخوارج الذين خرجوا على على بن ابي طالب وقاتلوه عند النهروان كانوا خليطا من قبائل متفرقة

فهل تريد دليلا اقوى من هذا على ان روح العصبية القبلية كانت مُحَققت بتأثير الاسلام وحيات محلها وحدة جامعة لا تتأثر الا من وجهة الآراء والمذاهب السياسية

كما تناثر بها كل امة في الارض الى اليوم
فان كان الدكتور طه حسين يستنتج اشتداد المصيبات من صدور قضاة من شعراء
في الافتخار بقبلاتهم، او من اغراء زعيم فاجر لبعض الشعراء على ذم بعض المناصر المتكوتة
للمجموع الاسلامي، فان هذا لا يصح ان يبر عنه في علم الاجتماع باشتداد المصيبات،
لانها امور شخصية لا يتعدى تأثيرها الافراد، ومثلها يوجد في كل امة وفي كل جيل من
الناس، وانما يعني علم الاجتماع بما يؤثر على المجموع فيعمل على تفكيكه او يحدث
اعراضا خاصة مستقلة عن اعراض العلة العامة. فالتالي لب علي قتل الخليفة الثالث
عثمان بن عفان، ينظر فيه، فان كان الباعث عليه انه اموي كان ذلك من آثار العصبية.
وان كان الحامل عليه امور عامة تهم المجموع، فلا يكون من آثار العصبية، بل من
آثار الغيرة على الحقوق والكرامة العامة. فلننظر فيه نظرة اجتماعية، لتحديد عوامله
الحقيقية:

يقول الدكتور طه حسين: « كان من نتائج اشتداد المصيبات قتل عثمان وانهاء
الامر كله الي بني امية »

ونحن نقول ان الناظر لهذا الاجمال يخيل اليه ان امر المسلمين في عهد عثمان اصبح
كله تابعا لعوامل المصيبات الجاهلية التي تكون بين الامم المنحلة او التي على وشك
ان تزيلها روح الوحدة الاجتماعية، وان قتل عثمان كان بسبب انه من بني امية لا
لسبب آخر من الاسباب التي تدفع الامم الحية الي الثورة. فلازالة ماعسي ان يطلق
بالاذهان من هذا الخطا النار ينخي الخطير، وما يندس في الصدور من تحقير ذلك المجتمع
الناشي، رأينا ان نكشف العوامل الحقيقية لهذه الثورة ونبين نتائجها على الاسلوب
العلمي انصافا لتلك الدولة التي اعدت لاحداث اكبر الانقلابات الاجتماعية والعلوية
والمدينة في الارض فنقول:

تولى عثمان الخلافة بانتخاب المؤتمر الذي دعا اليه عمر وهو يوجد بنفسه. ولم ينظر
في تعيينه انه من بني امية او من بني هاشم او من غيرهما بل نظر الي كفايته. يدل
على ذلك ان الذين انتخبوه لم يكونوا امويين وقد بايعه الناس كافة مرتاحين الي
ولايته، مستبشرين باوامره، باعتبار انه من اصحاب السابقات الحسنة، والماضي

الخليل بجلال الاعمال.. فاتفق انه كان من ضعف الارادة بحيث تغلب عليه قريب له يدعي مروان بن الحكم وهو واحد من الذين عضوا على الوثنية بالنواجذ حتى فتح النبي صلى الله عليه وسلم مكة وامن على مشركيها بالعفو العام فدخلوا في الاسلام حقنا لدمائهم ، وربهم اعلم بنياتهم

اسمولى مروان على ارادة عثمان فحدث احداثا رآها الناس من احكام الجاهلية فنقموا على الخليفة وكرهوا حكومته . ونحن نؤانك بالوجوه التي قم الناس عليه من اجلها منقولة من كتاب الامامة والسياسة لابي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة المتوفى سنة (١٧٠) للهجرة صفحة ٣٦ من الطبعة الثانية قال :

« اجتمع فاس من اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وكتبوا كتابا (يريد ان يقول نشرها بياناً عن الحاة) ذكروا فيه ما خالف فيه عثمان من سنة رسول الله وسنة صاحبيه وما كان من هبته خمس افر يقية لمروان وفيه حق الله ورسوله ، ومنهم ذور القربي واليتامى والمساكين ، وما كان من تطاوله في البنيان حتى عدوا سبعم دور بناها بالمدينة ، دارا لناثلة ودارا لعائشة وغيرهما من اهلها وبناته ، وبنيان مريران القصور بذي خشب ، وعمارة الاموال بها من الخمس الواجب لله ورسوله ، وما كان من افشائه العمل والولايات في اهلها وبنى عمه من بنى امية احداث وغلمة لا صحبة لهم من الرسول ولا تجربة لهم بالامور . وما كان من الوايد بن عقبة بالكوفة اذ صلى بهم الصبح وهو امير عليها سكران اربع ركعات ثم قال لهم ان شتم ان ازيدم ركعة زدتم . وتمطيله اقامة الحد عليه وتأخير ذلك عنه ، وترك المهاجرين والانصار لا يستعملهم على شيء ولا يستشيرهم ، واستغنى عن رأيه برأيهم وما كان من الحمي الذي حمي حول المدينة . وما كان من ادراة القطائع والارزاق والاعطيات على اقوام بالمدينة ليست لهم صحبة من النبي عليه السلام ثم لا يغزون ولا يذبون . وما كان من مجاورته الخيزران (في اقامة الحدود) الى السوط وانه اول من ضرب بالسياط ظهور الناس ، وانما كان ضرب الخليفتين قبله بالدرة والخيزران » انتهى

هذا ما قمه الناس على عثمان ، وهو ما لم يعهدوه منذ تولى امرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم خليفته من بعده ، فكان الصبر عليه فوق ما صبروا من اول عهد عثمان

مما لا سبيل اليه . فانتشر التدمر في الولايات ، وعم القلق والاضطراب جميع البلاد
وانجذب قوم من مصر والكوفة للشخص الى المدينة لوضع حد بالقوة لهذه الحالة
السيئة . فاقبل الف رجل من الكوفة واربع مئة من مصر وحاصروا عثمان في داره
فدخل الدار معه مئة رجل من قبائل شتى منهم عبد الله بن الزبير والحسن بن علي
وعبد الله بن سلام وابو هريرة والمغيرة بن شعبة وغنيرم . وكان ينصره خارج الدار
رجال آخرون . وكان لا يود رجل يعتد به في المدينة ان يعصيه اذى وان كان الجميع يودون
ان يعتزل أو يستقيم . فحدث منه ما غير جميع القلوب عليه ، وذلك انه كان ولي علي
مصر رجلا من الذين كان استباح النبي صلى الله عليه وسلم دمه لسوء اثره في مناهضة
الإسلام والمسلمين ، فاختفى ثم ظهر بعد وفاته ، وهو عبد الله بن ابي سرح ، فسلك في مصر
سيرة الجبارين العاتين فاقود اهلها رجلا منهم الى عثمان يشكونه اليه ويرجونه ان
يبدل به سواه . فلي طلبهم وولي مكانه محمد بن ابي بكر فخرج في جماعة من المهاجرين
والانصار ، فلما كانوا على مسيرة ثلاث ليال من المدينة صادفوا غلاما اسود ينفذ
السير على بعير فاستوقفوه وسألوه عن نفسه فاضطرب في الجواب ، وكان يقول تارة
انه غلام عثمان ، وطورا انه غلام مروان بن الحكم . ولما فتشوه وجدوا معه كتابا
ينحتم عثمان الى عبد الله بن ابي سرح فقرأوه فاذا فيه : « اذا اتاك محمد بن ابي بكر
وفلان وفلان فقتلهم وأبطل كتابهم وأقر على عمالك حتى يأتيك رأيي » ففزعوا مما
قرأوا ورجعوا الى المدينة وعرضوا على كبراءها الكتاب ، فلم يبق احد الا حنق على
عثمان وتركوا الثامر ين فعلون ما بدا لهم . فشددوا عليه الحصار ومنعوه الماء وطلبوا
اليه ان يسلم اليهم مروان بن الحكم الذي اتهموه بانه كاتب هذا الكتاب . فلم يقبل
عثمان ان يسلمه وبيناهم على تلك الحال اذ بلغهم ان معاوية بن ابي سفيان قد ارسل
اليه مددا اربعة آلاف رجل فحملهم ذلك على الاسراع في الانتهاء منه ، فاحرقوا
الباب واقتحموا عليه الدار وقتلوه . فانهال الناس علي علي بن ابي طالب من كل
مكان يعرضون عليه الخلافة فابي فما زالوا به حتى قبلها . فكان ما كان مما ذكرناه في
الفذلكة التاريخية السابقة

لماذا يري القارىء في هذه الحادثة الاجتماعية غير ثورة قومية علي حكومة غاشمة

استبدادية؟ أين اثر العصبية من عوامل هذه الثورة ، وقد قام بها رجال من قبائل شتى لا تجمعهم غير الوحدة السياسية، والمصاحبة الاجتماعية؟

ان من الامور التي نقمها المسلمون على عثمان عصبية الاموية ، وعدم مساواته بين الناس في الحقوق المدنية، فكيف يقال ان الذي بعث اليها هي العصبية ، وان الذي سبب قتل عثمان هي العصبية؟ اللهم الا ان قيل انها هي العصبية التي ظهر بها بنو امية ، وقررت منها تلك الهيئة الاجتماعية

انا في هذا المقام لا نطالب انفسنا من الدهش العظيم من استعصاء تلك الوحدة التي اوجدها الاسلام للعرب على المحلات ، حتي انها قاومت جميع عوامل التحليل وتغلبت عليها ، وقد كان العرب يضرب بهم المثل في الفرقة والعصبية؟
 هم نرى ماوجب الدهش والحيرة . نرى قبائل كانت بالامس في حالة تفكك لا يرجي له التثام لكل منها تاريخ خاص ، وما اثر قائمة على النكابة بين حولها من بني جنسها، ومفاخر مؤسسة على سفك دماها ، واجتياح ثمراتها ، وقد مر عليها في هذا الدور من التدابر مئات بل الوف من السنين ، تظهر في عهد الاسلام كتلة مندمجة تستعصى على جميع عوامل التحليل ، فلا يؤثر فيها ما يؤثر بغيره في الامم ، ثم تخرج من جميع هذه الادوار كتلة مندمجة كما كانت فتحدث في العالم ذلك الحدث الضخم الذي قلب الارض ومن عليها من حال الي حال اخرى . لعمري ان هذا لا أعجب مارأيناه في تطورات الامم . فلا يصح ان ترمي العناصر المؤلفة لهذه الامة بالعصبية ، بل يجب ان ينوه بالتضحيات العظيمة التي بذلتها لامانة العصبية ، مما لم يعهد له مثيل في تاريخ الهيئات الاجتماعية ، على هذا النحو من الانتقالات الفجائية

ولقد اثبتت هذه الثورة التي انتهت بقتل الخليفة الثالث على ان الاصول التي كانت تقوم عليها الجماعة الاسلامية الاولي خير الاصول الاجتماعية ، كما يدل على ذلك نص البيان الذي وُجه الى الامة ونقلناه في الصحف المتقدمة

لقد كان اسر على العرب واشبه بما كانوا عليه منذ قليل ان ينهزوا هذه الفرصة النادرة من اختلال الحكومة الرئيسية فتستقل كل ولاية بنفسها ، وكل قبيلة برأسها

وتخلص من ولاة السوء ، وعمال الفساد ، ولكن الوحدة التي صبها الاسلام في قلوبها كانت من الاندماج والتماسك بحيث آثرت هذه الولايات والقبائل ان تخاطر بنفسها واموالها لاصلاح الحكومة المركزية على ان تحدث حدثا يكون من ذرائع تفكك روابطها الاجتماعية ، كأنها امة عريقة في الوحدة القومية ، اصيلة في النزعة الوطنية

يقول الدكتور طه حسين : « وطاد العرب الي شر مما كانوا فيه من التنافس في جميع الامصار الاسلامية ، ويكفي ان اقص عليك ما كان من تنافس الشعراء من الانصار وغيرهم عند معاوية ويزيد ابنة »

ونحن نقول : ان عبارة وطاد العرب الي شر مما كانوا فيه من التنافس في جميع الامصار الاسلامية فيها قسط كبير من المبالغة الشعرية . لانا نعلم وكل الناس يعلمون ان العرب قبل البعثة المحمدية كانوا على أشد ما يكونون من التفرق والتفكك . كل بلادهم العامرة الخصبية كانت واقعة تحت النير الاجنبي ، وكانت قبائلهم في وسط بلادهم على حالة من التناحر لا تبنى ولا تذر . فلا يعقل انهم يكونون بعد مقتل عثمان قداموا الى مثل هذا او شر منه . وما حدا بالدكتور طه حسين الى مثل هذه المبالغة الا قصر نظره على اخبار الشعراء ، واتخاذ ما حدث بين بعضهم والبعض الاخر اساسا للحكم على هيئة اجتماعية ناشئة في حالة تطور تعمل فيها عوامل من انواع شتى لاستجاشة ما كمن من خصائصها المعنوية والمادية . ولكن اخبار الشعراء واهل البطالة ممن يستمعون لهم او يشتررون ضمائرهم ، مما يحشوه مؤلفو كتب المحاضرات كالاغانى والعقد الفريد والبيان والتبيين وغيرها ويحيطونه بجو من التهويل والبهتان لا يصح ان يعتبر ميزانا تقدر به الامور الاجتماعية

انا لا انكر انه كان تنافس بين العناصر المؤلفة للمجموع الاسلامي في ذلك العهد ، ولكني ارى ان هذا التنافس في ذلك الجيل من الناس كان مظهرا من مظاهر الحياة والحركة النفسية اللتين لا تتجرد منه امة في حالة نمو وتطور . فهاذا انت قائل لو قرأت بجرائد الاحزاب المتعارضة لامة من الامم المتعددة المعاصرة لنا ، وكل منها ترفع

الحزب الذي تنتمي اليه الى ارفع مما يبلغه التصور وتخط من قيمة الاحزاب الاخرى
حطاً لا تراعي فيه الا ولا ذمة . هل تسوّغ لك هذه النظرة السطحية ان تقول
ان هذه الامم قد مزقتها المصيبات ، وفرقتها المنافسات وانها لا تلبث ان تنحل
انحلالاً لا دواء له ؟ لا . لأن الوحدة الاجتماعية متى استحسنت تنقلب الى ما يشبه
الاندماج المادي فلا تنفكك من تلقاء نفسها بأى عامل من العوامل الذاتية ، ولا بد
لتفكيكها من عوامل خارجية تقيها على قبول هذه الحالة . واكثرت تعود الى الوحدة
متى زال عنها ذلك العامل الخارجي

نعم قد يحدث ان تستقل بعض اجزاء الامة عن بعضها الآخر بسبب فتنة
داخلية ولكن تلك الاجزاء تميل دائماً للالتئام ، ويظهر ذلك الميل بميل بعضها الى
ادخال البعض الآخر في حظيرته بالقوة ، ولا تزال تلك الاجزاء بين جذب ودفع حتى
يتم الامر برجوع وحدتها اليها

مثال ذلك الامة الاسلامية نفسها في اول تكوينها فانها بعد ان انصب مجموعها في
قالب الوحدة الاجتماعية بتشابك مصالحها المادية والمعنوية حدثت فيها احداث كان
يكفي بعضها لان يرجعها الى تفكيكها الاول ؟ وتلك الاحداث كاستئثار القرشيين
بالحكم بعد النبي صلى الله عليه وسلم على منافاة الاسلام نفسه لهذا الاستئثار ، فلم يسع
الانصار الا تضيحية منفعتهم في سبيل الوحدة فخضعوا لرأى مناظرهم ، وفي مستقر
عزم وصولتهم . ثم حدثت فتنة ارتداد القبائل العربية بعد وفاة النبي صلى الله عليه
وسلم ، فدقت طبيعة الوحدة الاجتماعية الطائفة التي هي نواتها الاصلية الى اخضاع ما
شد عنها بالقوة فتم لها الغلب

ولما قتل عمرو وتولى الخلافة عثمان وكرهت الناس حكومته واضطربت احوال
الاقاليم ، كانت هذه الفوضى تكفي لتفكيك عرى تلك الوحدة الناشئة ان
كانت مصطنعة . ولكن شيئاً من ذلك لم يكن ، بل حدثت ثورة ردت الامر
الى نصابه

ولما انتخب علي بن أبي طالب للخلافة وخرج عليه معاوية وطائفة وطلحة
والزبير والخوارج لم يدعهم وشأنهم ، بل اتدب لاادة الوحدة الى حالتها ، فتغلب علي

جميع الخارجين عليه الا معاوية ولو بعمر قليلا لتغلب عليه او تخضع له في سهيل
الوحدة العامة

فلما تولى الحسن بن علي كانت الفرصة سانحة لتفكك تلك الوحدة ولكنها
لم تحدث بل ضحى ذلك الامير بمصلحته الشخصية ، وتنازل عن الملك لمعاوية صيانة
لتلك الوحدة

ولما مات معاوية وتولى الامر ابنه يزيد، وكان متهتكا ساقطا، فشرع المجموع بأن
الضعحية في الخضوع لهذا الطاغية تقضى الي أسوأ النتائج فتفككت الوحدة الاجتماعية
فخرجت المدينة ومكة ومصر والعراق . وتعدد الدعاة الى انفسهم ولكن طبيعة الوحدة
اضطرت هذا المترف للعمل على اخضاع الخارجين فأتى اخضاع المدينة ومات وهو
يجد في اخضاع مكة

ولما خلفه ابنه خالد ومروان بن الحكم لم يتمكنوا من ارجاع الوحدة الي ما كانت
عليه لتنازل الاول بعد ايام ولموت الثاني بعد قليل من ولايته . فلما خلفه ابنه يعقوب
الملك سعي لهذا الامر سعيه فرجعت الوحدة لتماسكها الاول واستقرت على
تلك الحالة

هذه طبيعة كل وحدة اجتماعية تقوم على اساس ثابت ، وايمان صحيح
بقيت مسألة المنافسات الشعرية التي يهادفها القارىء في كتب المحاضرات محاطة
بلعائف من التلفيقات والتهويلات ، وهي ليست بشيء سوى اعراض ملازمة لكل
مجتمع انساني قريب عهد بالحياة القبلية
على ان النظرة السطحية في تلك الحكايات تريك انها ملفقة تافيقا خاليا من
كل مهارة وذوق

مثال ذلك ما نقله الدكتور طه حسين ان عبد الرحمن بن حسان شذب برمسة
بنت معاوية نكابة فيه وتبعاً لذلك نكابة في ابنه يزيد اخيها الذي يقول عنه
الدكتور طه حسين انه ككجده ابي سفيان في انه كان مطبوعا علي القوة
والجاهلية والفتك . قال الدكتور فاصطنع معاوية الحلم وقال له اين انت من
أختها هند ؟

لعمرى انه يجب ان يكون لدى القاريء قسط غير قليل من البله ليستطيع ان يصدق ان معاوية بن ابي سفيان زعيم قريش وامير المؤمنين يقابل شاعرا غاسقا ساقط المنزلة ينتهك حرمة بأشتم ما يأت منه الرجل الساذج بأنه الشريف العظيم بمثل هذا الدم البارد ، ويعريه بالتغزل باختها اى بابنته الثانية . فأين كان يزيد الذى يوصف بالقوة والفتك ليدافع عن كرامة اخته ، ويحمي عرضها من لسان رجل لا فى العير ولا فى النغير ؟

ولا ننسى هنا ان نقول فى هذه المناسبة ان الدكتور يصف يزيد بأنه كان صورة لجدء ابي سفيان فى العصبية والفتك والسخط على الاسلام . ولكن المعروف بالاجماع ان ابا سفيان أسلم وهدم بعض الاصنام وأبلى فى المارك لنصر الاسلام بلاء حسنا حتى فقد كلتا عينيه ، وانه ولى لامانته وصدق عزيمة على صدقات نجران باليمن فأدى كل ما عهد اليه بجد وباستقامة حتى توفاه الله . فمن اين استنتج الدكتور طه حسين انه كان رجل عصبية وقوة وفتك وانه كان يكره الاسلام وما سببه للناس من سنن ؟ لعمرى لو صح ان نفسه كانت على ما يصفها به الدكتور طه حسين مع - لو كه هذه السيرة حياىال النبي صلى الله عليه وسلم ، وحيال الاسلام ، وحيال الوثنية ، وحيال انصار الجاهلية ، لوجب ان نصح ابا سفيان هذا بأنه كان اجبن الجبناء ، واضعف المنافقين ، واخس من مشى على الغبراء

يقول الدكتور طه حسين : « ولقد يستطيع الكاتب السياسى ان يضع كتابا ضحفا فى هذه العصبية بين قريش والانصار وما كان لها من التأثير فى حياه المسلمين ايام نبي امية ، لا نقول فى المدينة ومكة ودمشق بل نقول فى مصر وافر يقبا والاندلس ويستطيع الكاتب فى تاريخ الادب ان يضع سفرا مستقلا فيما كان لهذه العصبية بين قريش والانصار من التأثير فى شعر القر يقين الذى قالوه فى الاسلام ، وفى الشعر الذى اشجله الفريقان على شعرائهما فى الجاهلية وقد تجاوزت العصبية هؤلاء الى العرب كافة فتعصبت العدنانية على اليمانية ، وتعصبت مضر على بقية عدنان ، وتعصبت ربيعة على مضر ، وانقسمت مضر نفسها وكانت فيها العصبية القيسية والتميمية

والقرشية ، وانقسمت ربيعة فكانت فيها عصبية تغلب وعصبية بكر . وقل مثل ذلك في اليمن فقد كانت للازد عصبيتها ولحمير عصبيتها ولقضاة عصبيتها . وانت تعلم حق العلم ان هذه المصبيات هي التي ازالها سلطان بني امية لانهم عدلوا عن سياسة النبي التي تريد عمو المصبيات ، واراودوا ان يستزوا بفريق من العرب على فريق . قوا العصبية ثم عجزوا عن ضبطها فادالت منهم بل ادالت من العرب للفرس »

ونحن نقول ان مؤدى هذا الكلام ان العصبية الجاهلية التي امامها الاسلام عادت نقشت في العرب بين قبائلهم الكبرى وطمت حتى فرقت بين بطون وانحازت تلك القبائل فاصبح الكافة على شر مما كانوا عليه من الانقسام والتدابير . ولكن الكاتب السياسي الذي يذكره الدكتور طه حسين لا يستطيع ان يقيم لهذا الكلام وزنا لانه يرى النتائج المحسوسة لاتتفق وهذه المقدمات المفروضة . وهو ليس لديه من ميزان لتقدير قيمة العوامل الاجتماعية التي عملت في امة من الامم السابقة ، ولا من محرك لتمييز صالحها من فاسدها غير ثمرات الجهود التي بذلتها تلك الامة . فهي الشاهد الذي لا يكذب المؤرخ المحقق ، وهي الواقع الذي لا معدل عنه الى غيره في الحكم على جيل من الناس تختلف الاقوال في امره

فإذا يرى السياسي من الامور الواقعية في عهد الدولة الاموية منذ استقام الامر لعبد الملك بن مروان الى انقضاء دولة بني امية سنة (١٣٢ هـ) ؟
يري امرين لاسبيل الى انكارهما : (اولهما) استمرار الوحدة الاجتماعية في الامة العربية . و (ثانيهما) اتساع المملكة الاسلامية في عهدها الى حد لم تدره دولة قبلها

ولكن كتب المحاضرات كالاتاني والعقد الفريد والبيان والتبيين وغيرها تذكر لنا حكايات عن الشعراء والادباء قد اختلق اكثرها المختلقون ، وموه ماصح منها الموهون ، فيقرأها القارئ اليوم فيخيل اليه ان العصبية الجاهلية ، واختلاف الاهواء القبلية كانت قد بلغت من الامة الاسلامية في العصر الاموي الى حد ليس بعده غاية ، ثم يلتقي نظره على التاريخ فيجد ان الامة الاسلامية في ذلك العهد تقسه

قد بلغت من الملك الى مدى لم تستطع الدول التي جاءت بعدها ان تزيد عليه شيئا واحدا . فاذا كانت العصبية قد وصلت الى الحد الذي تخيله لنا حكايات الشعراء في العصر الاموي فكيف تبقى معها وحدة اجتماعية ؟ واذا كانت الوحدة الاجتماعية قد تفككت عراها باشتداد تلك العصبية فكيف نمت قوى الامة وفاضت حتى امتدت الى خارج بلادها وبسطت سلطانها على امم قوية لم تحمل نير امة قبلها قط؟

هنا يجب علينا ان نلبه الذين يقرأون الكتب الادبية المؤلفة في العهد العباسي وهو ما بين القرن الثاني الى السابع الهجري الى امر جدير بالنظر . وهو ان العباسيين كانوا يكرهون الامويين ويحقدون عليهم الى حد انهم نبشوا قبور خلفائهم واخرجوا هياكلها العظمية وصلبوها على قارمات الطرق ثم احرقوها وذرّوها في الهواء . وكان الذي يذكر للامويين حسنة يتهم بانه مشايخ لهم فيذيقونه ألوان العذاب . وكثيرا ما كان مؤلفو المحاضرات يمتلقون الاكاذيب على الامويين ليتقربوا بها الى اصحاب الدولة في العهد العباسي . فكل ما يروى من المذام في الدولة الاموية في كتب المحاضرات يجب ان يؤخذ بحفظ . واذا كان هذا فيما يتصل باخبار الخلفاء والوزراء وادور الدولة التي يمكن الاستدلال علي حقيقتها من التاريخ ، فما ظنك بما لا شاهد عليه من التاريخ كاخبار الشعراء ، ونوادير الادباء ، وحوادث القبائل البعيدة عن كتاب تلك المحاضرات . أفلا يحسن بنا ان نطبق اسلوب ديكرت على هذه الاقاصيص فلا نفلو في اعتبارها مصدور جديرة بالثقة المطلقة في حين ان الواقع يكذبها وحوادث التاريخ تشهد بطلانها

يقول الدكتور طه حسين : « فأدالت هذه المعصيات من بني امية ، بل أدالت من العرب للفرس »

يريد الدكتور طه حسين بقوله بل أدالت من العرب للفرس ان الفرس صارت لهم الدولة على العرب بتغلب رجال منهم على الخلفاء كبنو بُوَيْنَه الذين تغلبوا على الخلفاء العباسيين وكثيرهم من الذين توزعوا الممالك الاسلامية وحكموها باسم الخلافة ظاهرا ،

لما باطنا فكأنوا أصحاب الحل والقدر في جميع الممالك الإسلامية
 وهذا الكلام خطأ من الوجهة الإسلامية الدينية ، ومن الوجهة الاجتماعية ، قاما
 من الوجهة الإسلامية الدينية فإن الإسلام جاء معلنا وحدة النوع البشري كله ، فلم
 يعتد بالفوارق الجنسية ، ولا بالمميزات الاجتماعية لقوله تعالى : « يا أيها الناس انما
 خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم ان
 الله عليم خبير » وقد اعطى النبي صلى الله عليه وسلم مثالا من هذه الوحدة العامة فولي
 المدينة رجالا ذوي جنسيات مختلفة بين رومية وقارسية وحبشية كصهيب وسلمان
 وبلال . وولي على اليمن الهرمزان وهو فارسي الاصل

والفرس الذين حكموا العرب كانوا مسلمين مثلهم وقد حذقوا العربية حتى صاروا
 اعلم بها من ابنائها ، واتفقوا العلوم الدينية حتى صاروا ائمتها وحفظتها ،
 فالمسلمون في هذا الموطن لا يقولون ان الفرس حكموا العرب لانه لا جنسية في
 الاسلام وانما يقولون انه قد حكمهم اصلحهم للحكم غير ناظرين الى شيء من الفوارق
 الوهمية التي اوجدتها المصنوعات الجاهلية

اما خطأ الدكتور طه حسين من الوجهة الاجتماعية فلا يحتاج لكبير تأمل فان
 العلم لا يعنيه في تقدير العناصر المؤلفة للجماعات الاجناس والالوان ، وانما يعنيه الروح
 المحرك للمجتمع ، والاصل الذي يقوم عليه بناؤه ، والغاية التي تتجه اليها الميول العامة.
 فاذا نظرنا من هذه الوجهة الى العرب والفرس بعد دخولهم في الاسلام نجد الاخيرين
 قد فنوا في الاولين فناء لم تعد معه جنسيتهم بمنزلة عندهم شيئا . فقد تسموا باسما عربية ،
 واتفقوا لغة القرآن حتى اصبحوا اكبر حفظتها ، وتبحروا في العلوم الإسلامية حتى
 صاروا اعظم ائمتها ، وقلبوا غير على القرآن والعربية والاسلام منهم على اعز شيء
 لديهم . فلا يقال لمثل هؤلاء ان سبقوا العرب الى عروش الممالك ، ودسوت
 الوزارات انه قد صارت لهم الدولة على العرب ، بل يقال لهم قد فنوا فيهم واضاعوا
 شخصيتهم الفارسية ، واضحوا اعضاء في مجتمع انساني محض ليس فيه اعتبار
 للجنسيات واللغات والالوان . وتغلبهم على العرب في الحكم لم يتم لهم بفصل جنسيتهم ،
 ولا لغتهم ، ولا روحهم الفارسية ولكن بفضل مبدأ اللاجنسية الذي قرره الاسلام ،

ويفضل لغة القرآن وروح الوجدة العامة التي أتى بها محمد عليه السلام . فلا يصح بعد هذا ان يقال مثل ما يقول الدكتور طه حسين (بل قد اديل من العرب للفرس) وانما يقال تسابق الاخويان لنولي الحكم وزمامة العلم فسبق احدهما الآخر لمرانه عليهما وتبريزه فيهما على جميع العناصر المكونة للمجتمع الاسلامي . ولم تحس بنية العالم الاسلامي بأى اضطراب من جراء تغلب بعض العناصر على بعضها الآخر في تولي الحكم وفي قيادة الارواح والمقول بالتبريز في علوم الدين واللغة ، لعدم وجود المقتضي لذلك في مجتمع تقرر فيه مبدأ اللاجنسية

* * *

يقول الدكتور طه حسين : « واذا كان هذا تأثير العصبية في الحياة السياسية فانت تستطيع ان تتصور هذه القبائل العربية في هذا الجهاد السياسي العنيف تحرص كل واحدة منها على ان يكون قديمها في الجاهلية خير قديم . وقد ضاع الشعر الجاهلي بموت رواته في الحروب ، وهذه القبائل في حاجة الى الشعر تقدمه وقودا لهذه العصبية المضطربة ، فاستكثرت من هذا الشعر ونحلتها شعراءها القدماء »

ونحن نقول ان العصبية لم يكن لها تأثير في الحياة السياسية لدى العرب الاولين كما اثبتنا ذلك بتوسع في كلامنا السابق . فكل الذي امامنا هو أن احد الولاة وهو معاوية خرج على الخليفة القائم بالامر محفوزا بمطامع طافت برأسه انتحل لها سببا مزورا ، فلم يطل عمر ذلك الخليفة حتى يخذ ثورة معاوية فاتفق كبار الصحابة على تولية ابنه الخليفة . فرأى هذا ان حقن دماء المسلمين اولى من التمسك بحقه في الخلافة فتنازل عنها لخصمه وخصم ابيه ، وقبل هذا التنازل جميع المسلمين . فلو كان للعصبية سلطان فيما نحن بصدده لتجددت العداوة بين معاوية والحسن

فلما تولى يزيد بن معاوية لم يطق العالم الاسلامي ان يحمل نير هذا الطاغية لنفسه وجوره ، وكان الحسن قد مات ، فخرج عليه الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير ، لأنه من بني امية ولكن لعدم صلاحيته للخلافة . فلما مات يزيد خلفه ابنه خالد ثم قريه مروان بن الحكم ، فلم يطل عهدهما . ولما تولى عبد الملك بن مروان تمكن بواسطة قائده الحجاج بن يوسف الثقفي ، ولم يكن من بني امية ، من اخضاع المنشقين واستقام له الامر وورثه ابناؤه وابناءه فانتست مملكة المسلمين في عهدهم حتى صارت

أكبر من مملكة الاسكندر المقدوني ، قاضي تأثير للمصيبة الموبقة في هذه الحياة السياسية المركزة ؟

فان كانت القبائل في ذلك الوقت تنتحل الشعر فلم يك ذلك لاسباب سياسية ولكن لاسباب اخرى معقولة ، وهي الاشادة بذكر آباءها لاثبات اصالتها في العلم والادب وعراقتها في الفضيلة والحسب . وهذه العوامل تكني لتعليل كل الاكاذيب والتلفيقات التي عثر عليها الدكتور طه حسين وغيره في كتب المحاضرات . اما تطرف شعراء بعضها لذكر مثالب بعضها الآخر فله سبب ليس منه العصبية ولا السياسة في شيء . وهو أن الذي اجترأ على ذلك هم الشعراء ، والشعراء في الاجيال السالفة كانوا من طائفة المتسولين ، حتى ان اشراف القبائل كانوا يأتون من قول الشعر ترفعا من ان ينسبوا لتلك الفئة التي كانت تعتبر ساقطة في نظرهم . فقد روى ان حنظلا ابامريء القيس اتف ان يقول ابنه الشعر واستتابه مرارا ، فلما اعياه امره امر بقتله ، فرحمه الموكل به واطلقه . يجوز ان تكون حكاية امرىء القيس هذه ملفقة ، ولكن الثابت المقرر ان اشراف الناس كانوا يأتون من قول الشعر . وقد عده الصدر الاول مزريا بأهل العلم فقال الامام الشافعي :

ولولا الشعر بالعلماء يزرى لكنت اليوم اشعر من لبيد

ومثل هذه الطائفة التي كانت تتخذ الشعر وسيلة للارتزاق لم يكن لها حريجة من دين ولا من عقل ولا من اخلاق ، فكانت ترمى القول جزافا وتسرف فيه اسرافا . حتى ان عمر بن عبد العزيز لما ولي الخلافة في آخر القرن الاول قصده الشعراء بدائحهم فحجبهم عنه ، فلما الخ عليه ابن أرطاة في ادخالهم انشد لكل منهم بيتين او ثلاثة فيها ما يؤخذ على قائله ، وأقسم ان لا يدخل عليه . حتى انتهى الي جرير فأنشد له قوله :

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا وقت الزيارة فارجمي بسلام

ثم قال لا بأس بهذا ، فليدخل

فلا يصح لنا ان نقف اتسنا لتصيد اقوال صدرت من هذه الطائفة فنؤوله تاويلا ، ونوجهه توجيها ، وننتصره اعتصارا لنستخرج منه تاريخا للمصيبة عند

العرب ، تلك المصيبة التي لو صحت لتمزقت وحدة المسلمين شذراً مذبذباً ، ولم يبق لنا عنهم اليوم عين ولا أثر . وقد اثبتنا لك ان تلك الوحدة قد عجزت كل العوامل المحللة عن العبث بها ، وقد اثبتنا على وجوه شتى

ان شئنا ان اعطيك مثالا محسوسا من ذلك فانظر الى اشجار جرير والقرزوق والأخطل وهم يتهاجون ، تجد أن كل واحد منهم قد سب قبيلة خصمه وألصق بها اشد ما يتصوره العقل من المخازي ، ولم يكن ذلك لسبب سياسي . فكذلك فعلت طبقات الشعراء الذين تقدموم ، وطبقات الشعراء الذين خلفوم وهذا لا يمنع ان بعض الرؤساء يكون قد اوعز الى شاعر بهجاء قبيلة ، حمله على ذلك حقه على سيدها ، او غرض آخر في نفسه . ولكن هذا كان لا يغير رأي الناس في تلك القبيلة ولا يطمس معالم مجدها

وقد سجل القرآن على شعراء ذلك الجيل حكما لم تقم لهم بعده قائمة ، وهو قوله تعالى : « والشعراء يتبعهم الغابون ، ألم تر أنهم في كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون ما لا يفعلون ؟ »

وقد عرف عرب الجاهلية قبل القرآن خفة وزن الشعراء ، وانهم ممن لا يصح التحويل على اقوالهم ، ولا الثقة بأرائهم ، فقالوا فيما قاتوه من المذام التي وجهوها للنبي صلى الله عليه وسلم كما حكى عنهم القرآن انه : « شاعر تتربص به ريب المنون » اى قالوا ان محمدا شاعر لا يصح الركون الي اقواله لانها خيالات كخيالات الشعراء فلنصبر عليه غير حافلين به حتى يموت فنرتاح منه . وقالوا عن القرآن « اضغاث احلام ، بل افتراه ، بل هو شاعر » اى قالوا ان ما آتى به محمد اوهام كلاحلام ، بل انه افترى هذه الاقوال من عنده ، بل هو شاعر يقول ما ليس بحق فلا يصح ان يؤبه لقوله

هذا كان مقام الشعر والشعراء في الجاهلية والاسلام ، فهل نأتي نحن في القرن العشرين فنجعل الشعر دليلا على امور جسام ، وانقلابات عظام ، بينما لم يكن له ادنى تأثير خارج دائرة الخيال ؟

وليس معنى هذا ان الاسلام يستهجن الشعر ويراه من لغو الكلام ، بل هو

يريد ان تكور له اغراض سامية ، ومصرام عالية فقد قال عليه الصلاة والسلام ان من
الشعر لحكمة وان من البيان لسحرا . وكان يحب ان ينشد من جيد الشعر ، وقد لوه به فقال
ان اصدق بيت قالته العرب قول لبيد :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعم لاحالة زائل
ولما انشده الشاعر قوله :

ولا خير في حلم اذا لم تكن له بوادر تحمي صفوه ان يكذرا
استحسنه جدا وقال له لا فض الله فاك . وحث عمر بن الخطاب الآباء ،
وهو من أروع الناس ، على ان يُرووا اولادهم الشعر لتعذب الستهم وتلطف
طباعمهم

وقد انشا كثير من عباد المسلمين وزهادهم ومتصوفتهم قصائد ضافية الذبول ،
وجمعت لكثير منهم دواوين
الخلاصة ان الاسلام لا يذم من الشعر الا ما فيه هجوا ووجون او كذب او حث
على شرب الخمر ، أو الجرى مع الهوى

اما مسألة سيادة نبي امية على جميع العرب فليس فيها شيء اكثر من سيادة اسرة
مالكة في امة من الامم . وای هزيمة لحقت الامة الاسلامية من جراء أن كان
اميرها من نبي امية ، ودينها قد محق لها الفوارق الجنسية والقبيلية ، ونص فيما يختص
بمسألة الامارة على ذلك نصا لا يقبل التأويل وهو قوله صلى الله عليه وسلم : « اسمع
وأطع ولو لعبد حبشي كان رأسه زبيبة » ؟ فان صح هذا الحديث عن النبي فهو الدين ،
وان لم يصح فتمدد رقد رسوخ امة في هذا الاصل العمراني بحيث تكذب على رسولها مثل
هذا المبدأ العظيم

ثم نهضت الاسرة العباسية لاسقاط الاسرة الاموية وانجحت في ذلك بعد
حرب ضروس ، فلم نر ولم ير احد في ذلك امرا مخالفا لسنن البشر ، فهو تام في جميع الامم
ولم يعزّه احد في تلك الامم لتفاقم امر العصبية ، ولا جعلوه سببا للتلفيقات الشعرية .
ذلك لان منطقة تأثير الشعر محدودة ، ولاهله دائرة اختصاص معروفة ، وللعوامل

التي تُبعثهم للمدح والذم مصدر لا يخفى على أحد ، ولذلك لا يعبأ العلم بهم ولا بأقوالهم
الا بقدر لا يتعداه . خذ مثلاً لذلك : لقد مدح أبو الطيب المتنبي كافوراً الاخشيد بنى
بقصائد هي عيون شعره ، لم يقل مثلها شاعر ملك ، ثم ذمه ذماً جرده فيه من كل
فضيلة انسانية ، فهل اثر ذلك في مقام كافور وحط من قيمته ، وهل عول علم التاريخ
عليه في استنتاج حكم من الاحكام ؟

فقس على هذا جميع الشعر المخلوق وغير المخلوق فهو لا يدل على شيء غير ما يعرف
عن اخلاق اهله في ذلك العهد . فمن الخطأ البين أن يخوض الدكتور طه حسين هذا
الخوض في تكوين الامة الاسلامية الاولى ، ويجوس خلال ادوارها وحوادثها هذا
الجوس المجهد ليثبت امراً قليل القيمة ، قاله قبله اهل القرن الاول والثاني ، وهو ان
الشعر الجاهلي مخلوق منحول ، وانه قد حمل على شعراء لم يقولوه . هذه نمرة تافهة لمجهود
هائل اوجب على الدكتور طه حسين ان يصدر احكاماً لا تتفق والحوادث ، ولا تلتم وعلم
التاريخ ، مع ان هذا الاختلاق كله يمكن تليله بحب الرواة للاغراب وللأستكثار من الرواية

٣

الدين وانتحال الشعر

قال الدكتور طه حسين تحت هذا العنوان مابليخصه :

- (لم تكن العواطف والمنافع الدينية اقل من العواطف والمنافع السياسية اثراً في)
- (تكلف الشعر وانتحاله و اضافته الى الجاهليين . فكان هذا الانتحال في بعض)
- (اطواره يقصد به الى اثبات صحة النبوة وصدق النبي . وكان هذا النوع موجهاً الى)
- (عامة الناس . ومن هذا كل ما يروى من الشعر الجاهلي ممهداً لبعثة النبي . وفي سيرة)
- (ابن هشام وغيرها من كتب التاريخ والسير ضروب كثيرة من هذا النوع . وهناك)
- (شعر آخر اضيف الى الجاهليين من شعراء الجن)

(وكما أن القصاص والمتحلين قد اعتمدوا على الآيات التي ذكرت فيها الجن)
(ليخترعوا ما اخترعوا من شعر الجن واخبارهم المتصلة بالدين فهم قد اعتمدوا على)
(القرآن ايضا فيما رويوا وانتحلوا من الاخبار والاشعار والاحاديث التي تضاف)
(على الاخبار والرهبان الذين كانوا يتوقفون بعثة النبي ويدعون الناس الي)
(الايمان به)

(ونوع آخر من تأثير الدين في انتحال الشعر واضافته الى الجاهليين، وهو ما)
(يتصل بمعظم شأن النبي من ناحية أسرته ونسبه ، فلا أمر ما اقتنع الناس بأن)
(النبي يجب ان يكون صفوة بني هاشم ، وبنو هاشم صفوة بني عبد مناف ، وبنو)
(عبد مناف صفوة بني قصي ، وقصي صفوة قريش ، وقريش صفوة مضر ، ومضر)
(صفوة عدنان ، وعدنان صفوة العرب ، والعرب صفوة الانسانية . واخذ القصاص)
(يجتهدون في تثبيت هذا النوع من التصفية والتنقية وما يتصل منه بأسرة النبي خاصة)
(والقصاص عند العرب تستقيم الشعر ، ولا سيما اذا كانت العامة هي التي تراد بهذه)
(القصص)

(وقد ارادت الظروف ان تكون الخلافة والملك في قريش ، وان يستقر الملك)
(حيناً في بني امية ، وينتقل منهم الي بني هاشم ، ويشتد التنافس بين اولئك)
(وهؤلاء ، ويخذ اولئك وهؤلاء القصاص وسيلة من وسائل الجهاد السياسي .)
(فاما في ايام بني امية فيجتهد القصاص في اثبات ما كان لامية من مجد في الجاهلية)
(واما في ايام العباسيين فيجتهد القصاص في اثبات ما كان لبني هاشم من مجد في)
(الجاهلية ، وتشتد الخصومة بين قصاص هذين الحزبين السياسيين وتكثر الروايات)
(والاخبار والاشعار)

(وكانت البطون القرشية على اختلافها تنتحل الاخبار والاشعار وتفري)
(القصاص وغير القصاص بانتحالها)

(ولا ضرب لك مثلاً واحداً يوضح ما قلت من ان بطون قريش كانت تحت على)
(انتحال الشعر منافسة للأسرة المالكة اموية كانت او هاشمية . وهذه القصة التي)
(سارويها تمس بني مخزوم من قريش)

(تحدث صاحب الاغانى باسناده عن عبد العزيز بن ابي نهشل قال : قال لى)
 (ابو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، ياخال هذه اربعة آلاف درهم وانشد)
 (هذه الايات الاربعة وقل سمعت حسانا ينشدها رسول الله صلى الله عليه وسلم .)
 (فقلت اعوذ بالله ان افترى على رسول الله . ولكن اذا شئت ان اقول سمعت عائشة)
 (تنشدها فعلت . فابى وأبيت . ثم ارسل لى وقال قل اياتا تمدح بها هشاما وبنى امية)
 (واجملها لايك . فقلت :)

(ألا لله قوم و لدت اخت بنى سهم)
 (هشام وابو عب د مناف مدره الخصم)

الط الخ

(ثم جئته فقلت هذه لابي . فقال لا ، ولكن قل قالها ابن الزبيرى . قال فى)
 (الآن منسوبة فى كتب الناس الى ابن الزبيرى (شاعر قريش))
 (نحو آخر من تأثير الدين فى اتعمال الشعر وهو هذا الذى يخلقه القصاص)
 (لتفسير ما يجدونه فى القرآن من اخبار الامم القديمة . فالرواة يضيفون اليهم شيئا)
 (كثيرا وقد كفانا ابن سلام تحلله حين جد فى طبقات الشعراء فى اثبات)
 (ان هذا الشعر وما يشبهه مما يضاف الى تبع وحمير موضوع منتحل وضعه ابن)
 (اسحاق ومن اليه من اصحاب القصص)

(ونحو آخر من تأثير الدين فى اتعمال الشعر : وذلك حين ظهرت الحياة العلمية)
 (عند العرب بعد ان اتصلت الاسباب بينهم وبين الامم المغلوبة ، فارادوا هم او)
 (الموالي أو اولئك وهؤلاء ان يدرسوا القرآن درسا لغويا ويثبتوا صحة ألفاظه)
 (ومعانيه ، فحرصوا على ان يستشهدوا على كل كلمة من كلمات القرآن بشيء من شعر)
 (العرب يثبت ان هذه الكلمة القرآنية عربية لاسبيل الى الشك فى عربيتها . وقد)
 (عرفت رأينا فى ذلك وهو اننا نعتقد انه اذا كان هناك نص عربي لا تقبل لنفسه)
 (شكاً وهو لذلك اوثق مصدر للغة العربية فهو القرآن . فكان يجب ان نستشهد)
 (به على ما يسمونه الشعر الجاهلى بدل ان نستشهد بهذا الشعر على نصوص)
 (القرآن)

(هنا نوع جديد من تأثير الدين في انتحال الشعر وهو الخصومات بين العلماء في تفسير القرآن . ومن هنا كانوا حراسا على ان يظهروا دائما مظهر المتصرين في خصوماتهم . وای شيء يتبع لهم هذا مثل الاستشهاد بما قالته العرب قبل نزول القرآن؟)

(بهذا ولم نصل بعد الى اعظم هذه الفنون من الانتحال خطرا وابعدها اثرا)
 (وهو هذا النوع الذي ظهر عند ما استوقف الجدال بين المسلمين واصحاب الملل الاخرى . وقد ذهب المجادلون في هذا النوع من الخصومة مذاهب لا تخلو من غرابة اذ اراد المسلمون ان يثبتوا ان للاسلام اولية في بلاد العرب كانت قبل ان يبعث النبي ، وان خلاصة الدين الاسلامي هي خلاصة الدين الحق الذي اوحاه الله الى الانبياء من قبل . فالقرآن يحدثنا عن التوراة والانجيل ويذكر معها شيئا آخر هو صحف ابراهيم . ويذكر غير دين اليهود والنصارى ديننا آخر هو ملة ابراهيم ،)
 (هو هذه الحنيفة التي لم نستطع الى الآن ان تبين معناها الصحيح . وقد اخذ المسلمون يردون الاسلام في خلاصته الى دين ابراهيم الذي هو اقدم واتق من دين اليهود والنصارى)

(وشاعت في العرب أثناء ظهور الاسلام وبعده فكرة ان الاسلام يحدد دين ابراهيم . ومن هنا اخذوا يعتقدون ان دين ابراهيم هذا قد كان دين العرب في عصر من العصور ثم اعرضت عنه وانصرفت الى الاوثان . ولم يحتفظ بدين ابراهيم الا افراد قليلون كانوا يتحدثون به قبل الاسلام . فأحدث هؤلاء الناس قد وضعت لهم وحملت عليهم حملا بعد الاسلام لتثبت ان للاسلام في بلاد العرب)
 (قدمة وسابقة الخ الخ)

راينا في هذا الكلام

يقول الدكتور طه حسين : « لم تكن العواطف والمنافع الدينية اقل من العواطف

السياسية إثرًا في تكلف الشعر وانفعاله وإضافته إلى الجاهليين فكان يقصد به إلى إثبات النبوة وصدق النبي ، وكان هذا النوع ، وجها إلى عامة الناس . ومن هذا كل ما يروى من الشعر الجاهلي ممهدا لبعثة النبي . وهناك شعر أضيف إلى الجاهليين من شعراء اليمن »

ونحن نقول : أننا نوافق الدكتور طه حسين على أنه قد اختلق شعر كثير من هذا النوع ولهذا الغرض ، وإكنا نتفق عليه إيراد هذا الموضوع على هذا النحو فإنه يُشعر القارئ غير الملم بتاريخ الدين الإسلامي أن الذي وضع هذه الإشارات قادة الدين للتأثير به على العامة ، أو أنها وُضعت عن رضى ومبالاة منهم . والواقع أن الذي وضعها صنفان من الناس : (أولهما) أعداء الدين لإفساده بإدخال عنصر الغلو فيه ، والصاق الخرافات به . و (ثانيهما) جهلة المتدينين ظنا منهم أن الكذب في هذا المعنى حلال لاشية فيه . وربما عدوه وسيلة للمثوبة الحسنة عند الله . وقد نبه قادة الدين على هذين الأمرين وعدوهما من العبث بالدين ، والنكوب عن طريق المؤمنين

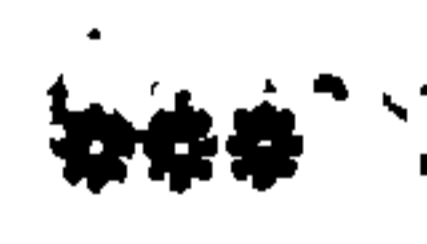
على أن طبيعة الدين الإسلامي تأتي هذا الغلو في تعظيم النبي صلى الله عليه وسلم ، لكثرة ما ورد في الكتاب والسنة من النبي عنها . فقد صرح القرآن بأن النبي لا يفترق عن سائر الناس إلا بالوحي فقال تعالى : « قل إنما أنا بشر مثكم يوحى إليّ أنما أمركم الله واحد » وقال تعالى : « وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحي إليهم » وقال تعالى : « وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا أنهم يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق ، وجعلنا بعضكم لبعض فتنة ، أتصبرون ؟ وكان ربك بصيرا »

وقد نص القرآن في آيات كثيرة على أن النبي لا حول له ولا حيلة ، وعلى أنه عبد مربوب قد يرتكب خلاف الأولى فيلومه الله ويؤدبه ، وعلى أنه إنما أرسل لتبليغ الناس أمر ربه لا للسيطرة عليهم ، والتحكم في ضمائرهم . فقال تعالى « عفا الله عنك لما أذنت لهم » « لبس لك من الأمر شيء » « لست عليهم بمسيطر » « وما أنت عليهم بوكيل » « لست عليهم بجبار » « إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب » « أفأنت تكبره الناس حتى يكونوا مؤمنين ؟ » « أنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي

من آياته وهو لو كنا نعلم الجبال سكالون من الخلق وما ليس بشيء « إن آدمي
 ما فعل بي ولا بيكم من إن نعمه على الهافير: « إن غنمهم لهم البقير مرة فقل ينظرون
 انهم يرونه انما سبقت له من شانه وانه لما تمها اليه ربه لم يفتنهم به وهو
 وقد زاد النبي صلى الله عليه وسلم ايضا ما قال: « انا فيما لم يوح الي كما حدثكم
 وقد لو جعل جده وقد اصابته رعدة من عيبه به « هون عليك انما لست بمكاتب انما ابن
 اخر اذ كانت له كل القوي من اوقاف لغوم عباره فقالوا انما سيدنا لا لا هو ولا سيدنا
 فان السيد الله »

وقد قال به عليه السلام على ان الاخذات الطبيعية لا تغدق ليلاد معد ولا تروى
 فقال: « اجتمع الشمس والقمر ايمان من آيات الله لا يكسفال بلوت الحمد ولا طيبة
 فان سريته ذلك كما ذكر الله له »

فكل ما يروى من الارقا ضات التي شئت النبوة ، ومن الاقمار التي
 عزيت الي الجاهلين ، كاذيب لا يصلح الالتفاف اليها ، ويكفي في اسقاطها انها
 ركيكة الباني ، سقيمة المعاني ، ظاهر عليها طابع الوضع ، تدل على ان مخلقها ليسوا
 من الشعري شي ، وانها تنافي اصول الاسلام
 ويقف الى هذا السبب كل ما ورد على الطبيعة القصص من امر واراء الاضطرار
 والرهبان الذين كانوا يتوقعون بعث النبي صلى الله عليه وسلم فكل ما روى عنهم احاديث
 خرافة تنافي طبيعة الدين الاسلامي وتدل بناتها على ان مخلقها قصار العقول ليسوا
 حقي من المهارة في التفتيق على شي .



ايها العفالي في الاشارة بذكر نسب النبي صلى الله عليه وسلم فهو يتساني طبيعة
 الاسلام ايضا ، ويتنافر وروحة الديمقراطية المحضة ، فقد نص كتابه على ان
 الناس كلهم سواء بقوله تعالى: « يا ايها الناس انما خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم
 شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم ان الله عليم خبير » وقد شرح ذلك
 النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: « لقد اذنت الله عنكم رجس الجاهلية وتفاخرها
 بالآباء كلكم من آدم وادم من تراب » وقال عليه الصلاة والسلام: « لا فضل لعربي

على اعجمي الا بالتقوى ما يقتل صلاحه
 فاذا كان الجليل قد بنى الفوارق العنصرية وعظمتي على آثر المصيبة التي أخذ الحد،
 ويصرح النبي صلى الله عليه وسلم تصديراً لا لفضل علي اعجمي الا بالتقوى او
 بعمل صالح، فمن الفضول ان يبنى برجل مسلم بعظيم النبي من ناحية نسبه
 ومن الادلة المحسوسة على ان النبي لم يتر على سواه من ناحية اهله امام العدل الالهي
 ما تقرر من ان عمه ابو طالب مات على غير الاسلام، وان الله انزل قرآنا في ذم عمه
 فلا تخونني للعيا فقال تعالى: «تبت يدا ابي لهب ولهب، ما أغنى عنه ماله وما كسبه،
 سيصلى باراً ذات لهب» .



يقول الدكتور طه حسين: «اشد التنافس بين بني امية و بني هاشم واتخذ اولئك
 وهؤلاء القمص وسيلة من وسائل الجهاد السياسي. فاما في ايام بني امية فيجتهد
 القمص في اثبات ما كان كني امية من مجد في الجاهلية، واما في ايام العباسيين
 فيجتهد القمص في اثبات ما كان لبني هاشم من مجد في الجاهلية، وتشتد
 الخصومة بين قمص هذين الحزبين السياسيين، وتكثر الروايات والاختبار
 والاشارة» .

ونحن نقول: اما اشتداد التنافس بين اسرتين احدهما تود الاستمرار في الملك
 والاخرى تعمل على اسقاطها لتجعل محلها قائم طبيعي حدث في كل امة تمت
 باسرتين متناظرتين على الزمام العامة. واغراضهما الوضاعين والمتخالفين على الاشادة
 بذكروهما، والتنويه بفضلهما، امر طبيعي ايضا. ولكن كل هذا لم يخف على الائمة
 العاقدين في المهور الاولى وقدر نبهوا اليه في مؤلفاتهم، فكلام الدكتور طه حسين
 موافق في هذه الناحية لرأي الإقدمين. ولكنه استشهد اولا على تنافس بطون
 قریش في حمل الناس على اختلاق الشعر على الجاهلين بقصة قتلها عن الاغانى باسناد
 له عن عبدالمزيز بن ابي نهميل الذي ادعى ان ابا بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن
 هشام قد اغراه لن يمدح جده هشاما وبني امية وان يعزو ذلك لايه، ثم حمله على ان
 يعزو لابن الزبير بن عوف شاعر قریش قيعل

فنحن نلاحظ على الدكتور في استشهاده بهذه القصة وامثالها أموراً :
(اولها) جواز ان تكون القصة كلها مختلفة وهو لم يظهر المشك فيها
(ثانياً) اعتماده على اسناد صاحب الاطاني ، والثقة بالاسانيد طرق لا بد من
تحريها . وقد كذب الرواة على النبي صلى الله عليه وسلم فكيف لا يكذبون على الادياء
والزعماء ؟ لاسيما وابو الفرج الاصبهاني مؤلف الاغانى كان شيعياً يلذذ النيل من كرامة
بنى امية ، والحط من قدوم
(ثالثها) ثقته بما رواه عبد العزيز بن ابي نهشل عن نفسه مع انه اعترف بأنه
اقترح ان يكذب على مائسة وعلى ابيه باربعة آلاف درهم . ثم أقربا له كذب بتعمدا
على ابن الزبيرى شاعر قریش . ورجل هذه حاله من الافك والبهتان ، والنهتك في
الاختلاق ، لا يصح ان يؤخذ بقوله للاستشهاد به في كتاب ادبي يؤلف لابناء القرن
العشرين ، ويُنهج فيه منهج ديكارت
فكان الاولى بالدكتور طه حسين ان يستشهد بحادثة محققة ليسوع له ان يصدر
حكماً في باب من ابواب الاختلاق القديم

وقال الدكتور طه حسين : « ونحو آخر من تآثير الدين في انحلال الشعر وهو هذا
الذى يلجأ اليه القصاص لتفسير ما ورد في القرآن من اخبار الامم البائدة . قالوا واضيفون
اليهم شيئاً كثيراً وقد كفانا ابن سلام نقده وتحليله حين جد في طبقات الشعراء
في اثبات ان هذا الشعر وما يشبهه مما يضاف الى تبع وحمير موضوع متحل
وضعه ابن اسحق ومن اليه من اصحاب القصص »
ونحن نقول ان هذا مصداق لما قلناه من ان جميع الاشعار والاخبار التي رويت
عن الجاهلين من الشعراء والاحبار في تعظيم شأن النبي صلى الله عليه وسلم قد نبه النقدة
من العلماء على انها مختلفة قد حملت على اصحابها زوراً وبهتاناً ، وابن اسحق هذا
من اقدم كتاب السيرة النبوية . وهنا لا نبالك اقسنا من الاعجاب بالنقدة القدماء
من المسلمين فانهم لم يُعفوا من تقدم حتى الاشعار والاخبار المثبتة للدين ، لانهم يرون
ان هذه التلفيقات اضر على الدين من الطعن فيه ، وان الرجل محاسب على كل شيء

ومسؤول عن دليبه فيه

وأما مقاله الدكتور طه حسين عن وضع الوضاعين للاشعار ونسبتها للجاهليين لا تبايع عربية الفاظ القرآن، وللانتصار على الخصوم في فهم معاني القرآن، فهذا كله صحيح، ولكنه لم يجرؤ عليه إلا أهل البهتان من المشتغلين بالقرآن وعلواء السوء الذين يودون الظهور على خصومهم بأي سلاح كان. وقد عرف ذلك النقدة الاقدمون ونهوا اليه، ولم يغفل هذه الملاحظة الاستاذ مصطفى صادق الرافعي في كتابه آداب العرب

وقال الدكتور طه حسين : « اعظم هذه الفنون من الانتحال خطرا وأبسطها أرا هو هذا النوع الذي ظهر عند ملاستؤنف الجدال في الدين بين المسلمين واصحاب الملل الاخرى . وقد ذهب المجادلون في هذا النوع من الخصومة مذاهب لا تخلو عن غرابة اذا اراد المسلمون ان يثبتوا ان للاسلام اولية في بلاد العرب كانت قبل ان يبعث النبي ، وان خلاصة الدين الاسلامي هي خلاصة الدين الحق الذي اوحاه الله الي الانبياء من قبل . فالقرآن يتحدثنا عن التوراة والانجيل ويذكر معنا شيئا آخر هو صحف ابراهيم . ويذكر غير دين اليهود والنصارى دينا آخر هو ملة ابراهيم ، هو هذه الخيفية التي لم نستطع للآن ان نتبين معناها الصحيح . وقد أخذ المسلمون يردون الدين في خلاصته الى دين ابراهيم الذي هو اقدم واتق من دين اليهود والنصارى »

« وشاعت في العرب اثناء ظهور الاسلام وبمعه فكرة ان الاسلام يحدد دين ابراهيم ، ومن هنا اخذوا يعتقدون ان دين ابراهيم هذا قد كان دين العرب في عصر من العصور . ثم أعرضت عنه وانصرفت الى الاوثان . ولم يحتفظ بدين ابراهيم الا افراد قليلون كانوا يتحدثون به قبل الاسلام . فأحاديث هؤلاء الناس قد وضعت لهم وحملت عليهم حملا بعد الاسلام لتثبت ان للاسلام في بلاد العرب قدمة وسابقة »

ونحن نقول ان الامر الذي يستغربه الدكتور طه حسين وهو ان الإسلام اولى
 كانت قبل ان يبعث النبي ، وانه خلاصة الدين الحق الذي اوحاه الله الى الانبياء
 من قبل ، وهذا الامر قد قررته القران نفسه ، ويجد في شبه في المقول ، ونشره في
 للشرق والغرب ، ولا يجادلون من المسلمين الذين كانوا يجادلون اصحاب الملل الاخرى .
 وهذا الامر نفسه الذي يستغربه الدكتور طه حسين هو المير الواحد لان تسليم
 الإسلام الى الامم ، وهي تروج في خصم زاخر من الديانات ، بعنوان انه دين عام
 لجميع العالمين ، وان الآتي به هو خاتم النبيين

وهذا الامر الذي يستغربه الدكتور طه حسين هو مصدر القوة التي اقرت الحياة
 التي اوجدتها الاسلام لنفسه مكانا بين الاديان ، وسوغت له ان يصف نفسه بأنه
 دين آخر الزمان ، واليك البيان :

استباه الإسلام والعالم خاص بالاديان ، ما قبل الملل ، قد توزعت المبعثه الكبرى اديان
 وسخت اصولها ، وشمخت صروجها ، وعزت قاداتها ، وتنوعت وجهاتها وغاياتها ،
 حتى لم يبق بينها متشفس لدين جديد ، ولا متببوا لرأي طرفي . فقد كانت
 البرهانية والبوذية في الهند ، والبوذية والكونفوشيوسية في الصين ، واليهودية مبعثة في
 الاقطار ، والمسيحية في اوروبا ، والوثنية في افريقيا واثرتها وهناك ، ولكل منها دولة
 وصولة ، ومذاهب وتقاليد ، وبجانبها الميادين اخري مبعثة لا تدخل تحت حصر ، وقد
 تنوعت في جميعها المذاهب ، وتعددت للفرق بحيث لم يبق شيء يمكن خطوره على
 عليلك عن الامور الدينية والروحية لم يخض فيه قادة هذه الاديان ، فهل كان موجب
 لحدوث دين جديد ؟ وهل يصادف هذا الدين لو ظهر مكانا من العقول ؟ وهل يجد
 مذهبها في الامور العلوية لم يأت به ماسبقه من الملل ؟ وهل يمكن ان يتخذ غرضها لم
 يخطر على بال كل هؤلاء القادة من المتكلمين والكهان ؟

كانت الاديان قبل الإسلام محنكرة في ايدي اطوائف ممتازة من الشعوب تعولوا
 اشخاصهم حق الوساطة بين الله وخلقهم ، وتصبوا انفسهم قواما عليهم في شؤونهم
 الجسدية والروحية معا ، وحضروا في جماعتهم حتى تقرير المقامات ، وفرض التقاليد
 والايثار الى الناس بما يجب ان يعمد له ، وما يجب ان يجتنبوه ، مستسلمين

لا رادتهم استسلام الطفل لمريه ، لا حق لهم في اجالة نظره ، لو انفقوا ثمر ،
فانفسهم خير مسوقين الى حيث يملون ولا يظنون ، مؤخذين بما يفهمون وما لا
يفهمون .

فلما استعصمت حقائق هذا القدر ، والمتممات بقولنا ان هذا الامر
وتمسح للفوضى الواضحة تحت نور البصيرة ، ان تقدم بحريتها النظرية ، والمواهب
والاشياء في الحقائق الجبرية ، ان تمتع بحقوقها الطبيعية ، جاء الاسلام فاعطى
الناس كافة ان اصل الاديان كلها واحد ، وانما اختلفت في احوالها التشريعية ، تبعاً
لحالة الجماعات من الناحية الاجتماعية ، وان هذا الاصل هو ان يقوم الانسان على
القدر ما اتى فطر الله الناس عليها ، اى على الحالة الطبيعية التي يتلقى الانسان اليها بما
راكب فيها من امولة طبيعية ، وخصائص جينية ، ومواهب عقلية ، فلا يحتاج في
تدينه لتلقين ملقن ، ولا تعليم معلم ، وان كل ما يضاف الى هذه الحالة الطبيعية من
التعليمات عن ذلت الله ، وعن الكون والكائنات ، والعوالم العلوية والسفلية ، وعن
الخلق للنايين فيه شيطان ، وتحتل بها احزاب ، وتنازعوا من اجله فسفكروا وما اخرجوا
بلادهم ، فانما هو من وضع الزعماء والسادة للذين تحولوا اتقيهم حتى الوصاية على
الاسم ، واستنوا جهلها الى ما لا جد له لمعالجة شهواتهم .

وهذا ما ذكره في الآيات التي وردت في القرآن في هذا الباب :

قرر القرآن بان اصل الاديان الاسلام اى الاستسلام بمعنى الاقياد . وهو يعنى به
الحالة التي يكون عليها الانسان حين يعجز عن تصوير الله بصورة او تحديده بحد ،
او تقليد شئ من الاشياء المادية او المتهمة . ويظهر هذا التحديد معنى الاسلام
كما اوردته في قصة ابراهيم وهو :

« وكنهه نرى ابراهيم ملكوت السموات والارض وليكون من الموقنين . فلما
بين عليه الليل رأى كوكبا ، قال هذا ربي ، فلما اقل قال لا احب الاكثين . فلما رأى
انقمر بازغ قال هذا ربي ، فلما اقل قال ان لم يهتدي ربي لا يكون من القوم الضالين .
فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي ، هذا اكبر ، فلما اقلت قال يا قوم اني بريء مما
تشركون . اني وجهت وجهي للذي فطر السموات والارض حنيفا وما انا من
المشركين . »

المشركين « سورة الانعام

« واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ، ربنا تقبل منا انك انت السميع العليم . ربنا واجعلنا مسلمين لك ، ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ، وأرنا مناسكنا وتب علينا انك انت التواب الرحيم . ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يلوح عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ، انك انت العزيز الحكيم . ومن يرغب عن ملة ابراهيم الا من سفه نفسه ، ولقد اصطفيناه في الدنيا وانه في الآخرة لمن الصالحين . اذ قال له ربه أسلم ، قال أسلمت لرب العالمين . ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب ، يا بني ان الله اصطفى لكم الدين ، فلا تموتن الا وانتم مسلمون » سورة الانعام

« قل يا اهل الكتاب تعالوا الي كلمة سواء بيننا و بينكم ان لا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا اربابا من دون الله ، فان تولوا فقولوا اشهدوا بانا مسلمون » سورة آل عمران

فلا سلام بهذا المعنى هو اصل كل الاديان وقد صرح القرآن بهذا في غير آية فقال تعالى : « ان الدين عند الله الاسلام ، وما تفرق الذين أوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ، ومن يكفر بايات الله فان الله سريع الحساب »
 فاذا كان اساس الدين الاعتراف بالعجز عن تحديد الله بحد ، او تعيينه بصورة ، فمن اين يأتي التفرق في الدين ، والاختلاف في اصوله ؟ ولذلك قال لرسوله : « ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء »

واذا كان الدين هو هذا فهو أسهل ما يكون كلفة على النفس فما على الانسان الا ان يعترف بالعجز عن تحديد الخالق ثم يأخذ في التقرب اليه بالصالحات وكفى . قال تعالى :
 « ومن احسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن »

ثم قرر القرآن بان الاسلام هو الفطرة اي الخلق التي فطر الله النفوس عليها فان الانسان قد وُطِر على ان يعترف بالعجز عن تحديد مالا يمكنه تحديده ، لا على ان يتناوله بالتخيل والتصوير فيوقع نفسه في الخطأ وهو عالم بوقوعه فيه فقال تعالى : « فاقم وجهك للدين حنيفا (اي ما تلا عن العوائد الزائفة) فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ، ولكن اكثر الناس لا يعلمون »

وقد شرح النبي صلى الله عليه وسلم معنى الفطرة بأنها الحالة التي يكون عليها ذهن الانسان خاليا من كل صورة ، تقيا من كل خيال ، على نحو ما عليه الطفل ساعة ميلاده فقال : « كل مولود يولد على الفطرة وانما ابواه يهودانه او ينصرانه او يمجسانه »

ثم قرر القرآن بأن الله شرع هذا الدين لجميع الامم ، فلا سلام ليس بمجرد حتى يُتردد في قبوله ، بل هو الاصل الاقدم الذي اُمرت بالاخذ به الامم كافة فانحرفوا عنه بغيا بينهم . قال تعالى : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي اوحينا اليك ، وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن اقيموا الدين ولا تفرقوا فيه ، كبر على المشركين ما تدعوهم اليه ، الله يجتبي اليه من يشاء ويهدي اليه من ينيب . وما تفرقوا الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ، ولولا كلمة سبقت من ربك الى اجل مسمى لقمضي بينهم ، وإن الذين اورتوا الكتاب لفي شك منه مريب . فذلك قادم واه يتم كما اُمرت ، ولا تتبع اهواءهم ، وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب ، واُمرت لاعدل بينكم ، الله ربنا وربكم ، لنا اعمالنا ولكم اعمالكم ، لا حجة بيننا وبينكم ، الله يجمع بيننا واليه المصير » سورة الشورى

واذا كان الامر كذلك فيجب على الانسان ان يؤمن بجميع الانبياء وما جاؤا به ، لا يفرق بين رسول ورسول ، لأنهم جميعا جاؤا بأصل واحد ودعوا الي دين عام . وقد أمر الله الآخذين بالاسلام ان يقولوا : « قولوا آمنا بالله وما أنزل اليها وما أنزل الي ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والاسباط ، وما أوتي النبيون من ربهم ، لا نفرق بين احد منهم ونحن له مسلمون . فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا ، وان تولوا فانما هم في شقاق ، فسيكفيكم الله وهو السميع العليم . صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ؟ ونحن له عابدون »

فلا سلام والحالة كما ترى كما صرح بوحدة النوع البشري ودعا الامم كافة لمحق ما بينها من الفوارق الاجتماعية ، كذلك دعاها الي الاخذ بدينها العام الذي ينحصر في كلمتين الاسلام لله والعمل الصالح قال تعالى : (وقالوا لن يدخل الجنة الا من كان هودا او نصارى ، تلك امانتهم ، قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين .

بلى من اسلم وجهه لله وهو محسن فله اجره عند ربه ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

تقول بعد هذا البيان: اى غرابة يراها الدكتور طه حسين في هذا الموضوع وهو اجمل ما حمله دين من الاديان الى العالم، بل اجمل ما حمله دين من الاديان من شبه الملحدين المعاصرين . ألم يقولوا اذا كان الله واحدا ، والانسان هو الانسان في كل زمان ، فلم تخالفت الاديان ، وتباينت تعاليمها في كل مكان ؟ ولو اطلعوا لوجدوا ان الاسلام قد حل هذه الشبهة حلا ليس وراءه مذهب لمشتبه ، بل الاسلام نفسه هو الحل العملي لهذه الشبهة

اما استغراب الدكتور طه حسين من زعم من زعم ان لهذا الدين سابقة وقدمية في بلاد العرب، فلا حق له فيه ، لان التوراة نصت على ان ابراهيم زار البلاد العربية وواقفهم ان عرب على هذا، وقالوا انه بنى فيها بيتا للعبادة سموه الكعبة ، وقد عالجنا هذه المسألة فيما مر من الفصول، فرأينا انه وان لم يثبت ذلك على الاسلوب التاريخي الذي يتطلب الآثار المحسوسة، الا انه كذلك لا يوجد في التاريخ ما ينفيه، وقلنا ان المرجحات كلها متظاهرة على زيارته لبلاد العرب . فهل من غرابة بعد هذا ان يأخذ بدينه رجال من العرب الذين اتصلوا به في ذلك العهد ؟ وهل كان دين ابراهيم فوق متناول العقول حتى يستغرب ان يأخذ به رجال من مخالطيه لهم قلوب يفقهون بها، ولهم آذان يسمعون بها، ولهم ذوق يفرقون به بين الخبيث والطيب ؟ وهل كان دين ابراهيم الا التوحيد الذي دلت الآثار على انه وُجد من اقدم العهود في مصر والهند والصين وسواها وأخذ به رجال في تلك الازمان البعيدة؟ فأى غرابة في ان توجد منه آثار في بلاد العرب بقيت من عهد ابراهيم، ولكن الوثنية تغلبت عليه كما هوشاؤها في جميع البلدان ؟

القصص وانتحال الشعر

عقد الدكتور طه حسين فصلاً تحت هذا العنوان قال فيه :

(القصص في نفسه ليس من السياسة ولا من الدين ، وإنما هو فن من فنون)
(الادب العربي توسط بين آداب الخاصة والآداب الشعبية وكان مرآة للون من ألوان)
(الحياة النفسية عند المسلمين . وأزهر في عصر غير قصير من عصور الأدب العربي)
(الراقية . وأزهر أيام بني أمية وصدر من أيام بني العباس ، حتى إذا كثرت التدوين)
(وانتشرت الكتب ، واستطاع الناس أن يلهوا بالقراءة دون أن يتكلفوا الانتقال)
(إلى مجالس القصص ضعف أمر هذا الفن ، وأخذ يفقد صفته الأدبية الراقية حتى)
(اجتدل وانصرف عنه الناس)

(كان قصص المسلمين يتحدثون إلى الناس في مساجد الانصار فيذكرون لهم)
(قديم العرب والعجم وما يتصل بالنبوات . ويضمون معهم في تفسير القرآن والحديث)
(ورواية السيرة والمغازي والفتوح إلى حيث يستطيع الخيال أن يذهب بهم لا إلى)
(حيث يُلزمهم العلم والصدق أن يقفوا . وكان الناس كلهم بهؤلاء القصص)
(مشغوفين بما يلقون اليهم من حديث . وما أسرع ما فطن الخلفاء والأمراء لقيمة)
(هذه الأداة الجديدة من الوجهة السياسية والدينية فاصطنعوها وسيطروا عليها)
(واستغلوا استقلالاً شديداً ، وأصبح القصص أداة سياسية فكانت الأحزاب)
(السياسية تصطنع القصص ينشرون لها الدعوة كما كانت تصطنع الشعراء)
(يناضلون عنها)

(وقد استمد القصص قوته من مصادر مختلفة أهمها أربعة) :

(الأول) مصدر عربي هو القرآن وما كان يتصل به من الأحاديث والروايات)
(وما كانت تتحدث به العرب في الأمصار من أخبارها وأساطيرها ، وما كانت)

(تروى من شعر ، وما كان يتحدث به الرواة من سيرة النبي والخلفاء وغزواتهم)
(وفتوحهم)

(الثاني) مصدر يهودى نصراني . وهو ما كان يأخذه القصاص عن اهل
(الكتاب من اخبار الانبياء والاجبار والرهبان وما يتصل بذلك)

(الثالث) مصدر فارسي وهو هذا الذي كان يستقيه القصاص في العراق خاصة
(من العرس مما يتصل باخبارهم واساطيرهم واخبار الهند واساطيرها)

(ثم المصدر الرابع مصدر مختلط هو هذا الذي يمثل نفسية العامة غير العربية
(من اهل العراق والجزيرة والشام من الانباط والسريان ومن اليهم من هؤلاء)
(الاخلاط)

(وانت تعلم ان القصص العربي لا قيمة له اذا لم يزنه الشعر من حين الي حين .)
(واذن فقد كان القصاص ايام بنى امية وبنى العباس في حاجة الى مقادير لاحدتها)
(من الشعر يزبنون به قهصهم ، وهم قد وجدوا من هذا الشعر ما كانوا يشتهون وفوق)
(ما كانوا يشتهون)

(فقد كانوا يستعينون بافراد من الناس يجمعون لهم الاحاديث والاخبار)
(ويلفقونها ، وآخرين ينظمون لهم القصائد وينسقونها حتى اذا استقام لهم مقدار)
(من تلقيق اولئك وتنسيق هؤلاء طبعوه بطابعهم ونفخوا فيه من روحهم واذا عوه)
(بين الناس)

(وقد فطن بعض العلماء الى ما في هذا الشعر من تكلف وسخف واسفاف ، والى)
(ان بعض هذا الشعر يستحيل ان يكون قد صدر عن الذين ينسب اليهم . ومن)
(هؤلاء العلماء محمد بن سلام . وكان ابن هشام يروي في السيرة ما كان يرويه ابن)
(اسحق حتى اذا فرغ من رواية القصيدة قال : واكثر اهل العلم بالشعر او بعض)
(اهل العلم بالشعر ينكر هذه القصيدة او ينكرها لمن تضاف اليه . ولكن لم يكن)
(صناع الشعر جميعا ضعافا ولا محققين ، بل كان منهم من يجيد الشعر ويحسن اتعاله)
(وتكلفه ويجتهد في اخفاء صنعته)

(وهناك لون آخر من الوان القصص فان الناس يتحدثون به ويميلون اليه)

(ويروون فيه الاكاذيب والاطايب، وهو اخبار المعمرين الذين مدت لهم الحياة)
(الي ابد مما الف الناس . وقد رويت حول هؤلاء المعمرين اخبار واشعار)
(قبلها العلماء والثقات في القرن الثالث للهجرة كأبي حاتم السجستاني وابن سلام)
(نفسه)

(والرواة اشد انحدا ما حين يتصل الامر بالبادية اتصالا شديدا . وذلك في)
(هذه الاخبار التي يسمونها ايام العرب او ايام الناس فقبلوا ما كان يروى منها على)
(. انه جد من الامر، ورووه وفسروه وفسروا به الشعر واستخلصوه وامنه تاريخ العرب)
(وليست هذه الاخبار الا المظهر القصصي للحياة العربية القديمة، ذكره العرب بعد)
(ان استقروا في الامصار فزادوا فيه وزينوه بالشعر كما ذكر اليونان قديمهم فاشاءوا)
(فيه الايافة والادسا وغيرها من الشعر القصصي)

(وكل ما يروى عن عاد وثمود وطسم وجديس وجرهم والعماليق وعن تبعم)
(وحمير وشعراء اليمن واخبار الكهان وما يتصل بسيل العرم وتفرق العرب البائدة)
(موضوع لا اصل له . وكل ما يروى من ايام العرب وحروبها وخصوماتها وما يتصل)
(بذلك من الشعر اكثره موضوع من غير شك . وكل ما يروى من الاخبار والاشعار)
(التي تتصل بما كان بين العرب والامم الاجنبية من العلاقات قبل الاسلام كعلاقاتهم)
(بالفرس واليهود والحبشة خليف ان يكون موضوعا . وكثرته المطلقة موضوعة من)
(غير شك)

رأينا في هذا الكلام

ان ما ذكره الدكتور طه حسين عن اخبار المعمرين وايام العرب وما يروى عن
عاد وثمود وطسم وجديس وجرهم والعماليق وعن تبعم وحمير وشعراء اليمن واخبار الكهان
وما يتصل بسيل العرم من أن كل ما ورد منه او اكثره موضوع ومبالغ فيه، صحيح نواقفه
عليه . وكل من اتفق له مطالعة ما جاء من هذا كله في كتب الادب، وكان له دربة في

النقد، وذوق في تقدير الحوادث يدرك معنا لأول وهلة انه مخلق مكذوب او بعيد
عن حقيقته بما حُمل من التويهات والتلفيقات ، وما احيط به من المبالغات
والتهويلات

وكيف لا يكون كذلك والعرب انما التفتوا لتدوين شيء من تاريخهم الجاهلي بعد
مضي قرن من دخولهم في الاسلام ولم يكن العرب الجاهليون على شيء من العلم بالخط
فيكتبوا حوادثهم ، فلم يبق منها الا ما كان يتحدث به الناس ويزيدون فيه او
ينقصون على ما يتفق لهم . وهو الذي تلقفه الرواة من افواههم وزادوا عليه
ما زادوه من بضاعتهم استكثارا لمصوبهم ، وأستجلابا للمنافع ممن كانوا يحرصون على
الاخذ عنهم

ولم يقف الاختلاق والتلفيق في نظرنا عند حد اخبار العصر الجاهلي ، فان اكثر ما نقل
لنا عن الخلفاء وعن طوهم وقصصهم ، وعن مجالسهم مع الشعراء والندمان ، مخلق او مبالغ
فيه مبالغة منكرة ، يدرك ذلك من اوتي خاصة النقد بأدني تأمل . ولذلك أواخذ
الدكتور طه حسين على اعتماده في تعيين اسباب الاختلاق في الشعر الجاهلي على
الحكايات التي وردت في كتب المحاضرات ، فانه لو اتقن تسرية منهج ديكرت عليها
لرمى بأكثرها عرض الحائط ، ولما استنتج منها ما استنتجه من الصورة المشوهة للحياة
الاجتماعية والسياسية للمسلمين في عهدهم الاول ، عهد الوحدة المحيطة التي ملكوا بها
ناصية العالم في سنين معدودة

وما كان مذهب ديكرت مشكاة يستهدى به الباحثون في ظلمات المسائل الا
لانه جعل اساسه الشك ، وهذه الحكايات التي وردت في كتب المحاضرات اولى بهذا
الشك من كل نوع آخر من انواع الرواية عن الاقدمين ، فانها اُلفت للتفكك والتسلي ،
وناهيك بما يؤلف لهذا الغرض قبل الف ومئتي سنة بل وما يؤلف منه ايضا في القرن
العشرين عصر التثبت والتحقيق

اما ما ذكره الدكتور طه حسين عن القصص والقصاص ، فكلام تبين من ناحية
تحديد القصص وتصوير نفسية القصاص . وكل ما نلاحظه عليه ان القارىء لما
ذكره عنهم يخيل اليه انهم من الطوائف ذات الاتصال الوثيق برجال الدين ، وانهم

مالاتهم على التأثير على عقول العامة من هذا الطريق . والحقيقة ان بنية العالم الاسلامي لفظت القصص من يوم ان ظهوروا بعد خلافة عمر بن الخطاب ، وانهم قد طوردوا كما تطارد المبتدعة في كل الاجيال الاسلامية . ذلك لأن هؤلاء القصص كانوا يخلطون بين الاسلاميات وبين ما يجمعونه من هنا وهناك من اخبار الامم واخبار الافراد ، وبنية العالم الاسلامي قامت على الثبوت والتمحيص ، حتى ان المسلمين تولوا الاحاديث المروية عن النبي صلى الله عليه وسلم بالتفليسة والتحقيق فأقروا نحو عشر ما كان متداولاً مشهوراً منها ، واعتبروا نحو تسعة اعشارها مصنوعاً لا يؤخذ به . فبنية هذا شأنها من عدم الاخذ بغير الحق وان كان ديناً ، لا تحتل القصص بوجه من الوجوه . فكان يجب على الدكتور طه حسين ، دفعا لتوهم رضاء الدين او اهله عنهم ، ان يصور لقرائه مكانهم من الاسلام وذويه من عهد ظهورهم الاول الي اليوم . واذا كان هذا قد فات الدكتور طه حسين فنحن ننبه اليه وننقل ما ورد عنه في كتب ائمة المسلمين :

قال العلامة ابو عبد الله محمد بن محمد العبدري المتوفي سنة (٧٣٧) في المجلد الاول والثاني من كتابه (المدخل) :

« جاء ابن عمر رضي الله عنه الى مجلسه من المسجد فوجد قاصا يقص ، فوجه الى صاحب الشرطة (اي مدير البوليس) أن أخرجه من المسجد فأخرجه » وقال الامام ابو طالب المكي : كانوا يرون القصص بدعة ، ويقولون لم يقص في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولا في زمن ابي بكر ، ولا في زمن عمر ، حتى ظهرت الفتنة ، فلما وقعت الفتنة ظهر القصاص

« وروى الزهري عن سالم عن ابن عمر انه خرج من المسجد وقال ما أخرجنى الا القاص ، ولولا ما خرجت

« وقال ضمرة قلت للثوري : نستقبل القاص بوجوهنا ؟ فقال ولوا البدع

ظهوركم

« ودخل امير المؤمنين علي بن ابي طالب مسجد البصرة فوجد به قاصا فوقف

على كل منهم وسمع ما يقول ، ثم طردهم من المسجد جميعا الا الحسن البصري فانه ابقاه ،

والطسني البصري سبه التابعين بالاجماع وكان اعلم اهل زمانه واورعهم
 «، ووقل تميم الداري الصحابي لعمر بن الخطاب دعني ادعو الله واقص. واذكر
 الناس . فقال بخر لا . فأتاد عليه . فقال انت تريد ان تقول انا تميم الداري فاعرفوني
 » وقال ابو ادريس لئن ارى في ناحية المسجد نارا تاجج أحب الى من ان
 ارى في ناحيته قاصا يقص

« . وروى الطرطوشي قال ابو معمر رأيت يسارا ابا الحكم يستاك على باب المسجد
 وقاصه يقص في المسجد . فقلت له يا ابا الحكم الناس ينظرون اليك . فقال : الذي انا فيه
 خير مما هم فيه . انا في سنة وهم في بدعة

« قال ولما دخل سامان بن مهران الاعمش البصرة فنظر الي قاص يقص في
 المسجد . فقال حدثنا الاعمش عن ابي اسحق عن ابي وائل . قال فتوسط الاعمش
 الحلقة وجعل ينتف شعر ابطيه . فقال له القاص يا شيخ ألا تستحي ، نحن في علم وانت
 تفعل مثل هذا ؟ فقال له الاعمش : الذي انا فيه خير من الذي انت فيه . قال كيف ؟
 قال لاني في سنة وانت في بدعة ، انا الاعمش وما حدثتك مما تقول شيئا . فلما سمع
 الناس ذكر الاعمش اتفضوا عن القاص واجتمعوا حوله ، وقالوا حدثنا
 يا ابا محمد »

هذه قيمة القصاص وقيمة ما كانوا يظرفون الناس به من شر وشعر فاذا كان قد
 اعتمد عليهم بعض المغفلين من الزعماء والقادة في نشر دعوة او بث فرية ، فانما هم قد
 اعتمدوا على غير معتمد ، واستندوا الى اوعى سند

الشعو بيته وانتحال الشعر

قال الدكتور طه حسين تحت هذا العنوان :

(ان هؤلاء الشعوبية قد انتحلوا اخبارا واشعارا كثيرة واطافوها الى الجاهليين)
(والاسلاميين . وقد اضطروا خصومهم الى الانتحال والاسراف فيه . واصل هذه)
(الفرقة انما هو هذا الخندق الذي اضمره الفرس المغلوبون للعرب الغالبيين . وقد)
(اخذت هذه الخصومة مظاهر مختلفة منذ تم الفتح للعرب ، وحدثت آثارا مختلفة)
(بعيدة في حياة المسلمين السياسية والادبية)

(لم يكد ينتصف القرن الاول للهجرة حتى كان فريق من سبي الفرس قد)
(استعرب واتقن العربية واستوطن الافطار العربية ، واخذ يكون له فيها نسل)
(وذرية . واخذ هذا الشباب الفارسي الناشئ يتكلم لغة العرب ويحاول نظم الشعر)
(العربي وتجاوز هذا الى مشاركة العرب في اغراضهم الشعرية السياسية . فكان)
(منهم شعراء يتعصبون للاحزاب العربية السياسية . ولا يكاد واحد منهم يظهر)
(تأييده لحزب حتى يفرح به ذلك الحزب ويجزل الصلوات له . كذلك كان يفعل)
(بنو امية وبنو هاشم وآل الزبير . فتابحت لهم الخصومة بين الاحزاب العربية)
(ان يتدخلوا في السياسة العربية ، وان يهجو اشراف قريش وقرابة النبي)

(لم يكن هؤلاء الموالي مخلصين للعرب حقا . انما كانوا يستغلون هذه الخصومة)
(السياسية ليعيشوا وليحيوا حياة السادة الاحرار ثم لبشغوا مافي صدورهم من غيل)
(ضد العرب)

(وكانت نتيجة استنصار الاحزاب بهم ان استباح هؤلاء الموالي لانفسهم هجو)
(العرب اولائم ذكر قديمهم والافتخار به ثانيا)

(وقد هجا ابو نواس العرب وقريشا فيقال ان الرشيد اطال حبسه لذلك .)
(وانشد اسماعيل بن يسار بين يدي هشام بن عبد الملك خفره بالفرس فغضب عليه وامر)
(بالامانة في بركة كانت بين يديه ولم يخرج منها الا وقد اشرف على الموت)

(وهؤلاء الموالي قد انطقوا العرب بكثير من النثر والشعر اللذين فيها مدح)
(للفرس وتقرب منهم . وزعموا ان الاعشى زار كسرى ومدحه واخذ من جوائزهم .)
(واطافوا الى عدى بن زيد واقريط بن يعمر وغيرهما من اباد والعباد كثيرا من الشعر)
(فيه الاشارة بملوك الفرس وسلطانهم وحيوشهم . وانطقوا شاعرا من شعراء الطوائف)

- (بائيت وهي تضاف لابي الصامت بن ربيعة يمدح فيها الفرس . على هذا النحو انتحل)
(للموالي الشعر والاختيار واطرافها للعرب ذكرها لما اثر الفرس وما كان لهم من مجد)
(وسلطان في الجاهلية فكان العربي مضطرب الى ان يجيوا بلون من الانتحال يشبه)
(هذا اللون فيه تليب للعرب على الفرس)
- (ومن هنا مواقف هذه الوفود التي تتحدث امام كسرى بمحامد العرب وعزتها)
(ومن هنا هذه المواقف التي تضاف الى ملوك الحيرة والتي تظهر هؤلاء الملوك احيانا)
(عصاة مناهضين للملك الاعظم . ثم من هنا هذه الايام التي كانت للعرب على الفرس)
(والتي تحدث النبي عن بعضها وهو يوم ذي قار)
- (فالشعوبية في مظهرها السياسي الاول قد حملت الفرس على انتحال الاشعار)
(والاختيار وكرهت العرب على ان يلقوا هذا الانتحال بمثله)
- (على ان هذه الشعوبية لم تلبث ان استعالت بعد سقوط الامويين وقيام)
(سلطان الفرس على يد العباسيين الى خلاف له صورة علمية ادبية . وكان هذا)
(النحو من الشعوبية اخصب من النوع السابق وابلغ في حمل العرب والفرس على)
(الانتحال والاسراف فيه)
- (ولعلك تلاحظ ان الكثرة المطلقة من العلماء كانوا من المعجم الموالي ، وكانوا)
(يستظلون بسلطان الوزراء من الفرس ايضا، وكانت غايتهم قد استعالت من)
(اثبات سابقة الفرس في الملك الي ترويح هذا السلطان الذي اكتسبوه ايام بني)
(العباس واقامة الادلة على ان الامر قد رد الي اهله، وان العرب الذين حيل بينهم)
(وبين السيادة الفعلية لم يكونوا اهلا لتلك السيادة)
- (فاما ابو عبيدة الذي يرمج العرب اليه فيما يروون من لغة وادب كان من اشد)
(الناس بغضا للعرب وكان وضع كتابا اسمه (مثالب العرب) . واما غيره من علماء)
(الموالي فقد كانوا يمشون في ازدياء العرب الى غير حد، ينالونهم في حروبهم وشعرهم)
(وخطاباتهم ودينهم ايضا، فليست الزندقة الا مظهرا من مظاهر الشعوبية، وليس)
(تفضيل النار على الطين، وابليس على آدم، الا مظهرا من مظاهر الشعوبية للفرسية)
(التي كانت تفضل المجوسية على الاسلام)

(والذى يميننا من هذا كله ان نلاحظ ان الجاحظ وامشاله من الذين كانوا)
(يبنون بالرد على الشعوبية مها يكن علمهم لم يستطيعوا ان يعصموا انفسهم من هذا)
(الاتحال الذى كانوا يضطرون اليه ليسكتوا خصومهم من الشعوبية . وكانت)
(الشعوبية تنتحل من الشعر ما فيه عيب للعرب وغض منهم، وكان خصوم الشعوبية)
(ينتحلون من الشعر ما فيه ذود عن العرب ورفع لا قدرهم)
(ونوع آخر من الاتحال دعت اليه الشعوبية ذلك ان الخصومة بين العرب)
(والعجم دعت العرب وانصارهم ان يزعموا ان الادب العربي القديم لا يخلو اولا)
(يكاد يخلو من شيء تشتمل عليه العلوم المحدثه، فان عرض لشيء من هذه العلوم)
(الاجنبية فلا بد من ان يثبتوا ان العرب قد عرفوه أو ألموا به او كادوا يعرفونه)
(ويلبسون به، وهم مضطرون الى ذلك ليثبتوا فضلهم على هذه الامم المغلوبة،)
(واضطرارهم كان يشتد بمقدار ما يفقدون من السلطان السياسي وبمقدار ما ترفع هذه)
(الامم المغلوبة رؤسها)

زائنا في هذا الكلام

يستخلص مما كتبه الدكتور طه حسين في الشعوبية ان الفرس والعرب كانوا
من التحاقد والتضاغن، حتى بعد ان جمع بينهم الاسلام، بحيث بات كل فريق منهم
يتربص بالفرق الآخر الدوائر، وأن هذه الخصومة احدثت آثرا بعيدة المدى في
حياة المسلمين السياسية والادبية . فكان شعراؤهم يتمصبون للاحزاب السياسية لاعن
اخلاص وحسن نية، بل لجر المغانم، وكسب الدراهم . وقد تذرعوا بذلك الى ثلب
اشراف قريش وقرابة النبي صلى الله عليه وسلم

وقد قوّلوا العرب الجاهليين ما لم يقولوه من الشعر في مدحهم والاشادة بذكورهم .
واضطروا العرب لان ينحوا نحوهم في وضع الشعر المناقض لمزاعمهم . واختلق العرب
من جراء ذلك حكايات الوفود التي قيل انها اوفدت الى كسرى تذكر محامد العرب

ومناقبتهم ، ووقائع لم تحدث زعموا. انهم انتصروا فيها على المعجم ، وشفوا صدورهم من
الاثنان فيهم

ثم استعالت المحصومة بين الامتين بعد سقوط الدولة الاموية الى خلاف علمي
حمل الفريقين على الاغراق في انهال الشعر والاخبار الكاذبة . وبما ان اكثر العلماء
الاسلاميين كانوا من الفرس ، ووزراء الدولة من الفرس ، فقد اخذوا يقيمون الادلة
على ان الامر قد عاد الى اهله ، وان العرب لا يستحقون تلك السيادة التي كانوا
حصلوها ثم زالت منهم . وكان هؤلاء العلماء يمشون في ازدياء العرب الى غير حد
حتى في دينهم . فان الزندقة وتفضيل الجوسية على الاسلام كانت اذذاك اثر من
آثارهم

ذكر الدكتور طه حسين كل هذا ولم يستثن طائفة ولا جيلا ، فلا يتالك القارىء
نفسه من الازدياء بالفريقين ، بالفرس لمحبهم وخيانتهم والحادهم ، وبالعرب لمبئهم
وغباوتهم واستخذائهم . فان سأل سائل كيف يعقل ان امة وصل الدخيل من جثمانها
الى النخاع تستطيع ان تؤسس في عهد الدولة الاموية لنفسها ملكا لم ينبغ لامة من
الامم قبلها ، ثم توجد لنفسها في عصر العباسيين الذي تلاه مدينة لم تشرق الشمس
على اكل منها الى عهدها ، تنتهي اليها فيها الخلافة العلمية والعملية والفنية في
الارض ؟

لو سأل سائل عن هذا لم يجد احد جوابا شافيا ولو كان اعدى اعداء الاسلام ،
اللهم الا ساقطا من القول ، وآفنا من الرأي ، وهراء من المزاعم ، ومتى أغنى مثل
هذا في طمس الواقع المحسوس ؟

ان الدكتور طه حسين في بحثه عن مصادر الشعر المخلق المنسوب للجاهليين ،
وفي تحريره عن علل هذا الاختلاق ، اضطر ان يعول على كتب المحاضرات كالاتاني
والعقد الفريد والبيان والتبيين وغيرها ، ولا ندرى كيف قاته ان هذه الكتب ادبية
فكاهمة قاصرة على البحث في اطوار فن واحد يكثر فيه الخلط والخطب . وكان
يغلب على اهله ، وهم ادياء المصور الخالية ، المجانة والاباحة والجرى وراء الخيال ،
وتصيد الرزق بالمدح والهجاء ، والتقرب الى الرؤساء بكل وسيلة من الجد والهزل .

حتى كان منهم من هجا امه واباه وامراته وهجا نفسه ايضا . فلا مذهب ديكرت ، ولا اى اسلوب فلسفى فى الارض ، يسمح لواحد من شيعته فى القرن العشرين ان يصدر على امة كانت لها اكبر الآثار فى العالم مثل هذه الاحكام المناقبة لطبيعة الاشياء ، اعتمادا على مثل هذه المصادر التى لو سلط عليها نقد جدى لتنى تسمة اعشار ما فيها لعدم موافقته للمألوف ، وشطرا من العشر الباقى لتقص سنده التاريخى

نحن لا نتكر ان نقرأ من الشعراء الذين اصولهم فارسية ، ونقرأ آخرين من أبناء جلدتهم الذين لم يتأدبوا بأدب الاسلام فى مسألة الهندسية ، قد لعبت بقولهم الميول الوراثية ، فلجأوا الى احياء العصبية ، فى دائرتهم المحلية . كما لا نتكر ان رجلا من العرب الذين لاحظ لهم من الاسلام الا الالتحاق باهله ، لم يفقوا مع نص الدين فى امارة الفوارق الاجتماعية ، قام الفريقان باحياء سنة الجاهلية ، من التفاخر بالآباء ، والتنازع باللقاب والاسماء ، وارتكبوا فى تسكهم فى هذا السبيل جريمة الاختلاق على الأقدمين . ولكننا نرى ان هذا من الامور الطبيعية حتى فى الامة الواحدة التى يجرى فى عروقها دم واحد ، وتعيش كلها فى بيئة واحدة ، وفى القرن العشرين نفسه . فهل يجهل احد ما أوجده العرف من الفوارق بين الاغنياء والفقراء ، وبين ذوى البيوت والصمايك ، وبين البيض والسود ؟ ثم أليس كتاب الدكتور طه حسين مشحونا بأخبار عصبية القبائل العربية ، ذات القرابة القريبة ، وما ابنتى على تلك العصبية قبل الاسلام من حروب ساحقة ، وحزازات ماحقة ، فهل يستغرب بعد ذلك ان يقوم بين زعاقف من امتين مختلفتين ، ما قام مثله ويقوم الى اليوم بين أبناء الامة الواحدة ؟

واكن ابن الدكتور طه حسين من هذا المثل الأعلى الذى اوجده الاسلام من ادماج الامم بعضها فى بعض ، وسل ما بينها من السخائم الموروثة منذ اجيال ، وتأليفه منها دولة قامت لأول مرة فى تاريخ البشر على المبادئ الاعلى الجنسية ؟ ان من شاء ان يرى المثل المحسوس من هذا الامر المدهش ، الذى عجز عنه الاولون والآخرين ، فلينظر الى الامة الاسلامية فى القرون الثلاثة الاولى من حياتها ليرى ان

العربي اللطخ كان يأخذ لفته وادبه ودينه ووثوقه بوسياسته وعلمه عن ناس لا يسألهم عن أنسابهم وأبجئاسهم ، ولا يبالي بألوانهم ولا صورهم ، حتى اتفق ان كانت جهرتهم من اجئاس اجئبية ، وقد ادى اليهم من الاحترام والتبجيل ما كان يؤديه لبني جلدته الذين كانوا في مثل رتبتهم . فكانت حال هذه الامة في هذا الامر من اغرب الاحوال ، تدل على مبلغ ما أقاده الاسلام للامة العربية ، ذات العصبية الحادة ، من الادب الاجئاعي العالى الذى قصرت عن مثله الفلاسفة في كل أدوارها الي يومنا هذا

كانت الامصار والاقطار التى تعتبر مراكز للعلم والدين ، يُشعان منها على ما حولها من البلدان في عصر بنى امية ، مكة والمدينة والبصرة والكوفة واليمن ومصر والشام والجزيرة وخراسان . فكان في كل عاصمة من هذه العواصم ، ومدينة من هذه الاقطار إمام يقوده اهلها في الدين ، ويرجعون اليه في الفتوى أفلا تعجب ان ذكرت لك أن كل هؤلاء الائمة الذين اخذ المسلمون عنهم الدين والعلم كانوا من الموالى الذين يقول عنهم الدكتور طه حسين انهم كانوا يكرهون العرب ، ويضمرون لهم الخصومة ، الا واحدا هو ابراهيم النخعي الذى كان امام اهل الكوفة ، فانه كان عربيا خالص المروبة . اما من عداه فكانوا فرسا او ديلما او تركا او من اجئاس اخرى ؟ فقد كان عطاء بن ابي رباح اماما في مكة ، وطاوس في اليمن ، ومكحول في الشام ، ويزيد بن ابي حبيب في مصر ، وميمون في الجزيرة ، والضحاك بن مزاعم في خراسان ، والحسن البصرى في البصرة ، وكلهم من الموالى

ذكر السخاوى في شرح العمية الحديث للقرافى ان هشام بن عبد الملك الخليفة الاموى قال للزهرى : « من بسود اهل مكة ؟ قال عطاء . قال بم سادم ؟ قال الزهرى سادم بالديانة والرواية . قال هشام نعم ، من كان ذا ديانة حقت الرياسة له . ثم سأله الخليفة عن اليمن ؟ فقال الزهرى امامها طاوس . وكذلك سأله عن مصر والجزيرة وخراسان والبصرة والكوفة ؟ فأخذ الزهرى يعد له أسماء سادات هذه البلاد ، وكلما سمي له رجلا كان هشام يسأله هل هو عربي ام مولى ؟ فكان الزهرى يقول مولى . الي ان أتى على ذكر النخعي فقال انه عربي . فقال هشام الآ فرجت عني ،

والله ليسودن الموالي العربَ ويخطب لهم على المنابر
وهذا الحسن البصرى الذى يعتبر امام أئمة هذه الامة، والمرجع الأعلى للدين والعلم
والفتيا كان فارسيا من الموالي . وقد بلغ من الشرف وسؤدد أن شدد التكبير على
الحجاج بن يوسف الثقفى واغلق له فى القول
وكان رأس التابعين والمقدم عليهم سعيد بن جبير وهو اسود اللون، وكان قد
ولاه الحجاج اقامة الصلاة فى الكوفة ، والكوفة اذ ذاك مُعَشَّش العرب ،
وقبة الاسلام

وكان سليمان الأعمش الامام المشهور عبدا اعجميا ، وقد كان من العزبة
والمنعة بحيث يزدرى بأمر هشام بن عبد الملك . فقد ذكر ابن خلكان فى ترجمته
ان هذا الخليفة الاموي طلب اليه ان يكتب له مناقب عمان ومساوىء على .
فأخذ كتاب هشام وألقمه عنرا كانت عنده وقال للرسول قل لأمير المؤمنين هذا
جواب كتابك

وكان ابو حنيفة صاحب المذهب فارسيا وقد لقبه العرب انفسهم بالامام الاعظم،
واخذوا عنه الدين غير متخرجين ، ولا متأثرين . وجمهرة العلماء الذين حفظوا القرآن
والاحاديث كانوا من الفرس وغيرهم ، وهم البخارى ومسلم صاحبى الصحيحين ،
والترمذى والنسائى وابن ماجه والدارقطنى والسجستاني وغيرهم اصحاب بقية كتب
السنة الصحيحة ، لم تحمل جنسيتهم فى نظر العرب دون اعتبارهم أئمة علم الحديث ،
وحسبانهم كتبهم المراجع الوثيقة له

وقد كان وهب بن منبه من اقدم رواة الحديث واصحاب التفسير وهو فارسى
الاصل ، وكان نافع صاحب القراءة المشهورة ديلما

اما اقدم الفقهاء الذين اخذ عنهم الأئمة مذاهبتهم غير من ذكرنا فالحسن بن ابى
الحسن ، ومحمد بن سيرين بالبصرة ، ومجاهد ، وسليمان بن يسار فى مكة ، وزيد بن
سلم ، ومحمد بن المنكدر ، ونافع بن ابى نجيح فى المدينة ، وربيعة الراى ، وابن ابى
الزناد فى قبا ، وكل هؤلاء كانوا من الموالي

ولو أردت سرد اسما علماء الموالي الذين يتبرون بالسلب الصالح لهذه الامة

لكتبت صحفا كثيرة، فلا أكتف بهذا القدر لشهرة هذا الامر شهرة مستفيضة في
لجميع مراكز العالم الاسلامي

فهؤلاء هم أئمة الدين الاسلامي اخذوه عن اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم مباشرة
ونشروه بين الناس، فشجنت الكتب بأرائهم ومذاهبهم واحترمها المسلمون من اول
عهدهم الي اليوم

فان كان صحيحا مقاله الدكتور طه حسين عن الموالي وجب ان يكون المسلمون
منذ الف وثلاث مئة سنة الى اليوم من الغفلة والغباوة والبلادة في الحضيض الأسفل،
اذ احذوا دينهم عن قوم من الطراز الذي وصفه الدكتور طه حسين باضمار الخصومة
للمسلمين الاولين وبكراهة الاسلام وتفضيل الجوسية عليه... لا يقول بهذا عاقل.

٦

الرواة وانتحال الشعر

ختم الدكتور طه حسين كلامه عن الاسباب المختلفة التي حملت على انتحال
الشعر و اضافته الى الجاهليين بفصل تحت عنوان الرواة وانتحال الشعر لم نجد فيه
شيئا يستحق النقد وقد مر كلامنا على الرواة في اول هذا الكتاب، وان
فيه لبلاغا



فهرست

	ص
مقدمة الكتاب	١
تقد كتاب الشعر الجاهلي (الكتاب الاول) تمهيد	٣
رأينا في هذا الكلام	٥
منهج البحث	٩
رأينا في هذا الكلام	١٠
مرآة الجاهلية يجب ان يلتبس في القرآن لافي الشعر الجاهلي	١٦
رأينا في هذا الكلام (تمهيد - تاريخ العرب في الجاهلية)	١٩
مناقشة ما كتبه الدكتور طه حسين في العرب	٣١
هل كان للعرب الجاهلية حياة دينية قوية وحياة عقلية قوية ؟	٣٣
مبلغ اتصال العرب بالامم الاجنبية من الوجة السياسية والاقتصادية وتأثيرهم في السياسة العامة	٤٦
الشعر الجاهلي واللغة	٥١
رأينا في هذا الكلام	٥٤
الشعر الجاهلي واللهجات	٧٢
رأينا في هذا الكلام	٧٢
الكتاب الثاني (اسباب انحلال الشعر)	٧٤
رأينا في هذا الكلام	٧٥
السياسة وانحلال الشعر	٧٧
رأينا في هذا الكلام	٨٤

الدين واتتحال الشعو	١٢٥
رأينا في هذا الكلام	١٢٨
القصاص واتتحال الشعر	١٣٩
رأينا في هذا الكلام	١٤١
الشعويته واتتحال الشعر	١٤٤
رأينا في هذا الكلام	١٤٧
الرواة واتتحال الشعر	١٥٢



المصنف المفسر

ثمان مئة وست عشرة صفحة في القطع الكبير

كان الناس يقرأون القرآن قمر بهم الفاظ لا يفهمونها ، وتعبيرات تتعالي عن مداركهم ، فيهملون الرجوع فيها الى التفسير لاقتضاء ذلك منهم وقتاً لا يملكونه ، ولأن المفسرين عنوا عناية خاصة بالعلوم الآلية فيعسر علي مريد النظرة العجلى ان يتناول مراده من قريب . شعرنا نحن بهذه الحاجة الماسة فألفنا تفسيراً وطبعناه علي هامش مصحف استكتبناه أحد خطاطي مصر ثم أعدنا طبعه مرة ثانية ونفدت الطبعتان واليوم طبعناه للمرة الثالثة ولكن في شكل يبلغ الغاية في الاتقان فعمدنا الى أجمل مصحف في العالم وأخذنا صورته بالزئكوغراف وأحطنا كل صفحة منه بتفسيرها في حيزين حيز للالفاظ وحيز للمعاني . ففي الحيز الاول استوعبنا الفاظ الصفحة وشرحناها شرحاً لغوياً مضبوطاً بالشكل وتوسعنا فيه علي قدر مايسمح به المقام ، لنعطي مطالع الذكر الحكيم مجموعة من الكلم العربية تفيده في ترقية محصوره اللغوي ترقية بعيدة المدى ، لأن القرآن الكريم استوعب أفصح الفاظ اللغة العربية وقد أتينا في الحيز الثاني علي معاني الآيات الشريفة في عبارات عصرية ، خالية من المصطلحات الفنية ، ومفرغة في قالب خاص يُظهر لقارئه كل ما فيها من الالفاظ المحذوفة مما يقتضيه الإيجاز المعجز للكتاب الالهي ، ولا يمكن الاهتداء اليه الا بموقف من أقطاب اللسان العربي

وقد راعينا مع كل هذا ان نأتي علي أسباب نزول الآيات حتى لا يفوت القارى

شيء مما تصبو نفسه الي الوقوف عليه مع الإيجاز الموفى بالحاجة

ثمان النسخة غير المجلدة منه ٦٠ قرشاً وثمان المجلدة تجليداً متقناً محلي بالنقوش

المذهبة ٧٠ قرشاً

كتاب معجم الوörter الرابع عشر

ثمانية آلاف وأربعمائة وست عشرة صفحة في عشرة مجلدات

مامن انسان الا وتعرض له مسائل في كل ضرب من ضروب المباحث يجب ان يرى فيها خلاصة سائفة يجدها ساعة طلبها بدون كلفه ولا عناء ، يستغنى بقراءتها عن سؤال العارفين وعن تصفح مطولات الكتب ساعات طويلة . فدائرة معارف القرن العشرين تقوم بتوفية هذه الحاجة فتجيب على كل سؤال يوجه اليها بأوفى بيان ، فمقتنيها يكون كمن لديه مجمع علمي مسخر للإجابة على كل سؤال يلقيه اليه في اى فرع من فروع العلم القديمة والحديثة

فمن اراد معرفة كلمة لغوية ، أو قاعدة نحوية ، أو مسألة فقهية أو شرعية ، أو ترجمة رجل مشهور ، أو تاريخ امة وجغرافيتها ، أو تفصيلات مرض من الامراض وعلاجه ، أو اسعاف اصابة فجائية ، أو تسكين ألم مباغت ، أو تركيب علاج ، أو خواص عشب ، أو قيمة غذاء ، أو حياة نبات أو حيوان ، أو خلاصة في العلوم الحديثة ، أو رأى في الفلسفة ، أو أى فذلكة احصائية ، أو اى شى يبحش بالصدور ويدخل في نطاق العلم البشري وجد ذلك ساعة طلبه بعبارة وافية واضحة لأن كل المسائل العلمية فيه مرتبة على حروف الهجاء

فاقتناء مثل هذا الكتاب يفنى الانسان عن ادخار مكتبة كاملة ويجعله يشارك كل ذى علم في علمه ويرفعه الى المستوى الذى يتوق اليه فى معترك الحياة . وعصرنا عصر العلم لا يمكن المعيشة فيه بدونه . وامن من الناس يستطيع ان يختار لنفسه الكتب الضرورية له ؟ وابن الوقت الذى يمكنه من البحث فى الوف الصفحات ليستخرج منها بعد اجهاد النفس ساعة أو ساعتين ماهو فى حاجة اليه فى الدقيقة التى هو فيها كاسعاف مصاب بمرض فجائي مثلا ؟

فدائرة المعارف تقني عن هذا كله وتصفح كل طالب بجواب مسئلته من أوثق المصادر ساعة طلبه . ولاجل سد هذه الحاجة الماسة انشئت دوائر المعارف في كل بلد متمدن ، واقتناها حتي العامة فأصبح بها الذي حرم في صغره من العلوم العالية يشارك المتخرج من أكبر جامعة في فهم ما يريد الامام به .
وقد اعتمدت وزارة المعارف دائرة معارف القرن العشرين فاشتركت فيها جميع مدارسها .

وقد آمنا طبعه للمرة الثانية منقحة مهذبة وهي موجودة تامة مجلدة وغير مجلدة ثمنها ٥٤٠ قرشاً بدون تجليد و ٦٤٠ مجلدة تجليداً متقناً جداً

تسهيل اقتنائها للراغبين

تسيلاً لاقتناء هذه الدائرة وتأسياً بمؤلفي الغرب رأينا ان نبقى باب الاشتراك فيها مفتوحاً فترسل للطلاب مجلداً منها كل شهر بـ ٥٤ قرشاً بدون تجليد و بـ ٦٤ قرشاً بتجليد محولة هذه القيمة علي البوستة
ومن شاء أكثر من مجلد ارسلنا له ما أراد . الطلبات ترسل الي مؤلفها :
محمد فريد وجدى (بوسنة السيدة) مصر

على اطلال المذهب المادي

هو كتاب أتينا فيه على جميع اصول الماديين وفلسفتهم وناقشناهم فيها مناقشة علمية وأوردنا آراء عشرات من العلماء والفلاسفة في هذا الباب فجاء اجمع كتاب في اللغة العربية لما تمس اليه حاجة الباحثين في كنه المذهب المادي وفلسفته ونهاية ما عنده من الشبه والاستشكالات
ونظراً لكثرة الكلام اليوم في المادية والماديين نرى ان كل غيور علي الحقيقة

يجب عليه أن يتحصن بخد هذه التعاليم الضارة بقراءة هذا المؤلف الذي وضعناه
خفيضاً لهذا الغرض . وهو يتألف من ثلاثة أجزاء :

(الجزء الأول) في المذهب المادي ومناقشة الماديين في أصولهم وآراء رؤسائهم
الفلسفة وأقطاب العلوم فيها

(الجزء الثاني) هو مجموعة مقالات كنا نشرناها في المقتطف تحت عنوان :
(اثبات الروح بالمباحث النفسية) أتينا فيها على المباحث التي يجريها العلماء اليوم في
أوروبا لإثبات روح الانسان من طريق التجربة وفيه كلام مستفيض على ما يسمونه
استحضار الارواح وما وقف عليه علماء الطبيعة من ذلك على الاسلوب العلمي
التجريبي

(الجزء الثالث) هو ترجمة بحث ممتع للفيلسوف الفرنسي جان فينو صاحب المجلة
العالمية اسمه (فتح جديد الروح خالدة) أتينا فيه على آراء العلماء ومباحثهم التجريبية
في خلود الروح ، واستطرد الى مباحث فلسفية اخرى تتعلق بذلك
من الثلاثة الأجزاء خمسة وعشرون قرشاً ونصف

دستور التغذية

هو كتاب أتينا فيه على الاغذية وقيمتها المغذية وما يصلح للامزجة المختلفة
ومقاديرها بالضبط كما تعطيه المقررات الكيماوية الحديثة ، وفيه ترجمة فصول ضافية
عن ائمة الطب في علاقة الاغذية بالصحة والمرض وفي احسن اسلوب لحفظ الصحة
من طريق التغذية الصالحة الخ الخ
ثمنه سبعة قروش ونصف

